

A 66

طرسین

صوت باریس

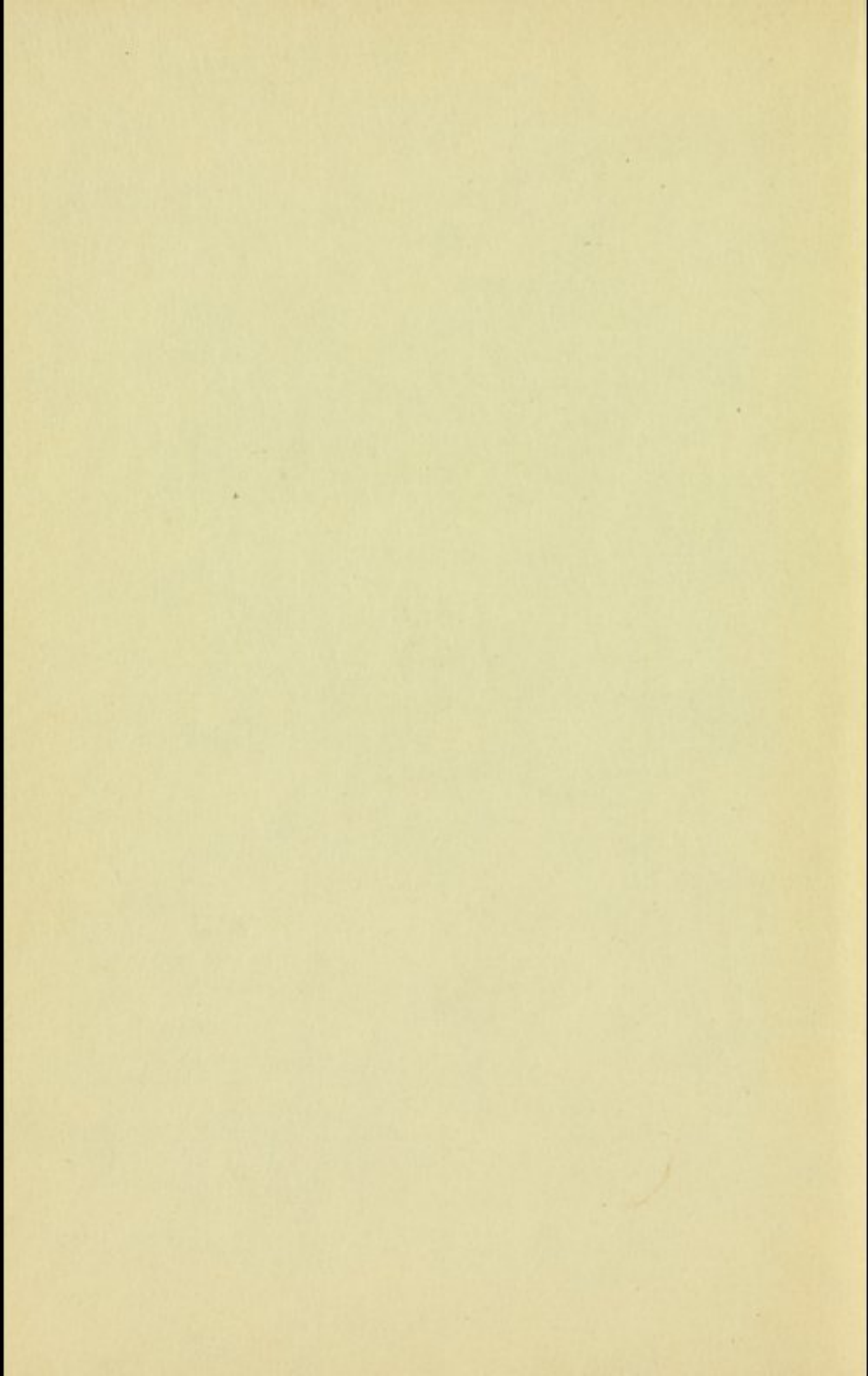
۲

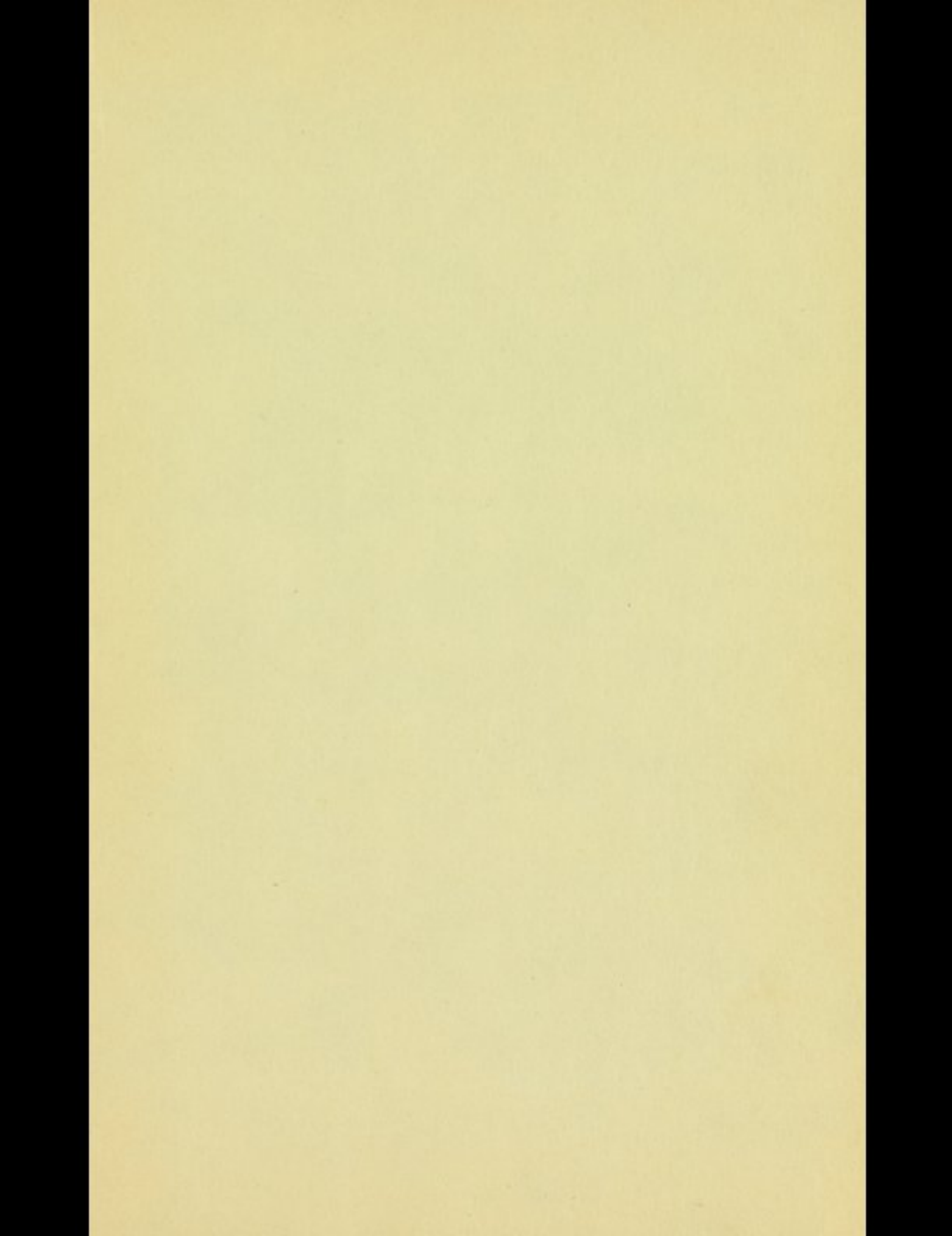
مطبعة المعارف وکتابخانه بصر

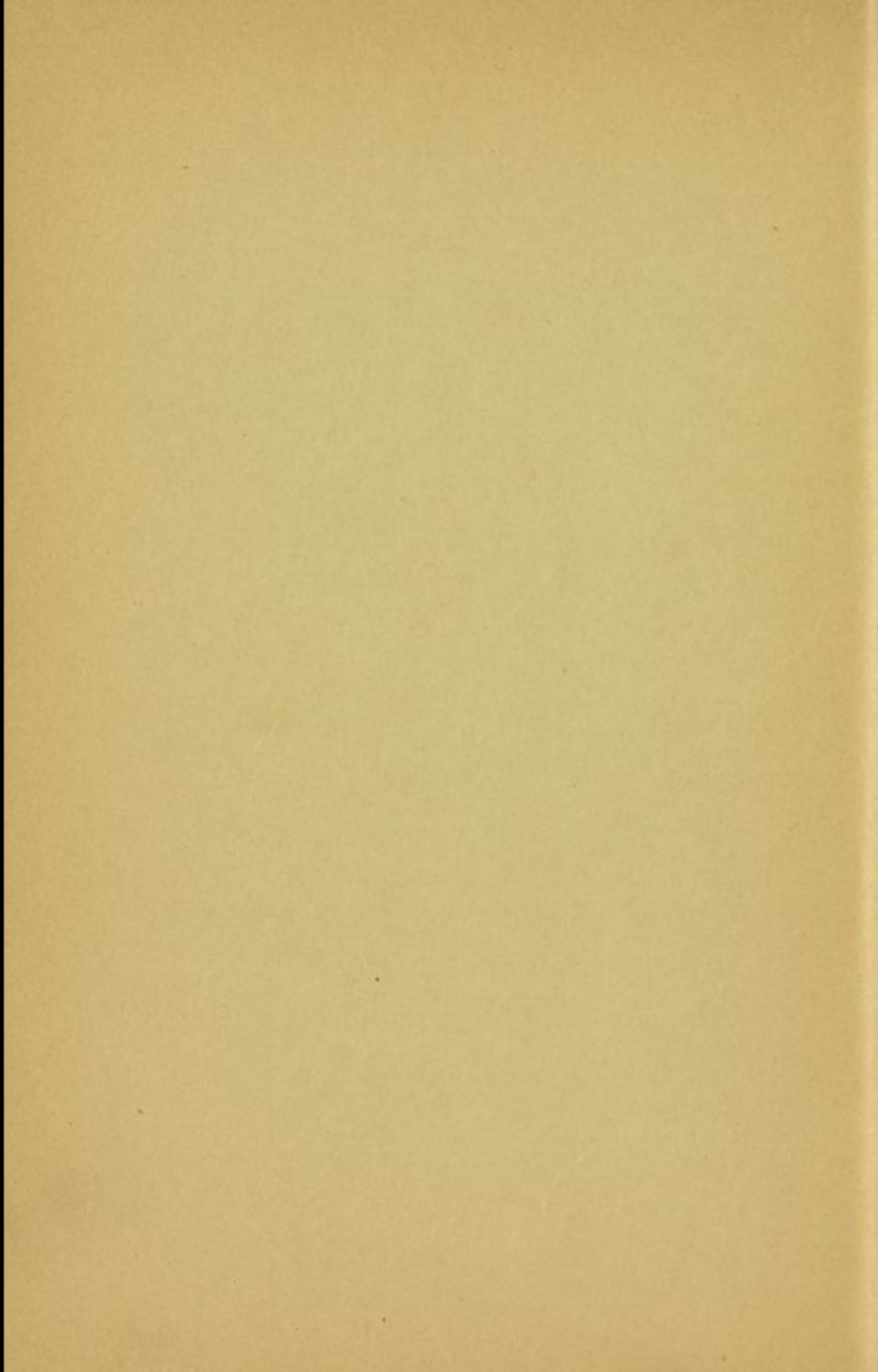
Columbia University
in the City of New York

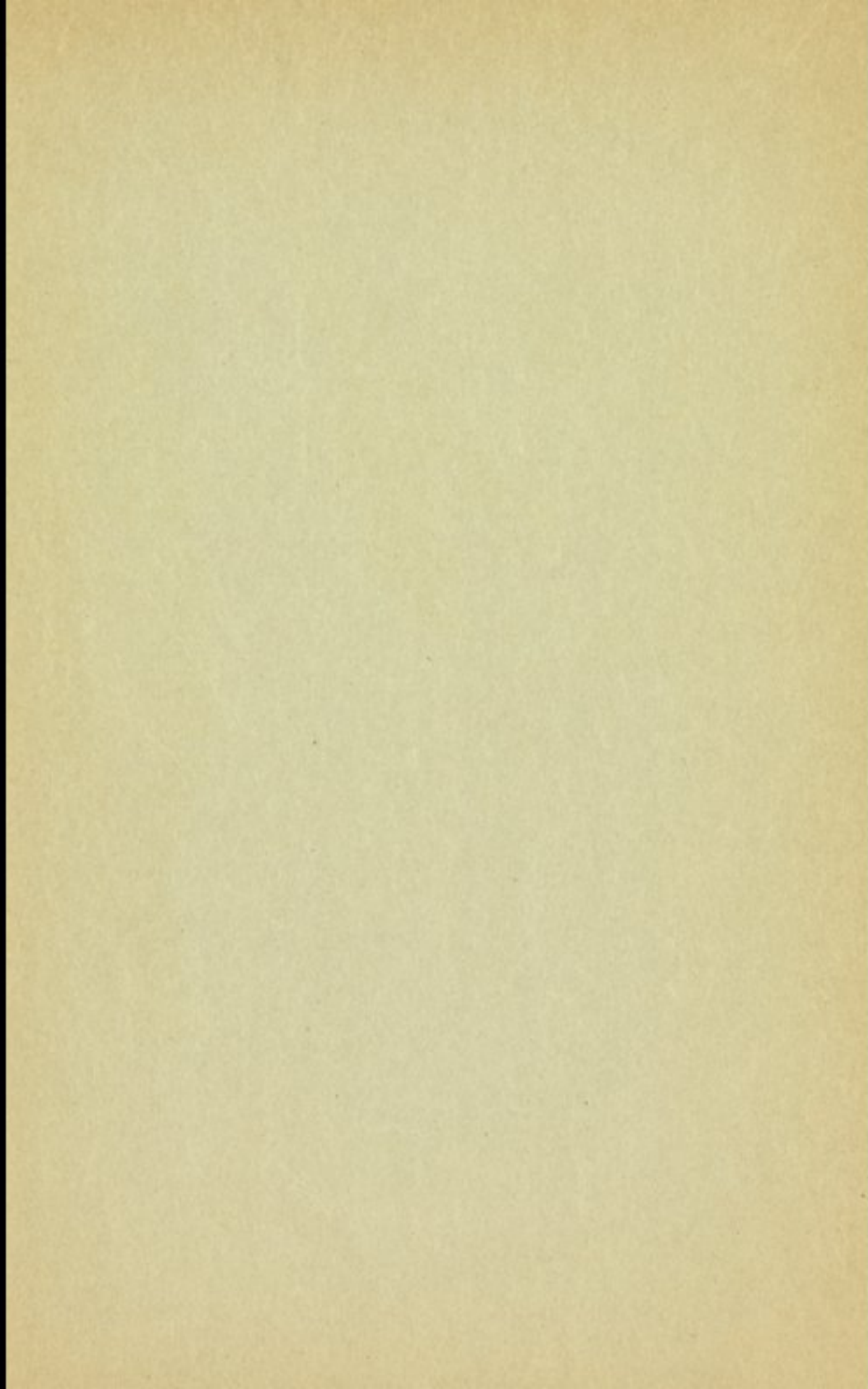
THE LIBRARIES











طه حسين

صوت باريين

٢

893.1H954

W3

v. 2

ميشيل بوبير

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « هنرى بيك »

وكان الكاتب يستطيع أن يسميها غير هذا الاسم ، وأن يتخذ أى اسم من أسماء أشخاصها عنواناً لها . فجميع أشخاص هذه القصة خليقون أن يعطوها أسماءهم لأنهم جميعاً خليقون بالعناية مثيرون فى نفسك رغبة الاستطلاع وبعثون فيها عاطفة قوية ، عاطفة الإعجاب حيناً وعاطفة الإشفاق حيناً آخر ، وعاطفة الغضب مرة ، وعاطفة الرضا مرة أخرى . كلهم خليق بالعناية ، وكلهم يصلح موضوعاً لبحث نفسى منتج قوى يلذ العقل ويلذ الشعور معا . وقد يكون هذا الاسم الذى اختاره المؤلف أظهر أسماء القصة ، وقد يكون هذا الشخص الذى آثره الكاتب أشد أشخاص القصة استثارة لإعجاب الجماهير وعامة القراء والنظارة . ولكنى أؤثر على هذا الشخص مع إعجابى به وعطفى عليه شخصين آخرين : أحدهما يستحق الإعجاب المطلق والإجلال الذى لا حد له ، والآخر يستحق شيئاً من الإشفاق غير قليل ويدعو مع استحقاقه للإشفاق إلى شىء كثير من الروية والتفكير .

وليس هؤلاء الأشخاص الثلاثة وحدهم هم الذين يستحقون العناية
ويضطرون القارئ إلى التأمل فيهم والتفكير في أمرهم ، بل هناك
أشخاص ثلاثة آخرون كلهم خليق بالتفكير ، وكلهم يستثير في نفسك
عاطفة قوية كما قلت . وفي الحق أنى لست أدري أنحن بازاء قصة
واحدة أم قصتين أم قصص ثلاث أم أكثر من هذه القصص الثلاث
أيضاً . بل في الحق أنى لست أدري أنحن بازاء قصة أو قصص تدرس
الأشخاص وحياتهم النفسية القيمة ، أم نحن بازاء قصة أو قصص تدرس
طائفة من الأخلاق وضروباً من أطوار النفس الإنسانية عامة وألواناً من
الحياة الإنسانية من حيث هي . وقد نكون بازاء هذه القصص جميعاً ،
وقد نستطيع أن ننظر إلى هذه القصة من جميع هذه الأنحاء . فمن أراد
درس الأشخاص وما يمتازون به من قوة وضعف وما يتصفون به
من خلال تدعو إلى الإعجاب ونقائص تثير الغضب وجد فيها حاجته .
ومن أراد درس الآراء والنظريات الخلقية والعلمية وما بينها وبين حياة
الناس من صلة وما لها في حياة الأفراد والجماعات من أثر وجد فيها
حاجته . ماذا أقول ! بل إنك تستطيع أن تلمس فيها شيئاً آخر غير
الأشخاص وحياتهم وعواطفهم وغير النظريات العلمية وصلاتها وآثارها ،
تستطيع أن تلمس فيها السياسة ومكانها من أهواء الأفراد والجماعات
وأثرها في نفوس الأفراد والجماعات أيضاً ، تستطيع أن تجد في هذه
القصة الممتعة هذا كله وأكثر من هذا كله ، وأنت تجده في دعة

وهدوء واطمئنان لا يحول بينك وبين الحزن الشديد ولا يحرمك
الابتسامة الخالصة الصافية ، ولكنه يعطيك منهما حظاً معتدلاً يتيح
لك أن تتعظ ولكن في غير يأس ، وأن ترضى ولكن في غير إسراف ،
ويجلى لك الحياة كما هي مملوءة بالخير والشر ، قد امتزج فيها الحلو والمر
والتأم فيها النعيم والشقاء . وأنت إلى هذه اللذة العقلية والقلبية لا تحرم
اللذة الفنية أيضاً ؛ فاللفظ سهل حلو منوع رشيق ، والأسلوب عذب
سائع مريح . تقرأ فلا يخيل إليك أنك تقرأ ، وإنما تحس أنك تحيا
وتشهد هذه الحركات والأطوار المختلفة التي تكون الناس وحياة الناس .
ولكني لا أريد أن أطيل في تقرير قصة أو نقدها ، فهي في نفسها
طويلة ، وإنما أريد أن أظهرك عليها في تلخيص شديد ودون إلحاح في
المقدمات . وكيف أظهرك على هذه القصة التي هي في حقيقة الأمر طائفة
من القصص دون أن أقدم إليك أشخاصها قبل كل شيء ؛ فحياتهم معقدة ،
ونفوسهم على سذاجتها شديدة التركيب ، وكلهم يمثل لوناً من ألوان
الناس وناحية من نواحي الحياة الاجتماعية ؛ فهم ليسوا أفراداً ، وإنما هم
جماعات ، وحظوظهم من الحياة ليست حظوظ الأفراد ، وإنما هي النتائج
الطبيعية التي تنتهي إليها حياة الجماعات وما يختلف عليها من الأطوار .
تجد في هذه القصة شخص هذا الرجل الذي كان غنياً واسع الغنى
ومثرياً ضخم الثروة ، وشريفاً مؤثلاً المجد ، نشأ في أسرة منصرفة إلى
ما يدعو إليه الشرف من ضروب المجد والزخرف والزينة واللهو ،

ولكنه انصرف إلى العلم فأحبه وتهالك عليه ووقف على تحصيله والنبوغ فيه جهوده وأوقاته وثروته ، وأبلى في ذلك أحسن البلاء ، ولكنه لم يظفر من هذا كله بشيء ، وإنما استقبل الهرم والشيخوخة في فقر وبؤس وشقاء . على أن هذا كله لم يغير من هذه النفس الراضية التي كونها البحث العلمي وعلمها أن تكون جلدة قوية شديدة الاحتمال ، فهي مبتسمة أبدا ، وهي راضية أبداً ، وهي طيبة شديدة الميل إلى العفو والمغفرة ومعونة الضعفاء والإغضاء عن هفوات الناس . هذا الشخص هو البارون فون دير هلوينك .

وتجد في القصة شخصاً آخر نشأ في أسرة بأئسة معدمة ، فذاق ألوان الألم وتقلب في ضروب الشقاء ، ولكنه أحب العلم كما أحبه ذلك الرجل الغني ، ولم يقف عليه مالاً ولا ثروة ، وإنما وقف عليه ذكاء وقوة فوفق لكثير ، وإذا هو يظفر بالاختراع بعد الاختراع ، وإذا هو يستعين بالأغنياء وأصحاب الثروة على تحقيق آماله العلمية ، فيخدعونه ويعبثون به ، ويستغلون ذكاه وعلمه ، وهو يعلم هذا ولا يحسن الدفاع عن نفسه ، فيتعزى عن آلام الحياة بالعلم مرة وبالخمر مرة أخرى ، حتى يعرض له الحب ، فإذا هو قد أضاء نفسه وملا قلبه ونظم حياته و برأه من داء الخمر ، فانصرف إلى العلم وجد فيه ، وفرغ للحب واستعان به ، وإذا هو عالم ، وإذا هو غني قد ظفر بكل ما كان يريد من علم وحب وسعادة . ولكنه لا يكاد يستمتع بنتيجة هذه الحياة الطويلة الشاقة حتى تظهر له الخيانة

فتتقى على كل ما كان قد حصل وأفاد ، وتصرفه عن هذا البحث المنظم المنتج إلى ذلك البحث المشوش المضطرب . تصرفه عن العلم والحب إلى العلم والخمر ، فما يزال يبحث ويشرب حتى يقتله البحث والشرب . وهذا الشخص هو ميشيل پوبير والذي اتخذ الكاتب اسمه عنواناً لهذه القصة .

وتجد فيها شخصاً آخر ذكياً قوياً الذكاء ، غنياً موفوراً الغنى ، قد اجتهد في أن يجعل ذكائه وثروته وسيلة إلى استغلال العلم والعلماء . ولكن ذكائه أعظم من ثروته ، وأمله أوسع من جهده ، فهو يمضي أمامه غير مقدر للظروف ولا متبصر في العواقب ، مستغل هذا العالم وآثاره فيفقره ويفقر نفسه ، ولكنه يجد في نفسه من القوة ما ينهضه من كبوته ، فما يزال يمضي في طريقه متخلصاً من كل ضائقة ، ناهضاً من كل عثرة حتى يعرض له الحب الآثم من جهة والحرص على الثراء من جهة أخرى ، وإذا هو قد انتهى إلى الضائقة التي لا مخلص منها ، وإذا هو بين اثنين : الموت والسجن ، فيؤثر الموت ، وهذا الشخص هو : ديلا روزريه زعيم الأسرة التي تدرسها هذه القصة .

ثم تجد في هذه القصة شخصاً رابعاً هو امرأة . هذه المرأة خليفة بإعجابك كله ، وخليفة بإشفاقك كله ، وخليفة أن تكون المثل الأعلى للنساء . أحبت زوجها وكلفت به وأخلصت له وقدمت إليه ثروة ضخمة يوم تزوجت ، ووقفت حياتها كلها على معاونته وتشجيعه

ومواساته وتربية ابنتها . أخلصت في هذا كله راضية مبتسمة ، ثم أحست من زوجها الخيانة والإثم فتألمت ولكن في صمت ، وبكت ولكن في استخفاء ، ثم رأت زوجها وقد تورط في الإثم وألحت عليه أثقال الحياة فغفت له عن خيانتته وردت إليه قلبها وحبها كاملين ، وبدأت تغتبط بهذه الحياة المقبلة يملؤها البؤس والشقاء ، ولكن يضيئها الحب والوفاء . غير أن زوجها يسألها أيهما خليق بالعناية والحرص : الحياة أم الشرف ؟ فتجيبه : الشرف ، فتقتل زوجها بهذا الجواب وتعرض أسرتها لحياة ملؤها الشر والمكروه ، على أنها تحتمل هذا الشر راضية مطمئنة ، وتجاهده قوية جلدة وتكاد تنتصر عليه . قد أخلصت لزوجها ما عاش ، وهي الآن مخلصه لابنتها ، وهي تكاد تبني ثمرة هذا الإخلاص ، ولكن الخيانة كانت تنتظرها ، فهي لا تظفر من هذه الحياة الطويلة الشاقة إلا بهذا الإذعان المر الهادئ للقضاء . وهذه المرأة هي زعيمة الأسرة التي يدرسها الكاتب في هذه القصة .

وامرأة أخرى تجدها في هذه القصة ، خليقة بالتفكير والروية ، خليقة بالعناية والدرس ؛ لأنها تمثل التربية السيئة وأثرها في الحياة ، ولأنها تمثل هذه الظروف المنكرة التي تعرض للشباب ولما يتهيأ لمقاومتها فتفسد عليه أمره وتصرفه عن طريق الرشد إلى طرق الغي والفساد . نشأت في ثروة وعز بين أب يحبها ويسرف في حبها وأم تؤثرها وتحنو عليها ، فلم تذوق للشقاء طعماً ولم تبلى مرارة الحاجة ، ولم تعرف كيف

تحتمل الحرمان ، وإنما كانت موضوع عناية هذين الأبوين حتى شبت ناعمة راضية طامعة ، لا ترضى من الحياة بما فيها وإنما تستزيدها الخير وتطلب إليها ما لا تملك . وقد قرأت كتباً وقصصاً أفسدت عليها عقلاها أو كادت تفسده ، فهي منصرفة إلى الخيال مغرقة في الأمل ، لا ترى الحياة كما هي ولا ترضاها كما هي . ثم عرض لها فتى جميل فاتن غنى ، أظهر لها الحب فأحبهته وما كان إلا مخادعا ، ثم حاولت أن تقاومه وتتقى شره فلم تجد إلى ذلك سبيلا فتورطت في الإثم ، ولكنها استطاعت بعد ذلك أن تندم وتمحو خطيئتها . وما كان أسعدها بأن تجد الحياة الهادئة المستقيمة وأن تخلص لزوج يحبها ويكلف بها ، وقد وجدت هذا كله وكادت تظفر بالسعادة لولا أنها أرادت أن تكون هذه السعادة خالصة صافية ، فاعترفت لزوجها بالإثم فقتلت زوجها بهذا الاعتراف ، واضطرت هي إلى أن تتردى في الهوة التي كانت قد خلصت منها فعاشت فيها حيناً ، ثم جاهدت حتى خلصت منها مرة أخرى ، ولكنها لم تجد بعد هذا الخلاص إلا الحزن والشقاء والندم الذي اتخذته قريناً لحياتها ، وهذه الفتاة هي هيلين بطلة هذه القصة .

وهل أذكرك هذا الفتى المخادع الذي أشرت إليه والذي لا يرى الحياة إلا لعباً وهواً ولا يرى الأخلاق إلا سخفاً وهزواً ، والذي لا يرى النساء إلا لذة ومتعة ؟ .

وهل أذكرك هذه الخادم التي أحبت سادتها ووفت لهم وشاركتهم

في الخير وأعاتهم على الشر، ولكنها رأيت آثام الحياة ونقائصها فأثرت
أن تترك هذه الآثام والنقائص وأن تفارق باريس .
هؤلاء هم أشخاص القصة . كلهم كما قلت خليق بالعناية والتفكير .
أفأنت محتاج بعد هذا كله أن أخلص لك القصة تلخيصا مفصلا ، أم
ترى مثلى أنى أستطيع بعد هذا التفصيل أن أوجز لك هذا التلخيص
إيجازا ؟ .

نحن في باريس في بيت « ديلا روزريه » نرى ذلك العالم الشيخ
الذى أشرت إليه في أول هذا الفصل يتحدث إلى زعيمة الأسرة ، وهما
يعرضان الحياة وما فيها من لذة ومن ألم ، يذكran الفقر والغنى ،
والصحة والمرض ، والموت والحياة . وصاحبة البيت تسأل جليستها عن
قريب له من الأشراف هو الكونت دي ريفاي ، قدّم إليها منذ حين ،
وكأنها تفكر في أن تتخذه زوجا لا بنتها ، فلا يذكره الشيخ إلا بسوء ،
فهو شريف مؤثر المجد ، ولكنه رجل لا خلق له ولا دين ولا كرامة
ولا مبدأ ، ينفق مائة ألف فرنك في الميسر ، ولكنه لا ينفق فلسا
واحدا في الصدقة . ويتصل بين الجليسين هذا الحديث حتى تحس
المرأة أن زائرين قد أقبلوا ، فتنصرف ، وإذا الخادم يدخل ومعه رجل
آخر ينازعه ويدافعه وهو ميشيل پوبير ، فينصرف الخادم ويتحدث
الرجلان فتعرف من حديثهما ما قدمت لك في وصفهما ، وتعرف أن

ميشيل پو بير هذا رجل ذكى عالم بمخترعاته ولكنه فقير، يستغله التجار الذين يتجرون بمخترعاته ، ومنهم صاحب هذا البيت . وقد أقبل هذا العالم المخترع بعد أن أسرف في شرب الخمر متعمدا ؛ ليحاسب هذا الرجل وليستخلص منه حقوقه . وماهى إلا أن يقبل صاحب البيت فيدافع العالم عن نفسه حيناً ، حتى إذا أحسَّ منه الإصرار على المقاومة أراد أن يفرغ له ، فيسأل الشيخ عن حاجته ، فاذا الشيخ قد أقبل يسأله المعونة على الحياة ، ولكن الرجل يعتذر وينصرف الشيخ العالم راضياً عاذراً . ويخلو صاحب البيت إلى مطالبه ، فلا يكادان يتحدثان حتى نفهم أن ميشيل پو بير صاحب حق ، وأنه قد استكشف في معمله طائفة من الألوان يستغلها صاحب البيت ولا يعطيه من ربحه شيئاً . وقد أقبل يطلب حسابه ، وصاحب البيت يدفعه عن نفسه بشيء من المال يعرضه عليه فيأبى إلا الحساب . وهما في هذا الجدل إذ تقبل «هياين» فتتحدث إلى أبيها في دعة ودل ودعابة ، وتسخر من هذا الرجل السكران الذى يهذى ويصيح ، ويتحدث إليها أبوها في رفق وحب وإكبار ، حتى إذا انصرفت الفتاة كان قد تغير في نفس هذا العالم السكران كل شيء ، لأنه أحب الفتاة وكلف بها ، فهو لا يطلب حساباً وهو لا يقبل مالا ، وهو يحس أن صاحبه فى حاجة إلى المعونة فيعرض عليه معونته ، ولكنه يخطب إليه ابنته ، فيأبى الرجل ؛ لأن

ابنته لا ينبغي أن تكون سلعة يتجر بها ؛ ومع ذلك فإن الرجلين
يفترقان على خير ما يفترق الناس .

فإذا كان الفصل الثاني فنحن حيث كنا في الفصل الأول ، وقد
مضى حين على ما قدمت لك ، ونحن نرى صاحبة البيت وحدها
محزونة كئيبه تنتحب وتتحدث إلى نفسها بكلام يفطر القلوب ، فيه
رثاء لحال المرأة المخلصة الوفية التي قدمت نفسها وحبها ومالها للرجل ،
فانتفع بهذا كله في أثره وعقوق ، ثم انصرف عن امرأته إلى إثمه
وخيانته . وقد دخلت عليها بنتها ، فهما يتحدثان ، ونفهم من حديثهما
أن زعيم الأسرة شقي مثقل بالهموم يكتم أمره عنهما جميعاً ، وأن امرأته
تريد أن تتبين مصدر هذا فلا توفق ، وهي تلوم زوجها على إسرافه ،
وتعاتب ابنتها في ترفها . وما هي إلا أن تعرضها للزواج ، فإذا الأم تذكر
ميشيل بوير والفتاة تزدرية لأنها رأته سكران . ولكنه قد انصرف
عن الخمر وأصلح من أمره ونظم حياته ، فهو رجل مستقيم طيب النفس
طاهر القلب ذكي الفؤاد خليق أن يكفل السعادة لزوجته . ولكن الفتاة
لا تسمع لشيء من هذا وهي لا تريد أن تتزوج ، وقد تركتها أمها
وانصرفت تريد أن تزور قبر أبيها .

أجق أن الفتاة لا تريد أن تتزوج ؟ كلا ! . إنها تحب ، وتريد
أن تتزوج . انظر إليها ، لم تكذب تخلو إلى نفسها حتى دعت الخادم وأمرتها

أن تذهب إلى الكونت دي ريفاي فتنبئه بأنها وحدها الآن ، وأنها تريد أن تراه . وانظر إليها وقد خلت إلى نفسها وهي تذكر حبها لهذا الشاب وألمها بهذا الحب وإعجابها بهذا الفتى الذى يحبها ويأبى الزواج . وقد أقبل هذا الفتى ، فلا يكاد يتحدث حتى نحس منه غروراً وفجوراً وحرصاً على اللذة وحدها وازدراء لقواعد الأخلاق والحياة الاجتماعية . وهو يدعو الفتاة إلى الهرب معه والفتاة تأبى إلا الزواج ، وقد اختصما وهما يكادان يفترقان . ولكن زعيم الأسرة قد أقبل ذاهلاً مضطرباً ، وقد دفعت إليه الخادم كتاباً ، قرأه فلم يزد إلا ذهولاً واضطراباً . وانظر إليه يمسك صاحب ابنته ويريد أن يخلو إليه ، فإذا انصرفت ابنته وتحدث الرجلان رأينا زعيم الأسرة يطلب إلى صاحبه المعونة المالية فيأبأها عليه ، وقد انتهى به الجزع إلى أقصاه ، فهو يقص أمره ويأشراً ما يقص ! فقد اضطرت أعماله المالية إلى التزوير ، فإما أن يجد المال وإما أن يلقى فى السجن . وقد سمع صاحبه لهذا ثم نهض وهو يرى أنه ليس من هذا المأزق مخرج إلا الموت . وتقبل زعيمة الأسرة ، فتخلو إلى زوجها وتسأله عن أمره ، وما تزال تلح عليه حتى تظفر منه بالجواب وتعلم أن الأسرة قد فقدت ثروتها كلها . ولكن هذا شيء ميسور يمكن احتماله إذا ظفرت الأسرة بما كان يجمعها من حب ، وأنى لها هذا الحب والرجل يخون امرأته وينفق حياته فى اللهو والإثم ! ولكن الرجل تائب معتذر ، وهو يستعطف امرأته ويتضرع إليها وقد طابت له نفسها فهى تعفو عنه ،

وهما خليقان أن يستأنفا حياة سعيدة على ما فيها من فقر و بؤس . ولكن الرجل يسأل امرأته وقد عرف أن الفقر لا يخيفها : هي رجلا بين اثنتين إما أن ينقذ حياته ، وإما أن ينقذ شرفه ، فما أخلق الأمرين بهذا الرجل ؟ تجيبه : إنقاذ الشرف . فيقول الرجل لنفسه : لقد قتلتني ، ثم يطلب إلى امرأته بعض الأمر ، فإذا انصرفت إلى الغرفة المجاورة قتل نفسه .

فإذا كان الفصل الثالث فقد مضت أشهر على هذا ، ونحن في ضاحية من ضواحي باريس في بيت لا تظهر عليه النعمة ولكنه ليس سيء الحال . ونحن نرى الأم تتحدث إلى ذلك الشيخ العالم الذي رأيناه في الفصل الأول ، ونفهم من حديثهما أن المرأة تلتمس لابنتها عمل مربية في أسرة غنية شريفة ، وأن هذا الشيخ قد وجد لها ما تريد ، ولكنه ينصح لها ألا تقر ابنتها على هذا ، وأن تحبب إليها الحياة وتأسيس أسرة ، فتجيبه : إن ابنتها ترفض الزواج رفضاً قاطعاً وإنهما قد سئمتا هذه الحياة في هذا البيت الذي أسكنهما فيه ميشيل پوير قريباً من معمله . وقد فهمنا أن ميشيل پوير قد صلح أمره حتى أصبح رئيس مصنع ضخمة ، وحتى أصبح غنياً يحبه العمال ويخلصون له . وهما في هذا الحديث إذ يقبل أحد العمال فيدعو السيدة إلى المصنع ويلح في هذه الدعوة ، فتصرف

المرأة وتترك الشيخ مع ابنتها . فينصح الشيخ للفتاة ألا تتم ما أرادت
وينصح لها بالزواج ولكنها تأبى ، وما يزال بها حتى تنبئه جلية أمرها .
ذلك أنها لقيت بعد موت أبيها عاشقها الكونت ، فأظهر حباً لها
وعطفاً عليها ، ثم أرادها على الإثم فدافعته وامتنعت عليه ، ولكنها
رأت منه الشر وعلمت أنه لن يتركها حتى يفتك بها ولو جثة هامة
فأسمحت ، وهي الآن تريد أن تكفر عن سيئتها بحياة هادئة لا لذة فيها
ولا حب . ولكن الخادم أقبلت تستأذن لهذا العاشق ، فينصح الشيخ
برده ، وتأبى الفتاة إلا استقباله ؛ لأنها تطمع منه في أن يتزوجها ،
فينصح الشيخ أن تتركه معه حيناً فتفعل . ويتحدث الرجلان ، فإذا
الشيخ يلوم الشاب ويؤنبه ، وإذا الفتى لا يظهر أمام هذا اللوم إلا
ازدراء لكل خلق وعبثاً بكل فضيلة واحتقارا للزواج ، بل احتقارا
لصاحبه ، فهو إنما أقبل ليلمس عندها اللذة . أليس قد أسمحت له
مرة ؟ فلم لا تمضى في هذا الإسماح حتى إذا انصرفت عنها نفسه التمس
اللذة عند غيرها ؟ ! والفتاة تسمع هذا كله في مخبئها ، وإذا هي قد
أقبلت مغضبة ثائرة فبلغت من تحقير هذا الشاب وازدراؤه بكلام غليظ
ما شاءت أن تبلغ . ولكننا نسمع ضجيجاً ، ونرى الأم مقبلة ومعها
ميشيل پوير ومن ورائهما طائفة من العمال وأهل القرية وكلهم
يصيحون بحياة ميشيل پوير . ولست أطيل عليك بتلخيص هذا
القسم اللذيذ من القصة ، فحسبك أن تعلم أن ميشيل پوير قد عرض

حياته للخطر لينقذ عماله من كارثة ، وأقبل العمال يشكرونه ويهنتونه .
وكانت في ذلك خطب تمس السياسة الفرنسية عقب الحرب . وانصرف
هؤلاء الناس جميعاً إلا ميشيل بوير . وإذا نحن نرى الشيخ يتقدم
إلى الأم يخطب إليها ابنتها لنفسه . فنرى اضطراب الأم والفتاة وغضب
ميشيل . ولكننا فهمنا أن هذا الشيخ لم يتقدم بهذه الخطبة إلا ليعلم
أمام ميشيل وأمام الفتى أنه على شرفه ومكانته يكبر الفتاة ويراهما أهلاً
للاقتران بأرفع الناس مكانة وأعظمهم شرفاً .

فاذا كان الفصل الرابع فنحن في باريس في بيت لم نعرفه من
قبل ، وقد تم الزواج بين هيلين وميشيل بوير . ولست أخلص
لك ما بين الأم وابنتها من حديث ، ولا هذه الصلوات الحارة
التي يتقدم بها الزوج إلى امرأته ، ولكن يكفي أن تعلم أن هذا
الزوج مازال يذكرك حبه وتأثير هذا الحب في حياته حتى أثر في امرأته
تأثيراً شديداً فأحبتة ، ولكن أرادت ألا تتخذه ولا تغشه فاعترفت له
بإثمها وسألته أن يعفو عنها . ولم يكد الرجل يسمع هذا حتى ثار ثأره
وهم بامرأته يريد أن يقتلها ، ثم انصرف عنها صائماً وترك البيت . وهي الآن
وحدها تبكي وتنتحب ، ولكنها قد سئمت الحياة وندمت على ما كان
منها من صدق وإخلاص ، وإذا هي تدعو الخادم وترسلها إلى عاشقها .
وما هي إلا لحظات حتى يأتي هذا العاشق وقد أزمعت الفتاة باكية أن

تعش عيشة الإثم بعد أن لم توفق لعيشة الطهر، وقد أسدل الستار ورفع .
وإذا أنت ترى ميشيل سكران يترنح سكرًا وهو يتغنى سوء حظه ،
وما زال يتغنى حتى يسقط صريعاً أمام باب الدار ، وإذا هذا الباب يفتح
وتخرج منه امرأته ومعها عاشقها فيكادان يطآن جسمه في طريقيهما .

فاذا كان الفصل الخامس فنحن في معمل ميشيل بويير نرى
هذا الشيخ العالم يتحدث إلى الطبيب فنفهم من حديثهما أن ميشيل
بويير قد جن وأنه أشرف على الموت ، وأن الخمر هي التي انتهت به إلى
هذه الحال ، ثم يخرج الطبيب وتأتي أم الفتاة . فنفهم أنها قد وقفت
نفسها على صهرها منذ ظهر إثم ابنتها فانقطعت للعناية به والسهر عليه ،
وهي تحبه كما تحب ابنها وتشفق عليه إشفاقاً شديداً . والشيخ يذكر لها
ابنتها ويستعطفها عليها وينبئها بأن قد فسد ما بينها وبين عاشقها فلا يجد
منها إلا سخطاً وإعراضاً ، فهي لاتعرف ابنتها ولا تريد أن تعرفها ،
ولكنها تنظر فاذا ابنتها مقبلة ، وإذا هي قد نسيت كل شيء وأطبقت
ذراعيها على هذه الفتاة الآثمة تقبلها وتصفح عنها وتلح عليها في العودة
إلى حيث كانت حتى لا يراها زوجها . غير أن هذه الفتاة إنما أقبلت
لترى زوجها وهي تلح في هذا ، وأما تدافعها . ولكن انظر هذا ميشيل
بويير قد أقبل ذاهلاً مفقود الرشد يخيل إليه أن أم امرأته أمه وهو
يهذى بكلام لاخير فيه . فاذا رأى امرأته أنكرها ولم يعرف من أمرها

شيئاً . ولكن امرأته تلح حتى يخلو إليها ، فتحاول أن تحدثه عن نفسها
وأن تذكره ما كان من أمرها فلا يذكر شيئاً أو قل إنه يألم ويشتد
ألمه لهذه الذكرى ، وإذا هو محتقن ، وإذا هو يدعو إلى المعونة ،
فتحاول امرأته أن تدعو أمها فيتبعها صائحاً : إنك تسرقين الماس .
وانظر إليه قد عمد إلى شيء فاستخرجه ، فإذا قطع ضخمة من الماس
ملاّت المعمل نوراً ، تلك هي نتيجة بحثه العلمى قد انتهى إليها بين
السكر والبحث ، فاستطاع أن يحول الفحم إلى ماس ، وإلى هذه
النتيجة كان يسعى طول حياته وقد ظفر بها . ولكن أدركه الجنون .
وانظر إليه الآن يظهر هذه النتيجة ويحرص عليها ، ولكنه مضطرب
ذاهب القوى ، فهو يسقط صريعاً ، وتسقط قطعة الماس من يده
فتتحطم ويدخل الشيخ ومعه أم الفتاة ، فإذا نظر إلى هذا الصريع
ومن حوله قطع الماس قال : لقد فقد الناس عالماً كبيراً ، وفقد العلم
سراً عظيماً .

الإغواء

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « شارل ميري »

ولولا أني خشيت الإغراب أو الغموض لوضعت لهذه القصة عنواناً غير هذا هو التسويل ؛ فهذه الكلمة تترجم العنوان الفرنسي ترجمة دقيقة حرفية . ولكني أقرأ في قاموس الفيروزبادي : سوّلت له نفسه زيّنت ، وسوّل له الشيطان أغواه . فليكن عنوان القصة الإغواء ، وليكن هذا الإغواء قد صدر عن النفس أو عن الشيطان ، فالأمر سواء . وما أحسب إلا أن لكل نفس من أخلاقها وأهوائها وعواطفها شياطين يغوونها ويدفعونها إلى الشر ، وملائكة يرشدونها ويحببونها إليها الخير . ولقد كنت حين بدأت أقرأ هذه القصة أعتقد أني سأحدها لك في غير تحفظ ، وسأثني عليها في غير حيطة ، ولكني لم أكّد أمضي في قراءتها حتى حسبت أن الكاتب لم يصل بعد من فنه إلى هذه المنزلة التي يحمد فيها دون تحفظ ، وإنما هو في سبيله إلى هذه المنزلة .

أنت تعرف هذا الكاتب ، فقد حدثتك عنه في شتاء السنة الماضية يوم نلصت لك قصته المعروفة « الأمير جان » ولعلك تذكر أني أشرت في مقدمة هذا التلخيص إلى أن عناية كاتبنا هذا منصرفة إلى الحركة

والعمل أكثر من انصرافها إلى الرأي والتفكير؛ فهو يريد أن يؤثر في النظارة بمؤثرات خارجية تصل إلى نفوسهم من طريق الحس، لا بهذه المؤثرات الداخلية التي تنشأ في طيات النفس وأعماق الضمير. أريد أنه يكلف الممثلين ضروباً من الحركة وألواناً من الاضطراب، وينقل الملعب من مكان إلى مكان، ويكثر من الأشخاص ومن أحاديثهم وينوع أخلاقهم وصفاتهم، ويفاجئ النظارة بما لم يكونوا ينتظرون؛ فيملك حسهم ويبهزهم، ويصل من هذا كله إلى ما يريد من تلهيتهم وتسليتهم دون أن يصل إلى شعورهم العميق. هو متصل بحسهم وبهذه الكلمات التي تمكن الإنسان من أن يلهو لهواً هادئاً لا يثير في نفسه حزناً ولا يبعث في قلبه أسى. هو يضمن للنظارة أن ينفقوا في الملعب ساعات حلوة لا يشكون فيها مللاً ولا سأمًا، ولا يفكرون أثناءها في أنفسهم ولا فيما قضا يومهم فيه من خير أو شر، ولكنه يضمن لهم إذا خرجوا من الملعب، أن يخرجوا منه كما دخلوه لا محزونين ولا مكتئبين ولا محتاجين إلى أن يفكروا فيما رأوا أو سمعوا.

قلت لك هذا أوشيناً يشبهه في العام الماضي. فلما عرفت أني سأتحادث إليك عن الكاتب نفسه في هذا الأسبوع خيّل إلى أن سيكون الأمر هيناً، لأنك تعرف الكاتب. فلم يبق لي إلا أن أخلص قصته، ثم أخذت في قراءة القصة فتغير رأبي فجأة تغيراً يوشك أن يكون تاماً؛ لأنني رأيت الكاتب نفسه قد تغير: لا يهمل الحركة واضطراب

الممثلين ، ولكنى رأيتهم يؤثر عليها الفكرة ويريد أن يتصل في هذه المرة بعواطف النفس ودخائلها . ثم مضيت في قراءة القصة فتم اقتناعي بأن الكاتب قد تغير مذهبه ، ولكنه لم يتغير تغيراً تاماً ؛ فهو محتفظ بحبه للحركة وإسرافه فيها ، ولكنه قد أضاف إلى حبه للحركة هذا شيئاً آخر جديداً . وإذا ففنه يتطور ولكن في ببطء . وأكاد أثق بأن القصص التي سيقدمها لنا في الفصل المقبل ستكون أقل حظاً في الحركة والاضطراب ، وأنه سينتهي إلى العدول عن هذا الفن الشاب المسرف في النشاط إلى فن آخر هادئ رزين فيه تذكير وفيه نفع وفيه عناية بالعقل والشعور .

والحق أني لم أبرأ من الأسف حين فرغت من قراءة هذه القصة . فأنت تعرف رأيي ، وتعلم أني أوثر من قصص التمثيل ما يجد العقل والشعور فيها معاً لذة ورضاً ، وأكره من هذه القصص ما يتصل بالحس وحده ويكاد لا يقصد إلا إلى العبث وإنفاق الوقت . وكنت أقدر بعد أن قرأت الفصل الأول والثاني أني بإزاء قصة رأي وتفكير ، وكنت معجباً بموضوع القصة وبهذه الفكرة التي أراد الكاتب أن يستغلها ، وكنت أريد ألا يشغلني الكاتب بحركته واضطرابه عن هذه الفكرة وعن أطوارها وعن آثارها ونتائجها ، فلم أظفر من ذلك إلا ببعض ما كنت أريد . ولقد أجد النقد يذكرون صلة بين هذا الكاتب وبين كاتب آخر حدثتك عنه في العام الماضي غير مرة ، وهو : « هنري باتاي »

وربما كان بين الكاتبين شيء من الشبه غير قليل ، ولكن من الخير أن نحدد هذا الشبه إن كان إلى تحديده سبيل ؛ فنلاحظ قبل كل شيء أن الكاتب الذي نحن بإزائه اليوم يشبه « هنري باتاي » من حيث إنه يعبت بالنظارة ويستأثر بحسهم ويلهيهم كما يريد دون أن يفتح لهم من الوقت ما يمكنهم من الأناة والتفكير وكشف القناع عن حيله والأعيبه الفنية . هو مسرع يعدو فيعدو وراءه النظارة حتى تكاد تنقطع أنفاسهم . وهو بارع في هذا العدو ، يلهي نظارته فلا يحسون الماء ولا تعباً ، ويصرفهم عن أنفسهم إلى فنه . ولكن الفرق عظيم جداً بينه وبين « هنري باتاي » ، فلم يكن هنري باتاي عابثاً لاعباً ليس غير ، وإنما كان شيئاً آخر . وسواء أرضيت الأخلاق والفلسفة عن تمثيل هنري باتاي أم سخطت عليه فقد كانت قصصه كلها أو أكثرها تجارب علمية نفسية . ذلك أنه لم يكن يعبت بالحس وحده ، وإنما كان يعبت بالعواطف والشعور أيضاً . ولم يكن يريد أن يلهو ولا أن يلهي ليس غير ، وإنما كان يريد شيئاً آخر . كان يريد أن يثير الحس والعاطفة ما استطاع ليعرف أقصى ما يمكن أن ينتهيا إليه . ومن هنا لا تستطيع أن تخرج من الملعب هادئاً مطمئناً كما دخلته ، وإنما أنت متأثر شديد التأثير بما رأيت وسمعت . ينقضي الليل وربما انقضى اليوم أو الأيام دون أن ينقضي هذا التأثير . ذلك شيء تجده في « هنري باتاي » ولكنك لن تجده في كاتبنا هذا . وإذا فليس الشبه بينه وبين صاحبه قوياً

ولا عميقاً ، وإنما هو شبه عرضي إن صح هذا التعبير .
وقد يكون من الخير أن أبدأ في تلخيص هذه القصة ، ولكنني أفتك
قبل كل شيء إلى أن هذا التلخيص سيكون موجزاً ، لأنني إن أتابع
الكاتب في حركته واضطرابه ، فقد تكون متابعة الكاتب فيها لذيدة
في الملعب دون التلخيص .

نحن في ضواحي مدينة جنيف ، في فندق هناك من فنادق الترف ،
وقد أقبل المساء أو كاد ، وأخذ الناس يجلسون في طُنف الفندق يتناولون
الشاي وما إليه مما يتناول في المساء . ونحن نرى في ناحية من هذا الطنف
رجلين قد جلسا إلى مائدة يتحدثان ، ونرى قريباً منهما رجلاً وامرأة
يهمسان وكأن امرأ يعنيهما . فلنعرف هؤلاء الأشخاص جميعاً . أما أحد
الرجلين فهو « موريس برونو » شاب ، ضخم الثروة ، عظيم النشاط ،
يعمل عامه كله في غير راحة ولا هدوء ، حتى يجهده العمل فيفر من
باريس إلى حيث يستريح أسابيع . وهو شديد الحياء يضطرب لأقل
شيء ، قليل التجربة . ولعل هذا هو مصدر حيائه واضطرابه . وأما
صاحبه فهو « لوثار » صديق له من هؤلاء الناس الذين تظهر عليهم
آثار النعمة ويسرون في الحياة سيرة المترفين ، ولكنهم في حقيقة الأمر
فقراء لا يستمدون نعمتهم أو ترفهم من ثروة يرثونها أو يكسبونها ، وإنما
هم عيال على أصدقائهم الأغنياء ، يعتمدون عليهم ويعيشون منهم . وهم

لا يريدون أن يؤمنوا بهذا ولا أن يظهره ، وإنما هم يخفونه حتى على أنفسهم ، بل يخفونه حتى على أصدقائهم هؤلاء ؛ فهم يأخذون من أصدقائهم ما يحتاجون إليه لا على أنه هبة أو عطاء ، بل على أنه قرض . وهم يقترضون في تمتع وإباء وفي عزة تكاد تكون طبيعية ، حتى إن الذين لا يعرفونهم يجهلون من أمرهم كل شيء .

وأما المرأة فهي « إيرين دي برج » ، لم تبلغ الثلاثين بعد . رائعة الجمال كأكثر نساء القمص . كل شيء فيها حلو خلاب : صورتها ، حركاتها ، ألفاظها ، زيها ، مذهبها في الحوار أو الكلام ، هي فتنة تتحرك . نشأت من أسرة متوسطة ، من أبوين يؤثران المنفعة على كل شيء . وقد أتيح لابنتهما خطب شريف ضخمة الثروة ، فقبلاه ودفعا إليه الفتاة دفعا دون أن يخفلا بعواطفها وهوى نفسها . وكان هوى نفسها هذا مع شاب آخر كان صديق صباها ، فأحبها وأحبته ، وخطبها وقبلته . ولكن أبويها رفضا ؛ لأن هذا الشاب لم يكن نبيلاً ولا غنياً بحيث يلائم جمال ابنتهما من جهة ومطامعها من جهة أخرى . وهذا الشاب هو « روبرت جوردان » وهو محام قد عظم أمره و بعد صوته في محاكم الجنايات ، وهو الذي يتحدث إلى هذه المرأة الآن . قد افترقا أعواماً ثم التقيا ، فإذا حبهما على عهده القديم لم يتغير ، وإن كانت المرأة تظهر لزوجها عطفاً ومودة وتضمر له وفاء وبراً . هي لا تحب زوجها وهي تعلم أن زوجها لا يحبها ، بل تعلم أنه يخونها ويسرف في خيانتها ،

ويبدل من الأخدان والخليلات كما يبدل ثيابه ، ولكنها مع ذلك وفيه
أمانة لأنها تكبر نفسها عن الخيانة ، وتضن بجسمها أن يكون متعة
لرجلين ، وتأبى عليها كرامتها أن تختلس لذتها وسعادتها اختلاساً .
هذا شأنها .

أما صاحبها فما زال يحبها ، ولكن هذا الحب لم يكلفه رهبانة
ولا نسكا ، فهو يستمتع بالحياة ويتخذ الأخدان والخليلات لينصرف
إليهن عن همه وعن حزنه ، ولكنه الآن قد لقيها فامتلات بها نفسه
وانصرف أو كاد ينصرف عن خليلته له كان قد أطال عشرتها . فلندع
هذين العاشقين في حديثهما ، ولنعد إلى الرجلين اللذين تركناها آنفاً
لنرى فيم يتحدثان . يتحدثان في شيء طبيعي جداً ، وهو أن الشاب
رأى هذه المرأة فوقع من نفسه ، فهو يذكرها ، ويلح في ذكرها
وتفصيل جاهلها ، ويسأل عن مكانتها الاجتماعية ، وصاحبه يؤيد له
أنها فتاة من هؤلاء الفتيات اللاتي يختلفن إلى الفنادق والأندية يلتمسن
الأخلاء ، وقد رأى كلف صاحبه بها ، فهو يهون عليه الأمر ويعلن
إليه أنه سيقدمه إليها . وهما في هذا الحديث وإذا المرأة وحدها ، لأن
صاحبها قد تركها كأنه مغضب ، فينهض الرجل إليها فيحياها كما تحيا
الفتيات اللاتي لا كرامة لهن ، ويعرض عليها صاحبه الشاب ، ويذكر
لها ثروته وأخلاقه ومكانته ، كل ذلك في غير حيطة ولا تحفظ . والمرأة
تسمع هذا كله ضاحكة مغرقة في الضحك ، ثم تقبل أن يقدم إليها

الشاب . فإذا قدّم إليها ازدادت ضحكا وإغراقاً في الضحك ، واضطرب الشاب اضطراباً شديداً ، فلم يزلها اضطرابه إلا ضحكا . وهم في هذا الضحك ، وإذا جماعة قد أقبلوا عليهم فيهم زوج المرأة ، فتقدّم المرأة زوجها إلى هذين الرجلين اللذين أدركهما خجل شديد ، ثم تعلن إليهم أنها رأت هذين الرجلين في باريس وتحدثت إليهما ، ولكنهما نسيها ، أما هي فلم تنسهما . ولست أحدثك عن خجل هذين الرجلين وما تبعه من حركات مضحكة ، فقد لا يتسع هذا الفصل لمثل هذه الأشياء التي تلذ في الملعب دون التلخيص كما قلت . بل لست أحدثك عن حركات هؤلاء الناس جميعاً ، فهم في اضطراب متصل ينتقلون من مكان إلى مكان ، ويدخلون إلى الفندق ويخرجون منه . وأنا أنتهز فرصة خلت فيها المرأة إلى صديقتها روبيير فهما يتحدثان بما قدّمت لك من حب . وهو يلح عليها في أن تسمح له ، وهي تأبى عليه إباء شديداً ، ثم تقسم له أنها لن تكون لغيره . فإذا استوضحها أنباته بأنها إذا برئت ذمتها من زوجها فلن تتزوج إلا إياه . والفتي ساخط على هذا الوعد الذي لا يقدر ولا يؤخر ؛ فقد ذكر لها الطلاق فرفضته رفضاً شديداً ؛ لأن أبويها يكرهان الطلاق ، وذكر لها الخيانة فرفضتها رفضاً شديداً لأنها تزدرى الخيانة . وإذا فلم يبق إلا أن ينتظرا قضاء الله ، وما أسرع ما يتم هذا القضاء ! .

أقبل القوم جميعاً وأخذوا في أحاديثهم المتصلة المختلفة ، وإذا زوج

« إيرين » يطلب إلى صديقتها رو بير أن يعيره سيارته ليهبط المدينة لأن له فيها حاجة معجلة . ونفهم نحن من الحوار بين الرجلين أن الزوج إنما يهبط المدينة ليلقى خلية له ، وهو إنما يستعير سيارة صاحبه ليترك سيارته لامراته إن أرادت أن تخرج ، وهو شديد الحرص على أن يكون وحده ، ولكن رو بير يأبى إلا أن يرافقه لأنه وحده يحسن قيادة سيارته ، وقد اتفقا آخر الأمر على أن يهبطا المدينة معاً ، ولم يبق عندنا ولا عند إيرين وصديقتها شك في أن الزوج ذاهب إلى موعد منكر . وقد خرج الرجلان وبقيت الجماعة في أحاديثها المتصلة ، وأخذت في ألوان من اللعب لإنفاق الوقت ، ومضت على ذلك لحظات ، وإذا خادم من الفندق قد أقبل فدعا أحد الرجال وخلا إليه ، وأقبل هذا الرجل فدعا الآخرين بعضهم إلى بعض وأخذوا يتحدثون ، والنساء لاهيات عنهم باللعب ، و « إيرين » خاصة منصرفه عنهم انصرفاً تاماً ، لأنها معصوبة العينين تتلمس رفيقاتها بيديها وتريد أن تدل عليهن دون أن تراهن . ولكن حديث الرجال قد طال ووصلت أطراف منه إلى النساء ، فالتفتن ثم أقبلن ، ثم ظهر الأمر منكرأ وأزيل الغطاء عن « إيرين » فما كادت ترى وتسمع حتى أغمى عليها ؛ ذلك أن زوجها قد خرج في السيارة مع صاحبه ، حتى إذا كانا في بعض الطريق نزل صاحبه من السيارة ليتحدث إلى رجل ، فاتهمز الزوج هذه الفرصة وطار بالسيارة ، لأنه يريد أن يكون وحيداً في مواعده ، وأخذ

صاحبه يعدو وراءه يستوقفه ولكنه أسرف في السرعة ، وإذا هو أمام
هوة لم يحسن اتقاءها فتردى فيها وهو الآن يحمل إلى الفندق .
كان هذا كله في جنيف وقد مضت عليه سنة أو أكثر من سنة ،
ونحن الآن في مدينة « كان » في جنوب فرنسا ، في قصر نخم لأحد
الذين حضروا ما قدّمت في الفصل الأول واسمه « دي بوشان » وقد دعا
هذا الرجل أصدقاءه ليقيموا عنده أياماً وفيهم « إيرين » وصاحبها
روبير ، وفيهم « موريس برونو » وصاحبه « لوثار » . ونحن نرى
صاحب القصر يتحدث إلى امرأته وابنته وهم ينتظرون أصحابهم ليذهبوا
إلى اللعب . وقد فهمنا من حديثهم أن الرجل وامرأته يريدان أن يزوجا
ابنتهما من موريس ، وهما يلحان عليها في أن تترضاه وأن تتحجب إليه ،
وهي تفعل ما تستطيع ، ولكن الفتى منصرف عنها إلى هذه الأرملة ،
« إيرين » ، والفتى يعلم أن هذه الأرملة لا تحبه ، وإنما تحب « روبير » ،
وهو يعلم أنها قبلت خطبته وأنها ستقترن به بعد أشهر ، ولكنه مع
ذلك يحبها ويصرفه حبه عن هذه الفتاة . وقد أقبل القوم جميعاً وهما
بالذهاب إلى الملعب ، ولكن روبير قد تعلل بأنه مصدوع ، وأنه يؤثر
منظر البحر وجمال الطبيعة على اللعب ، فسبقى إذاً ، وإذاً فسبقى
« إيرين » حتى لا تتركه وحده ! ولم لا ! أليس خطبين ! أليس من
حقهما أن يخلوا إلى جمال البحر والطبيعة في ضوء القمر ، وأن يذكرا
حبهما . وهما الآن وحدهما ، وهما يذكرا حبهما وآمالهما . ولكن شيئاً

جديداً قد طراً ؛ ذلك أن « رويبر » قد تغير تغيراً غريباً ، فهو يحب صاحبتة ، ولكنه يتقيها ويكاد يفر منها ، وهو شديد الاضطراب ولا سيما إذا تحدث إليها . وهي تحس هذا كله ، ولكنها لا تفهمه . وانظر إليهما الآن يتحدثان في الحب حتى يعريهما الحديث بالقبل فيضمها إليه ، وإذا هي قد لانت له وضعفت ، ولكنه ينصرف عنها في نفور وتخرج . فإذا غاظها ذلك ذكر لها أنه لا يريد أن يتزوج خليعة ، وإنما يريد أن تظل صلاتهما عفيفة طاهرة إلى يوم الزواج . ولكن هذا لا يرضيها ، ولها الحق ، فقد كان هذا الرجل يعريها بالخيانة قبل أن يموت زوجها ، ولم يكن يحفل يومئذ بالعفة ولا بالطهارة ، فما الذي غير منه الآن ؟ أبلغت به الأثرة أنه كان يريد لها لنفسه حين لم يكن له عليها حق ، فأما الآن فهو يأخذها باحترام العادات والأخلاق والأوضاع الاجتماعية ؟ ! هي مغضبة ، مغضبة لهذه الخواطر التي ذكرتها ، ومغضبة أيضاً لأنها تحس في نفسها بل في جسمها شيئاً من الخيبة . طمعت في اللذة والسعادة وأشرفت عليهما ، وهي الآن تردُّ عنهما رداً . ولكن صاحبها أشدُّ بؤساً مما تظن ؛ فليس يصرفه عنها احترام الأخلاق والأوضاع ، وليست الأثرة هي التي تصده عن اللذة ، ولكن بين العاشقين حائلاً منكرأ يعامه هو وتجهله هي ، وهو يجتهد في إخفائه عليها ، ولكن الظروف أرادت أن يظهر في هذه الليلة . هما متغاضبان وقد ذكرت أن لديها رسائل قد وصلت إليها ، فهي تريد أن تقرأ هذه

الرسائل ، وهي تنظر فيها وإذا واحدة منها قد ملأتها اضطراباً وذعراً ،
فهي تريد أن تتحدث إلى صاحبها في أمر هذه الرسالة ، ولكنها تتردد
وقد ظهر اضطرابها ، وصاحبها يسألها : ما شأنها ؟ فتخفي عليه ، ولكنها
تنتهي إلى أن تسأله : « كيف قتل زوجها ؟ » وهي تلح عليه في أن يقص
عليها الأمر مفصلاً ، فيمتنع ويظهر عليه الاضطراب ، ثم يقص عليها
الأمر ، وإذا هو متناقض يكذب نفسه غير مرة ، وهي تحصى عليه هذا
التناقض وتلفته إليه ، فلا يزداد إلا اضطراباً وتناقضاً . ونحن نحس أنها
تريد أن تبرئه ، وتحس أنه بريء . ولكننا نحس أنه لا يحسن الدفاع
عن نفسه ، وأنه ينكر من نفسه شيئاً لا يريد أن يبوح به . ولكن
طارئاً يقطع عليهما الحديث حيناً ، وهو « موريس » ، فقد انصرف من
الملعب لأنه أحس صداعاً . وما أحس صداعاً وإنما أحس حباً وغيره ،
وهو يود لو جلس إلى العاشقين ، ولكنهما يظهران صدوداً عنه ، فيصعد
إلى غرفته كارهاً . ويستأنف العاشقان حديثهما ، فإذا هي تتهمة وهو
يقسم أنه بريء ، ولكنه لا يحسن الدفاع عن نفسه ، وإذا هي تقرأ
علينا هذه الرسالة التي ملأتها اضطراباً وذعراً ، وهي رسالة غُفْلٍ ليس
من شك في أن خليلة صاحبها هي التي كتبتها لتفسد هذا الزواج . وفي
هذه الرسالة اتهم لصاحبها بالقتل ، وقد اشتد الأمر بين العاشقين وكاد
العاشق يعترف بكل شيء ، ولكنه أمسك ثم فر ، وإذا صاحبته
تصيح مستغيثة تدعو « موريس » فيقبل ، وإذا هي قد أغنى عليها .

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في مدينة « بيارتز » في أحد فنادقها الكبرى ، وقد مضت أشهر على ما قدمت لك ، ونحن نرى « لوثار » قد أقبل ، ونفهم أن صديقه « موريس » قد وصل إلى الفندق أمس ومعه زوجته « إيرين » ؛ ذلك أن « إيرين » حينما استغاثت بموريس أقبل إليها وما زال بها حتى رد إليها رشدها فدعته إلى أن يحميها وطلبت إليه أن يتزوجها وأن يسرع في الزواج فتزوجا . وهما الآن يطوفان في الأرض ، وقد أقبلا إلى « بيارتز » بعد أن زارا بلادا مختلفة وجاء « لوثار » للقائهما ، وهو لا يلبث أن يلقى صاحبه وأن يتحدثا . فنفهم من حديثهما أنه ليس سعيداً لأن امرأته ليست سعيدة ، وهو لا يشك في أنها وفية أمانة تجتهد في أن تحبه وتخلص له ، ولكن شيئاً يصرفها عن هذا ، وهي تخفيه عليه ، وقد أقسمت له أنها لم تُسْمِحْ لخطيبها الأول ولم تخن زوجها الأول ، ولكنها مع ذلك تخفى عليه شيئاً ، ويجب أن يكون هذا الشيء ألماً فقد أنحلها وأضناها حتى أصبحت حياتها معرضة للخطر . وهو يحبها ، ويريد أن ينقذها من هذا الخطر ، ويبذل في ذلك ما يستطيع . وهذه « إيرين » قد أقبلت وهي شاحبة نحيفة محزونة يريد « لوثار » أن يضحكها فلا يصل إلى شيء ، وقد أقبلت صديقتها تعرض عليها أن تذهب معها إلى حيث الشاي والرقص ، فتظهر الرضا ، ولكن هذه الصديقة غابت عنها حيناً ثم تعود ، وإذا هي منصرفه عن الشاي منصرفه عن الرقص ، تعرض

على صاحبته البقاء حيث هما ، ثم تسرّ إلى « لوئار » أنها رأت في قاعة الشاي « روبيير » ، وتريد أن يعلم ذلك « موريس » ، ولكن موريس قد ذهب لبعض شأنه ، وإذا « روبيير » قد دخل ، فرأته « إيرين » فاضطربت اضطراباً شديداً وأخذها دوار يشبه الإغماء ، ودعى زوجها فأقبل ، وما يزال بها حتى يرد إليها قوتها وقد عرف كل شيء ؛ فهو يلح على امرأته في أن تنبئه بجملة الأمر ، فإذا أبت عليه اتهمها وأنذرها بأن يلتقي روبيير ويسأله وهو مستعد للمبارزة . هنا تكذب « إيرين » وتتهم نفسها بأنها قد كانت خليلية « لروبيير » ، وتلح على زوجها في أن يتجنب هذا اللقاء وفي أن يترك مدينة « بيارتز » . ولكن زوجها يأبى ، وقد تركته ليستريح ، فلا يكاد يخلو إلى نفسه حتى يرى غلاما يسرع إلى غرفة امرأته ، وكان يخفي كتابا ، فيعرض له ويأخذ منه الكتاب قهراً ، فاذا الكتاب موجه إلى امرأته ، وهو لا يريد أن يقرأ هذا الكتاب ولكنه يريد أن يعلم ما فيه . وقد أقبل « روبيير » ، فتحدث الرجلان وأذن له روبيير في قراءة الكتاب ، فاذا هو كتاب برىء لا إثم فيه وإنما هو تحية واعتذار . وقد أخذ الرجلان يختصمان ، وأخذ العنف يشتد بينهما ؛ لأن أحدهما يحب ويفار والآخر يحب ويحقد . ولكن « إيرين » قد أقبلت ، فما تزال بالرجلين حتى يهدآ ، وقد أعلن زوجها إلى صاحبه أنه يعرف ما كان بينهما من صلة ، فيقسم الرجل ببطلان هذه التهمة ، وتعترف « إيرين » بأنها كذبت على نفسها

لأنها لم ترد أن تفسى سر صاحبها ، فهي مقتنعة بأن صاحبها قد قتل زوجها ، وهنا يظهر سر القصة . فالرجل لم يقتل زوج « إيرين » ولكنه تركه يموت . رآه وقد تردى فى الهوة وسمعه يصيح ويستغيث وكان يستطيع أن ينقذه لو أراد ، ولكنه تمثل « إيرين » حرة بعد موت هذا الرجل ، وتمثل قسمها له وتمثل اقترانه بها . كل ذلك فى لحظة قصيرة جدا ، فأبطأ عن الرجل حتى سقط ومات . واذن فهو لم يقتله ولكنه تركه يقتل . وهو يحس فى نفسه منذ ذلك اليوم عذاباً شديداً ، وهو يرى نفسه آثماً مجرماً ، وهو لهذا كان لا يستطيع أن يدنو من « إيرين » ولا أن يجد السعادة فى اقترانه بها لأنه كان يتمثل دائماً هذا القتل بينهما . وهو قد انصرف عن محاكم الجنايات لأنه لا يستطيع أن يدافع عن المجرمين وهو مجرم ، وهو قد انصرف عن العمل كله لأنه مفرق النفس بين الحب واللوم ، وهو قد أقبل يرى صاحبه للمرة الأخيرة ، وهو يتمنى السعادة للزوجين ويسألها الرثاء له . أما هى فممعنة فى الانتحاب ، وأما زوجها فيصافح هذا الشقى البائس قبل أن ينصرف ، وهو يسأل امرأته ويريد منها الجواب فى صراحة وإخلاص : ماذا كنت تصنعين لو أنه اعترف لك بهذا كله قبل زواجنا ، أكنت تزوجينه ؟ فتجيب : نعم ! لأنه لم يقتل ولأنى أحبه .

فإذا كان الفصل الرابع — وكنت أود ألا يكون — فنحن في ضاحية من ضواحي باريس ، في قصر نغم يسكنه «موريس» وامراته ، وقد انصرفا عن مائدة الغداء ومعهما «لوثار» وصديقة لها وهم يتحدثون وقد فهمنا من حديثهم أن «إيرين» ما زالت محزونة كئيبية ، وأن «موريس» ما زال محتملاً جاداً في العناية بها ، وأن تمنى أن ترزق ولداً يصرفها عن حزنها وأساها . ولكن لنتعجل فقد انصرف القوم جميعاً وبقيت «إيرين» وحدها ، فتجلس إلى البيانو وتعبث بأصابعها ، وإذا الخادم قد أقبلت تنبئها بأن زائراً يريد أن يراها ، فتمتنع لأنها عرفت من هو ، ثم تأذن ، فيدخل «روبير» ، وإذا رجل سيء الحال جداً لا نكاد نراه حتى نصدق ما سمعنا من أنه قد انصرف إلى اللهو ، فهو يقضى الليل في الخانات ، وهو يدمن على الخمر «والكوكابين» وقد أقبل اليوم يعلن إلى صاحبه أنه سيترك فرنسا إلى مكان بعيد يجد فيه عملاً مشمراً ومسلماً . وهو يعلم أنها تحبه ، وأنها لا تحب زوجها الثاني كما أنها لم تحب زوجها الأول . وهو يعرض عليها السعادة ، ولكنه يريد أن تكون حرة ، يعرض عليها أن تسافر معه ، ويذكرها حبهما وقسمها ، وأنه وإن يكن أساء فقد احتمل من الألم والندم ما يكفر عن سيئته . وقد أثر فيها تأثيراً قوياً ، وقد كاد يغلبها على أمرها ، ولكنه يريد أن تكون حرة فيما تعزم ، فسينصرف وسينتظر في الشارع دون النافذة . فإذا فكرت وقررت أن تلحق به فلتتخذ معطفها وقلنسوتها

ولتهبط إليه ، وإذا اعتزمت أن تبقى ولا تراه فلتضم الأستار إلى النافذة ،
فسيرى هو هذا وسينصرف إلى حيث لا تراه . قال هذا ومضى وتركها
مضطربة أشد اضطراب . ولكن زوجها قد أقبل ؛ ذلك لأنه بينما كان
خارجاً من القصر رأى «روبير» يدخله فانتظر حتى انصرف «روبير» وأقبل
إلى امرأته ، وهو يحدثها في صراحة وكرم وطيب نفس ، يعرض عليها
حريتها . هو يعلم أنها تحب «روبير» وأنها لم تنصرف عن حبه قط ، وأنها
لن تسعد إلا معه ، وهو يحبها ولكن لنفسها لا لنفسه ، وأي أية على
الحب وصدقه أقوى من أن تضحي بنفسك وسعادتك في سبيل من
تحب؟! تستطيع إذن أن تذهب مع «روبير» ، فقد سمع الناس يتحدثون
بأنه مسافر إلى مكان بعيد ، ولا ينبغي أن تتردد ولا أن تشفق ،
فسعادته الصحيحة في أن يجعلها سعيدة ، وسيرفع أمر الطلاق إلى المحكمة
ويحتمل هو آثام الطلاق ، وسيصدر الحكم لها لا عليها . هو يقول
هذا كله مخلصاً ، وهي تسمع هذا كله باكية منتحبة ، ولكنها لن
تفعل من هذا شيئاً . أليست هي التي أبت أن تخون زوجها الأول
فكيف تخون زوجها الثاني؟! هو يريد أن يضحي بنفسه في سبيلها فلم
تكون هي من الأثرة بحيث تقبل هذه التضحية!! هي لا تحب زوجها
حب شهوة ولذة ، ولكن لم لا تحب زوجها حب صداقة وشكر للصنيع!!
وبعد فلو أنها أرادت أن تلحق بصاحبها لما استطاعت ؛ ذلك لأنها
تحس في أعماقها شيئاً كانت تتمناه لتسلوبه عن الحزن والألم ، وكان

يخيل إليها أنها لن تظفر به ، ولكنها الآن تحسه فكأنه قد أقبل
ليصرفها عن الإثم والجور ، وليقر العدل في نصابه . هي تحس أنها
حامل ، وهي تعلن ذلك إلى زوجها ، وهو يضمها إليه ويقبلها سعيداً
مغتبطاً وقد أفلتت من بين ذراعيه وأسرعت إلى النافذة في ذهول
فضمت أستارها ، ولكنها سمعت شيئاً صعقت له فيقبل زوجها عليها
ويعنى بها حتى تفيق بعض الشيء ، وتنهض فتجلس إلى البيانو وتعبث
بأصابعها لتخدع زوجها عن مرضها وحزنها ، أصابعها مضطربة على
البيانو وبصرها حائر وفكرها مشرد والباب قد فتح والخادم تدعو
سيدها وجلة فيسرع إليها فتنبئه بأن رجلاً قتل نفسه بالباب . . .

يناير سنة ١٩٢٥

الغربان

قصة تمثيلية بقلم الكاتب الفرنسي « هنرى بيك »

ليس هذا العنوان مشوقاً ولا خلافاً ، وربما كان منفراً ثقيلًا على السمع . ومع ذلك فلست أعرف عنوان قصة تمثيلية أشد من هذه القصة صدقاً وأكثر منها تأثيراً فى النفس ، وأبرع منها فى تصوير لون من ألوان الحياة القائمة المحزنة التى نراها ، فلا يحسن ظننا بالإنسان ولا فيما انتهى إليه من حضارة ورقى .

نعم ! نحن بإزاء قصة جيدة ، وأنا أصفها بهذا الوصف من غير تحفظ ولا احتياط ، لأنها خليقة به حقاً . هى جيدة من كل وجه : جيدة فى موضوعها لأنه من هذه الموضوعات التى نشهدها فى كل يوم وفى كل مكان على اختلاف ظروف الحياة وأجيال الناس ، نشهده فننكره أشد الإنكار ونحزن له أعمق الحزن ، ونسخط عليه أشد السخط ، حتى لقد أصبح ذلك شيئاً شائعاً مستقراً عنيت به الديانات ومذاهب الأخلاق . وأى الناس يجهل سخط الديانات والأخلاق وعرف أخيار الناس على هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى وينعمون بشقاء البائسين ، ويستغلون

ضعف الضعيف ليتخذوا منه لأنفسهم قوة وبأساً . القصة جيدة في معناها وأسلوبها أيضا . فانا زعيم لك إن قرأتها ألا تجد فيها إسرافاً ولا قصوراً ، ولا تجاوزاً لحدود الفن ، ولا نبواً عن السهولة والسذاجة اللذين يلائمان طبع الطبقات الوسطى من الناس . أنا زعيم لك بأنك ستقرؤها فلا تجد فيها عنفاً ولا شدة ، ولا عناية قليلة أو كثيرة بالتأثير في نفسك والاستثارة لعواطفك ومع ذلك ستثور لأن القصة طبيعية بريئة من التكلف . ولست أعرف شيئاً أبلغ في إثارة العاطفة والتأثير في النفس من الطبيعة الصادقة يمثلها الكاتب أو الشاعر تمثيلاً صادقاً . والقصة جيدة في لفظها ، فقد تقرؤها على طولها دون أن تجد فيها لفظاً غريباً ، بل دون أن تحس فيها أن الكاتب قد تخير ألفاظه أو تأنق فيها ، وإنما هو كلام يجري مجرى الطبع ويسير مسير الأحاديث العادية بين أوساط الناس ، دون أن يكون فيه مع ذلك فساد أو ضعف أو اضطراب .

القصة كلها طبيعية ، وهي طبيعية من أى نحو قصدت إليها . ومن هنا قلت — وما زلت أقول — إنك لن تستطيع أن تقاومها ولا أن تعصم نفسك من التأثر لها . وأحسب أنك لن تستطيع أن تقرأ الفصل الثالث والرابع منها محتفظاً بهدوئك وسكونك ودموعك . نعم ! أعترف بأنى من أشد الناس مقاومة لبراعة الكتاب والشعراء والممثلين . وهذه المقاومة نفسها هي التي تمكنني من النقد وتيسر على الحكم إذا قرأت

قصة أو شهادتها . ولكنني على شدة مقاومتي هذه احتججت أمس إلى أن
أخذ نفسي بشيء من العنف ، وأنا أقرأ هذه القصة لأحتفظ بهذه
الابتسامة التي تعودت أن أسمع معها كل أثر فني . ولست أريد أن
أطيل في المقدمات ، فلاهجمُ بك على القصة نفسها ، وأنا واثق كل
الثقة بأنني لن أستطيع أن أوثر في نفسك تأثير القصة نفسها ، لأنني لن
أوفق مهما أبذل من جهد لأن أكون في هذا التلخيص من السذاجة
والسهولة بحيث كان الكاتب نفسه حين وضع قصته .

ما أجدر هذه القصة أن تقرأ ! وما أجدرها أن تترجم ! وما أجدرها
أن تعرض على الناس في ملاعب التمثيل العربي ! . فكأن الكاتب
لم يضعها لفرنسا ، وإنما وضعها لمصر . ولم لا نكون صادقين فنقول إنه
وضعها للعالم كله ! وأي بلد يخلو من أولئك الذين يأكلون أموال
اليتامى ظلماً فيأكلون في بطونهم ناراً ويستعدون لأن يصلوا يوم
القيامة سعيراً .

نحن في باريس ، في بيت تظهر عليه آثار النعمة . قد رفع الستار ،
فإذا نحن نرى أسرة مجتمعة ، لا نكاد نراها ونسمع لها حتى نشعر
بأنها أسرة سعيدة مغتبطة ، قد ألف الحب بين قلوبها فاطمأنت إلى
يومها وابتسمت لغدها . نرى شيخاً قد استلقى يستريح بعد الغداء وفي
يده صحيفة ينظر فيها والنوم يغالبه ، وهذا الشيخ هو « فينرون » زعيم

الأسرة . ونرى امرأة ليست بالشابة ، ولكنها ليست بالشيخة أيضاً .
ونرى فتاة قد جلست إلى البيانو ، وهي « جوديت » أكبر شباب
هذه الأسرة ، وفتاة أخرى قد جلست قريباً من أبيها إلى بعض هذه
الأعمال اليدوية التي يعنى بها النساء ، وهي « ماري » الثانية من شباب
هذه الأسرة . ونرى فتاة ثالثة لما تبلغ العشرين ، قد جلست إلى مائدة
تكتب ، وهي « بلانش » الثالثة من شباب هذه الأسرة . ونسمع
ذكر غلام سنراه بعد حين يسمى « جاستون » وهو آخر أبناء هذه
الأسرة . أنظر إلى الفتاة مبتسمة تكتب . وليس يشك من رآها في
أنها معنية بأمر ذي بال ، وكيف لا ! أليست تكتب أسماء الذين
سيتناولون العشاء على مائدة أبيها مساء هذا اليوم وتعنى بترتيبهم في
مجالسهم ملاحظة في هذا الترتيب أقدارهم وأعمارهم ! ثم أليست بطلانة
هذا العشاء ، فهو إنما يقدم إلى الناس احتفالاً بخطبتها وتمهيداً لقرانها
وقد نهضت أمها فأخذت تناقشها في أمأكنهم ، وتذكر كل واحد
منهم ثم تعقب بحكم له أو عليه . وقد أفاق الشيخ من غفوته ، فسمع ابنته
تذكر ساخطة اسم أحد المدعويين أسماء المدعويين ، وهو « تسييه » ،
فأظهر غضباً ولوماً ، وأنذر ابنته بأنها إن عادت إلى مثل هذا فسيحرمها
حضور المائدة وسيلغى زواجها . ذلك أن هذا الرجل الذي تكرهه
هذه الفتاة هو مصدر نعمته وشريكه في عمله ، فيجب إكباره والوفاء
له . والأسرة مختلفة دائماً في هذا الموضوع اختلافاً شديداً ، فأما الشاب

فيكره هذا الرجل كرها عنيفاً لأنه ثقیل النفس بغيض غليظ الحديث
بخيل شديد الاثرة . وأما الشيخ فلا ينظر إلى شيء من هذا كله ،
وإنما ينظر إلى أن هذا كان مصدر ثروته ، وما هو فيه من نعيم .
وأما الأم فتتوسط بين الشيخ والشاب ، ولهذا يتخذها الشيخ حكماً
كلما اختلف مع بناته في أمر هذا الرجل . يتخذها حكماً في كل يوم ؛
لأن هذا الخلاف يتجدد في كل يوم . وهي تعيد في كل يوم صيغة
بعينها يحبها الشيخ ، فهو يستعيدها ، ويضحك منها الشاب ، فهو
يستعيدها أيضاً ، وهذه الصيغة تختصر تاريخ الأسرة التي كانت فقيرة
معدمة ، ولكنها شريفة عاملة ، حتى لقي هذا الرجل الغني زعيمها ،
فطلب إليه أن يدير معملًا له ، فقبل ، ووفق في عمله ، فأصبح شريك
رئيسه ، وأخذ يكون لنفسه ولولده ثروة لا بأس بها . وإذن فهو مدين
لشريكه بالثروة ، ولكن شريكه مدين له بالنجح . وإذن فليس لأحد
منهما على صاحبه فضل .

كل هذا يعرض عليك تاريخ هذه الأسرة وما بين أعضائها من
حب وألفة ، وما تستقبل به الحياة من سعادة قوية وأمل مبتمس ، ولا
سما بعد ما لقيت من ضيق وعناء . ولكن شيئين آخرين يجب أن
تعلمهما : الأول أن هذا الشيخ مريض تظهر عليه آثار علة خفية ، وهو
يجاهد هذه العلة ويريد أن يمضي في عمله وفي تكوين ثروة ضخمة لبنيه
فهو لا يكتفي بنصيبه من المعمل وإنما يشتري أرضاً ويقم عليها دوراً ،

وكل هذا العمل يبجده ويضنيه . وأهله قلقون مشفقون . واسمع إلى
ثانية بناته تلومه في رفق ولطف ، لأنه لا يعنى بصحته فلا يستريح ،
ولا يعرض نفسه على الطبيب .

الثانى أن صغرى هؤلاء الفتيات قد خطبت وتمت خطبتها ، وهى
سعيدة ، وأمها راضية ، ولكن الشيخ غير مطمئن لهذه الخطبة ولا
مبتهج بهذا الزواج . هو لا يميل إلى صهره الشاب ، ولا إلى أمه الأرملة
الفقيرة ، ولكنه لا يستطيع أن يعلل هذا النفور . وهو الآن يريد أن
ينصرف إلى عمله ، ولكنه يحب بناته ، ويحب زوجته ، ويحب حياة
الأسرة هذه ، فهو يتردد في الخروج ، ويدعو ابنته إلى أن توقع له حفناً
على البيانو فتفعل . وقد دخل الغلام ، فإذا الشيخ يلقاه بهذه اللهجة
التي امتاز بها الآباء الفرنسيون ، لهجة التعنيف يملؤه العطف والحنان ،
وإذا الرجل يمازح ابنه ويداعبه في حرية ورضاً ، وإذا هو يضع في
جيبه النقود وإن كره الغلام ، وإذا هو يبيح له أن يلهو كما يشاء على
أن يكون شديد الاحتشام إذا دخل البيت حتى لا يظهر أخواته من
سيرته على شيء ، وإذا هو يعرض نفسه على ابنه ليكون مشيره وناصحه
فيما يعترض له من الصعاب ، وإذا هو بعد ذلك قد استحال إلى
الحب فهو يعلن إلى ابنه أن أمد هذا اللهو سيكون قصيراً ، وأنه
سيستعين به في أعماله الكثيرة . وانظر إلى هذا الشيخ قد جمع بينه
وامراته فقبلهن جميعاً ثم مضى لعمله ، وأخذت الأم تأمر بناته أن يتهيأن

للعشاء ، ويتخذن زينتهن لاستقبال المدعوين فخرجن ، ولكنها تدعو
صغرى بناتها فتزجرها في لطف وتنذرهما في حنان لأنها تسرف بعض
الإسراف في مداعبة خطيبها ، وتتجاوز حدود اللياقة ، وأما لا تسمح
بهذا ولا ترضاه . ولا تكاد تخلو هذه الأم إلى نفسها حتى يستأذن عليها
الخدام لزائرة فتأذن ، وتدخل هذه الزائرة وهي « مدام دي سان
جنيس » أم الخطيب ، قد أقبلت ولما يأت ميعاد العشاء ، وهي تعتذر
ثم تأخذ في الحديث ، فما أسرع ما نفهم نفسيته ، وما أسرع ما نبغضها
ونسخط عليها ، وما أسرع ما يزداد حبنا لهذه الأسرة الطاهرة الوادعة
البريئة . لا تكاد هذه الزائرة تتحدث حتى نشعر بأنها امرأة مادية
غالية في الطمع لا تتردد في الطرق التي توصلها إلى الثروة . قد عرفت
الناس فساء ظننا بهم واشتد ازدراؤنا لهم ، فهي تستغل نقائصهم
لا أكثر ولا أقل . إسمع إليها تلوم صاحبة البيت لوماً شديداً لأنها
لا تتقرب من شريك زوجها ولا تتلطف له ، مع أن هذا الشريك
متقدم في السن ضخم الثروة لا وارث له . أليس من الخير أن يتملق
ويخدع لعله يوصى بثروته كلها ، أو بعضها لهذه الأسرة ؟ أما صاحبة
البيت فتظهر نفوراً شديداً من هذا الطمع والخداع ، ثم تقول لزائرتها
إنها لا تستطيع أن تسلك مثل هذه الطرق ، ومع ذلك فأنت حرة في
سلوكها بعد زواج ابنينا ! لعل هذا الشيخ يختص الأسرة الجديدة بعطفه
ومودته وميراثه .

وقد دخل الخادم فاستأذن لمعلم الموسيقى ، فدخل وتنصرف المرأتان
وتأتى كبرى الفتيات ، فلا تكاد تتحدث إلى أستاذها حتى نعلم أنها
موسيقية لها حظ من البراعة ، فهي تضع الألحان الموسيقية ، وقد
وضعت لحناً تودع به أختها العروس ، وحتى نحس أن أستاذها يعجب
بها ويتملقها وكأنه يريد أن يداعبها . ولكن صاحبة البيت وزائرتها
وسائر أعضاء الأسرة قد أقبلوا ، وأخذ المدعوون يقبلون واحداً فواحداً
حتى اكتمل عددهم ، وهم يتحدثون في لهو ولعب وبهجة ، ولكن
الخادم قد دخل وهو يهمس في أذن سيده ، ثم يتبعه رجل آخر فدخل
وطلب إلى السيدة أن تنحى بناتها فتفعل ، وإذا هذا الرجل هو الطبيب
قد أقبل يعلن إليها أن زوجها أصابته السكتة فمات وهذه جثته تحمل . .

فاذا كان الفصل الثانى فنحن فى البيت نفسه ، وقد مضى شهر أو نحو
شهر على هذا الحادث ، وكل شىء فى هذا البيت يدل على الحزن
والأسى . ونحن نرى صاحبة البيت لا تستطيع أن تكف دموعها ،
وهى تتحدث إلى زائرتها « مدام دى سان جنيس » فتشكو وتلح فى
البكاء ، وهذه الزائرة تتكاف تعزيتها وتسليتها تكلفاً ، فهى لم تأت لهذا ،
وإنما أقبلت لشىء آخر . أقبلت لتعرف الحال المادية لهذه الأسرة بعد
أن فقدت زعيمها ، وهى تنصح لصاحبة البيت أن لا تثق بشريك
زوجها ولا بحاميه ولا بمهندسه . فترتاع المرأة لهذا كله ، ولا تفهم

مصدراً لهذه النصيحة الغريبة ، ذلك أنها امرأة طيبة القلب شريفة ، ترى أن الناس جميعاً مثلها أخيار أطهار . ولكن زائرتها لا تذهب هذا المذهب ولا ترى هذا الرأي . وهي تلح عليها في أن تكون سيئة الظن بالناس جميعاً ، وتذكر لها أنها إنما تلح عليها في هذا مخلصاً ناصحة ، فهي امرأة ، ومن الحق عليها أن تعين امرأة مثلها . وهي لا تلتمس نفعاً من هذا النصح ، فقد يظهر أن زواج ابنيهما لن يتم . ذلك لأن هذا الزواج كان مشروطاً بشروط مالية لم يصبح تحقيقها يسيراً ، وهي لا تستطيع أن تعرض مستقبل ابنها للخطر والضييق . فلا ترى صاحبة البيت جواباً إلا أن تقول لها : كما تحبين وقد خرجت هذه الزائرة ، ودخل «تسييه» شريك زوجها ، فإذا هي تلقاه بمثل ما لقيت به زائرتها الأولى من الجزع والبكاء ، ثم يتحدثان في أمر الميراث . وهنا يظهر بعض ما خبأت الأيام من البؤس لهذه الأسرة التي كانت سعيدة مغتبطة . كانت هذه الأسرة تقدر أنها غنية حسنة الثروة ، ولم يخطر لها بعد أن مات زعيمها أنها ستلقى عنتاً أو شدة . ولكن هذه المرأة لا تكاد تتحدث إلى شريك زوجها حتى تسمع نكراً من الأمر ، وحتى تقدر شراً كثيراً : أليس هذا الرجل ينبئها بأن ميراث زوجها ليس شيئاً يذكر ، وبأنه ترك ديوناً تكاد تستغرق الثروة ، وبأنه مضطر إلى بيع العمل ، وبأنه ينصح لها أن تبيع الأرض ، وبأن صفوة ما سيبقى لهذه الأسرة من الثروة لا يكاد يبلغ خمسين ألف فرنك ! سمعت المرأة هذا فصعقت له وأصابها

شيء من الوجوم أخرجها عن طورها ، فإذا هي تنهر الرجل وتتركه
مزدريّة ساخطة ، والرجل مغضب ولكنه شرير ، فهو يتحدث إلى
نفسه ، بما نفهم منه أنه قد دبر العبث بهؤلاء اليتامى واغتيال هذه
الثروة ، وقد تم الاتفاق على ذلك بينه وبين الحامى ، ولكنه لا يخلو
إلى نفسه طويلاً ، فقد جاءت « ماري » وهي الفتاة الثانية من فتيات
هذه الأسرة ، وأخذت تهدهه وترضاه وتعتذر عن أمها وتتوسل إليه
ألا يأخذ هذه المرأة الحزينة بما يضطرها إليه حزنها من الضجر وضيق
الصدر . وقد وجدت هذه الفتاة سبيلاً إلى قلب هذا الوحش ، فهو يرق
لها ويظهر الميل إليها ، وقد استطاعت أن تظفر منه بالعفو عن أمها ،
وأن تبعثه إلى حيث هي ليزول ما بينهما من خلاف فيجيبها إلى ذلك ،
وقد اشتد إعجابها بها وميله إليها وينصرف إلى أمها . ولا تكاد الفتاة
تخلو إلى نفسها حتى تدخل عليها أختها الصغرى ، فتتحدثان ، وإذا
جزعهما عظيم ، ولكن الصغرى لا تخلو من عزاء ، فهي تفكر في
زواجها ، وهي تنتظر هذا الزواج ، فإذا عرضت أختها بأن هذا الزواج
قد يكون عسيراً أظهرت الفتاة إيماناً بالمستقبل وثقة بخطيبها ، ثم أظهرت
حرصها على هذا الزواج في الفاظ لا تفهمها أختها لأنها بريئة طاهرة ؛ أما
نحن فقد فهمناها حق الفهم ، وعرفنا أن هذين الخطيبين قد تجاوزا
الحدود في صلتها ، وأن الزواج قد أصبح أمراً محتوماً . وقد أقبل
الحامى ثم أقبلت الأم وشريك زوجها ، وأخذ الرجلان يقنعان المرأة

بوجوب بيع المعمل وبيع الأرض أيضاً . والمرأة تقاوم وتمانع ، ولكن
الرجلين أقوى منها حجة وأشد منها مهارة ، وهما يمثلان لها ميراث زوجها
عبثاً مثقلاً بالديون . ودخل المهندس فأراد أن يدافع عن المرأة وعرض
طريقة تضمن لها الثروة . ولكن الرجلين حاوراه حتى كان بينهم خصام
عنيف ، وأنصرفوا جميعاً وقد تركوا المرأة وبناتها يضطربن بين يأس
منكر وتردد شديد .

فإذا خلا النسوة إلى أنفسهن تشاورن في الأمر ، ولكنهن ضعاف
لا يفقهن تدبير الثروة ولا يعرفن مواجهة الصعاب ، وهن مختلفات
يقبلن الأمر ظهراً لبطن . وإذا الخادم يحمل إليهن كتباً يقرأنها ، فإذا
كلها تطالب بديون ، وإذا هن واجبات ينظر بعضهن إلى بعض دون
أن يستطعن الكلام

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في البيت نفسه وقد مضت أسابيع
على مامر في الفصل الماضي ، ونحن نرى أم الخطيب تتحدث إلى الخادم ،
فنفهم من حديثهما أنها أقبلت لترى خطيبة ابنها ولكنها ستصرف لأن
هؤلاء السيدات لسن وحدهن وإنما يتغدى معهن « تسييه » فإذا
انصرفت وأقبل السيدات وأقبل معهن الرجل وتحدثوا عرفنا أن
الصلوات حسنة بين هذا الرجل وهؤلاء النسوة وأنه يكثّر التردد عليهن
دون أن تتقدم أمور الميراث ، فهو في الوقت نفسه يميل إلى الفتاة

ولكنه يريد أن يغتال التركة : هو رجل عملي يريد أن يظفر بالمال واللذة في غير مشقة ولا خسارة وهن محتاجات إلى المال وقد أثقل الدائنون عليهن وبالغوا في الإلحاح وهن لا يجروُن أن يطلبن إلى هذا الرجل معونة أو قرضاً وهن يشعرن بأن هذا الرجل يجب إحداهن فيكلفن هذه الفتاة أن تطلب إليه هذا القرض فتفعل بعد جهد ويقبل الرجل طلبها هذا متبرماً به كارهاً له وينصرف لياتي بهذا المقدار من المال فالنساء فرحات مطمئنات ، ولكن الحمى قد أقبل وهو يحمل أنباء سيئة ويلح في بيع الأرض لأن الدائنين الراهنين يلحون في استيفاء ديونهم ويريدون الاستيلاء على رهونهم . ومهما تحاول الأم فلن تجد مخرجاً من هذا الضيق إلا التسليم ، والحمى يذكرها بفقرها وحاجتها إلى المال ، فإذا ذكرت له أنها قد اقترضت من شريكها لامها وأنبأها أنه يستطيع أن يقرضها ما تشاء حتى تتم تصفية الميراث إذا كانت قروضها معتدلة . وقد عاد « تسييه » بالمال وخلا إلى الفتاة فدفعه إليها وأخذ يداعبها مداعبة الشيخ البخيل الحريص والفتاة جاهلة . فلما فهمت ، أخذت تدافعه عن نفسها وإذا هو يعرض عليها صفقة منكرة وإذا الفتاة مغضبة أبية ترد إليه ماله وتطرده طرداً عنيفاً . ولكن في هذا الفصل موقفاً هو من أشد مواقف القصة تأثيراً وهو هذا الموقف بين الخطيبة وأم خطيبها . كانت هذه الخطيبة مؤمنة بصاحبها واثقة به معتمدة عليه وكانت تعلم أن أمه تمنع في هذا الزواج

ولا تشك في أن الفتى سينتصر على أمه . وقد أقبلت هذه الأم وإذا
هي تنصح للفتاة أن تعدل عن هذا الزواج وتحذرهما الفقر والفاقة وما ينشأ
عنه من سوء العشرة بين الزوجين ، والفتاة تذكر حبها وتعزز به
وتذكر الثقة بخطيئها وتلح فيها حتى يشتد الخصام بينهما فإذا الفتاة
عنيفة مرة ، رقيقة مرة أخرى تجشو وتبكي ثم تنذر وتوعد ، ثم يأخذها
الغضب فتعلن إلى المرأة ما كان بينها وبين الفتى ولكن المرأة لا ترق
ولا تلين وإنما تنبئها بأن ابنها قد انصرف عن حبه وأذعن لأمه
وتنصرف وقد تركت الفتاة في ذهول ما أسرع ما استحال إلى جنون
وأهلها يحطن بها يردن أن يحملنها إلى السرير .

فإذا كان الفصل الرابع فقد تم كل شيء ، وظفر الشريك والمحامي
بما كانا يريدان من اغتيال ثروة هؤلاء اليتامى ، واضطرت هذه الأرملة
وبناتها إلى أن يتركن بيتهن الفخم ويأوين إلى بيت متواضع عليه
مظاهر البؤس والفقر ، وقد اتصل الغلام بالجيش ، وجنت الخطيئة
جنوناً متقطعاً ، وأخذت المرأة تعيش مع ابنتيها الرشيدتين عيشة ضيق
لا بد من أن تنتهي إلى الإعدام . وكبرى بناتها تلتمس عملاً لتكسب
منه حياتها وحيياة أمها وأختها ، تريد أن تعطى دروساً في الموسيقى ،
فلا تلبث أن تعلم أن هذا مستحيل لأنها إن كانت شريفة أكبرها
الناس دون أن يستأجروها ، وإن كانت لعوباً استأجرها الناس ولم

يكبروها . تريد أن تتصل بملاعب من ملاعب الموسيقى ، فيظهر لها أن هذا مستحيل إلا أن تنزل عن عفتها وكرامتها . وهي حائرة محزونة ، تتحدث إلى أختها « ماري » ، وليست أختها أقل حيرة ولا حزناً منها ، فهي أيضاً تريد أن تعمل ، وقد التمت ألواناً من العمل فلم توفق لشيء إلا أن تعرض عفتها وكرامتها للخطر . . .

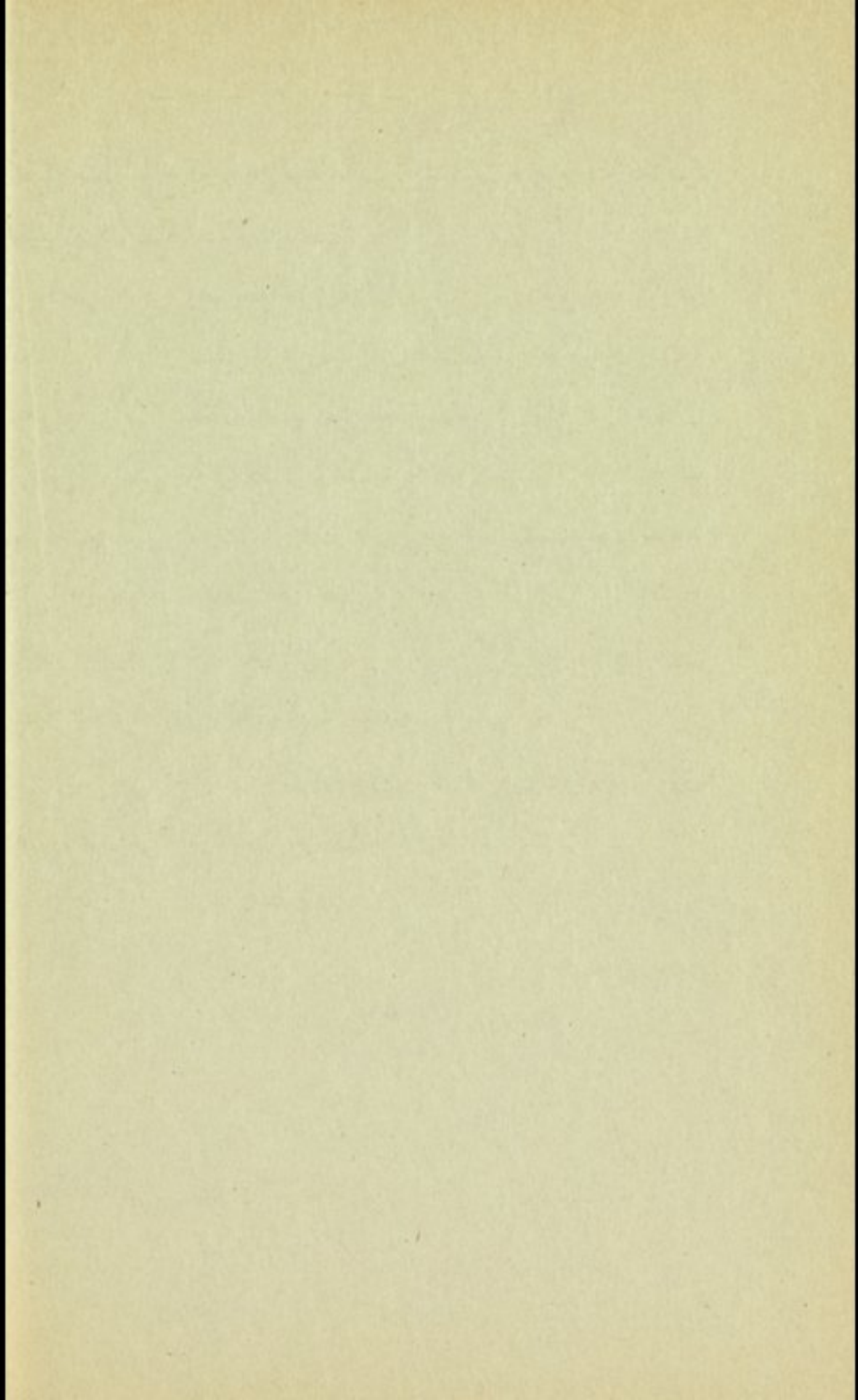
ما أشق الحياة على المرأة الوحيدة ؟ ! على أن في الجو شيئاً يدعو إلى الأمل ، ولكنه ثقيل بغيض لا يطاق : هذا الشريك الذي ما زال بهؤلاء اليتامى حتى ابتز ثروتهم واضطرهن الى هذه الحياة المنكرة ، هذا الشريك كلف بالفتاة يريد أن يتخذها له زوجاً . ألم يظهر حبه لها وإعجابه بها في غير موقف ؟ ولكنه شيخ وهو دميم ، وهو ثقيل بغيض إلى النفس ، والفتاة لا تكرهه بل تعافه ، فماذا تصنع ؟ أترفض هذا الزواج ؟ وإذا فهو الفقر والإعدام وما يتبعهما من ألم . وما تصنع بأمرها ؟ أتكلفها العمل لتعيش ؟ وماذا تصنع بأختها المريضة وقد تزوج خطيبها ؟ أتضيف إلى حزنها ومرضها ألم الجوع ، أم تقبل هذا الزواج ، وإذا فهي الحياة المنكرة مع رجل تعافه ! وإذا فهو ألم المرأة التي تبيع نفسها لتعيش ! وإذا فهو ألم المرأة النبيلة الفقيرة حين تسمع الناس يتحدثون بأنها إنما اقترنت بهذا الشيخ طمعاً في ثروته . . الفتاة تضطرب بين هذه الخواطر ! ولكن انظر إلى هذه الأسرة كلها قد اجتمعت إلى مائدة حقيرة تتناول طعاماً غليظاً في صمت وخشوع وإذعان للقضاء . ماذا تصنع الفتاة ؟

أتقبل هذا الزواج فترفه على هؤلاء النسوة التعسفات ، أم ترفضه فتعرض
نفسها وأهلها لذلة الفقر وما يتبعها ؟

دخل المحامي وهو يلح على الفتاة أن تقبل ، وهو يرغبها ، وهو
يكشف لها أستار المستقبل عن النعيم إن قبلت وعن الجحيم إن أبت ،
وهو يذكر أمها الشيخة ، وأختها المريضة ، والأم تأبى وتلح على الفتاة أن
ترفض . ولكن المحامي قد ذكر التضحية ، وذكر أن أباهما الشيخ قد
مات لتنعم أسرته ، أليس في هذه الأسرة من يألم لتسعد هذه الأسرة ؟
بلى ! إن فيها هذه الفتاة فهي تقبل الزواج . وانظر إلى هذا الشيخ
الدميم البخيل الهرم قد أقبل فرحاً يقبل فرسته كما كان إله الفينيقيين
يلتهم ضحاياه البريئة والفتاة مبتسمة مذعنة !

أليس من الحق أن هذا الرجل وأمثاله هم الغربان يتبعون الموتى
فلا يدعون من آثارهم شيئاً صالحاً إلا أتوا عليه !

يناير سنة ١٩٢٥



صوت

قصة تمثيلية بقلم الكاتب الأميركي ادوارد شلدون

نقلها إلى الفرنسية الكاتبان المعروفان

« روبرت دي فلير وفرانسيس دي كرواسيه »

ينبغي أن تفهم هذا العنوان كما تفهمه حين تجده في كتاب الأغاني، فهو يدل على مقطوعة من الشعر يغني بها، وكذلك أراد صاحب هذه القصة التي أريد أن أحدثك عنها في شيء من الإيجاز كثير. فأنا — كما قلت في غير هذا الموضع — حين أنحو هذا النحو من تلخيص القصص التمثيلية أو غير التمثيلية لا أريد أن أغني القارئ العربي عن الأصل الأوربي، إنما أريد أن أرغبه فيه وأحبب إليه قراءته ودرسه. فهذه الفصول المتواضعة ترغيب في قراءة تلك القصص الممتعة لا أكثر ولا أقل، وقصتنا هذه ممتعة في موضوعها، ممتعة في شكلها، ممتعة في لغتها، وممتعة بنوع خاص لأنها تمثل التثام الذوقين الأميركي والفرنسي التثاماً بديعاً.

وضع لها صاحبها هذا العنوان لأنها تبتدىء بصوت من الغناء وتنتهى بهذا الصوت ، ولأن هذا الصوت نفسه رشيق عذب فيه سداجة ورقة ، ولأنك لا تكاد تمضى فى قراءة هذه القصة حتى تجد فيها هذه العذوبة وهذه الرشاقة وهذه السداجة ملتئمة أحسن الالتئام مع حقائق الحياة الواقعة وما فيها من خشونة وغلظة وتعقيد .

وإن أعجب لشيء فإنما أعجب لأن هذه القصة لم توقع بعد على ألمان الموسيقى كما أوقعت من قبل قصص تشبهها كل الشبه . على أنى لا أريد أن أطيل فى المقدمات ولا أن أسرف فى التحليل ، وإنما أسرع بك الى القصة نفسها ، وأعتمد على الترجمة أحيانا لأدلك على ما فيها من جمال وروعة .

نحن فى مدينة نيويورك فى مكتب الأسقف البروتستانتى « توم ارسترونج » وهو شيخ فى السبعين من عمره ، قد جلس الى النار يصطلبها أول الليل ، وحنيدته تقرأ له إحدى الصحف . ونحن نحس أنها تقرأ له هذه الصحيفة فى شيء من السأم والضجر لأنها تؤثر أن تتحدث إليه أو تلهو معه بشيء آخر . وآية ذلك أنها لا تكاد تمضى فى القراءة حتى تقف سائلة جدها الأسقف : أليس يؤثر على هذا الكلام صوتا من أصوات الفنوغراف ثم تدع الصحيفة وتعتمد إلى الفنوغراف فتنطقه بالصوت المعروف :

« أتعرف ذلك البلد الذي يزهر فيه البرتقال ... ! » : فما هي إلا أن يظهر الشيخ شيئاً من الضيق ويطلب إلى حفيده في رفق أن تدع هذا الصوت إلى صوت آخر ، فإذا سأله الفتاة عن مصدر هذا الضيق أبي عليها ، وأحسنا نحن أنه لا يكره هذا الصوت ولكنه يشفق من استماعه . والفتاة لم تدع الصحيفة إلى الفنوغراف إلا لتدع الفنوغراف أيضاً إلى الحديث ، فهي تريد أن تتحدث إلى جدها في أمر ذي بال ، تريد أن تتحدث إلى الشيخ في أمر أخيها الشاب « هنرى » فقد أحب هذا الشاب فتاة ممثلة جميلة رائعة الطلعة يتيمة فقيرة سيئة الحظ ، وهو يريد أن يتزوجها ، وهو يريد أن يتحدث في هذا الزواج إلى جده ، ولكنه كلف أخته أن تعد الشيخ لهذا الحديث ، وقد فعلت . وأقبل الفتى وانصرفت الفتاة وخلا الشاب إلى جده وذكر له قصته وأسرف له في الثناء على هذه الفتاة وأعلن إليه أنه يريد أن يتخذها له زوجاً . فبأبى عليه الشيخ في رفق معلناً إليه أنه حَدَّثُ قليل التجربة ، وأن الخير في أن يروى ويفكر حتى إذا كانت السنة المقبلة رأى في ذلك رأيه . وليست السنة المقبلة بعيدة فستبدأ بعد ساعات لأننا في اليوم الأخير من شهر ديسمبر . ولكن إباء الشيخ يشق على الفتى ويؤلمه فيقول لجده : لو عاش أبواى الشابان لاستطاعا أن يفهما عاطفة الحب . ويقدرها فقد تقدمت بك السن حتى نسيت شبابك وعجزت عن فهم عواطف الشباب . تقع هذه الكلمات في نفس الشيخ موقِعاً مؤلماً ، فيدعو الفتى إلى

البقاء وكان قد همّ بالانصراف ، ويأمره أن يحمل إليه صندوقاً صغيراً على مائدة في ناحية من نواحي الحجرة ، فإذا حمل إليه هذا الصندوق فتحه وأخرج منه منديلاً وزهرات من البنفسج قد أتى عليها الدهر فأصبحت هشيماً ، وبدأ يقص على حفيده قصة هذا المنديل وهذه الزهرات ليثبت له أنه على شيخوخته وتقدم السن به لم ينس شبابه ، ولم ينس أنه أحب وألم للحب . وهنا يتحول المسرح وتستخفي الحجرة والشيخ والفتى وتمثل أمامك القصة التي بدأ الشيخ يقصها على الشاب .

فأما الفصل الأول من هذه القصة فيقع في قصر رجل من أغنياء الأميركيين حين كان الأسقف في الخامسة والعشرين من عمره . وقد أقام هذا الرجل الغني في قصره حفلاً دعا إليه وجوه المدينة وأغنياءها وذوى المكانة فيها ليسمعوا عنده مغنية إيطالية ذائعة الصيت قد اتخذها للموسيقيان الشهيران « روسيني » و « فردي » ترجماناً لما يضعان من الموسيقى . وهي رائعة فاتنة قد شغف بها من أغنياء أوروبا وأمرائها خلق كثير . وانتهى الأمر بها إلى هذا الغنى الأميركي الذي يتصل بأسرة فرنسية هاجرت إلى أميركا في آخر القرن الثامن عشر . أحبها هذا الغنى وكلف بها كلفاً شديداً فدعاها إلى نيويورك وقدمها إلى وجوه المدينة وعشاق الفن الموسيقى فيها . ونحن نرى قصر هذا الغنى مزدحماً بمن فيه من الشباب والكهول والشيوخ رجالاً ونساء ، ونحن نرى ونسمع من عبث الأميركيين وحوارهم ما يلذ ويضحك وما لا سبيل إلى أن نلم به

في هذا الفصل . ولكنني أقف بك عند رجل من الأغنياء قد دعى إلى هذا الحفل فأقبل ، وإنه لشديد السخط على القصر وصاحبه ومن فيه ، هو رجل قد أكل الحقد قلبه ، فهو لا يرضى عن شيء ولا عن أحد وهو ضخم الثروة ولكنه شديد البخل مسرف في الحرص عظيم الشره يريد أن يستمتع بكل ما يجد دون أن يعترف بشيء من الاستمتاع . ضاق صدره بالمدعوين ففر منهم إلى إحدى غرف القصر وأمر الخادم أن يحمل إليه طعامه وشرابه ، فإذا دخل الغرفة نظر فإذا علبة فيها سيجار فيلقى على هذه العلبة نظرة إحتقار وازدراء ثم لا يلبث أن يتحقق أن ما فيها جيد النوع ، فيأخذ واحداً ، ثم لا يكفيه ما أخذ فيأخذ طائفة أخرى من السيجار ويدسها في جيبه ويأتي الخادم وقد حمل إليه من الطعام والشراب ما استطاع فيلقى إلى ما حمل إليه نظرة إزدراء وإحتقار ثم ينتهر الخادم لأنه لم يحمل إليه إلا قليلاً ويجلس كارها إلى طعامه ولكنه لا يكاد يذوقه حتى يستجيده فيسرف في الأكل والشرب ، وإنه لفي ذلك إذ يدخل عليه القسيس الشاب « توم أرمسترونج » وهو ، كما قدمت ، في الخامسة والعشرين من عمره ، جميل الطلعة ، واضح الأسارير ، ممتلئ نشاطاً وقوة ، قد عرف بالإخلاص في خدمة الدين ، وبالعباية في خدمة الفقراء والبائسين ، خفيف الظل حلو الروح يحبه صاحب القصر ويرجو أن يزوجه من إحدى قريباته . يدخل هذا القسيس على صاحبنا وهو منهمك في طعامه وشرابه فلا يكاد يراه

حتى ينصرف عما هو فيه من طعام إلى صاحب القصر فينال منه في لفظ منكر قبيح ، ويعيب عليه هذه المغنية التي دعا الناس لاستماعها في قصره لأنها خليلته ، ولأنها معروفة بسوء السيرة ، ويلوم القسيس لأنه يرضى عن هذه الآثام ويقصر في تأدية واجبه الديني فلا يكف صاحب القصر عن هذه الفضيحة ، فيسمع له القسيس حتى إذا فرغ من كلامه قال له هذه الجملة التي تعطيك منه صورة واضحة : لمن هذا الطعام الذي تزدرده ولمن هذا الشراب الذي تعب فيه عباً ؟ ولمن هذا السيجار الذي تدسه في جيبك ؟ أليس هذا كله لصاحب القصر ؟ يجيبه الغني : بلى . وأنت ترى أن واجب القسيس هو أن يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويأخذهم بترك ما يتورطون فيه من شر . يجيبه الآخر : نعم ! وإذن فلابدأ بك ، فقد أتيت نكراً لا يعدله نكر حين اغتبت صاحب هذا القصر على هذا النحو القبيح وأنت في قصره تأكل من طعامه وتشرب من شرابه ! . وهما في هذا الحوار إذ يأتي « دى روشار » صاحب القصر ، فينصرف هذا الغني . ولايكاد القسيس يخلو إلى صاحب القصر حتى يبدأ في تأدية واجبه الديني من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، ولكنه يجد في هذا مشقة ، فهو يكبر صاحب القصر ويجله ، وهو مدين له بمركزه في الكنيسة . على أن هذه المشقة لا تصرفه عن أداء هذا الواجب فهو يلوم صاحب القصر على ما بينه وبين هذه المغنية من صلة وصاحب القصر يجيبه معتذراً إليه في شيء من الرفق والفلسفة والشك

في معنى الخير والشر وقيمة الفضيلة والرذيلة ، و يعلن إليه أنه يرى السعادة الحقيقية في حب الخير والجمال والشباب . وهما في هذا الحوار وإذا المغنية قد فرغت من غنائها وأقبلت يتبعها المعجبون بها ، فينصرف القسيس وتخلو هذه المغنية إلى صاحبها ، ليكون بينهما حوار نفهم منه أن وعظ القسيس قد أثر في نفس هذا الرجل من حيث لم يشعر . انظر إليه يتحدث إلى صاحبتة بأنه في الحادية والخمسين من عمره وأن أسباب اللهو والنعم قد تقطعت به . وأن الخير إنما هو في أن يستحيل جبهما إلى مودة بريئة ، وهي تستمع له راضية حيناً وساخطة حيناً آخر ، غاضبة مرة ، مداعبة مرة أخرى ، مزدريه لما يقول ، حريصة على أن يعدل عنه ، ولكنها على كل حال قد رأت القسيس وهو ينصرف فوق من نفسها ، وهي تعلن إلى صاحبها في صراحة أنها تكره البروتستانتية من الموسيقى والبخور والاعتراف ، ولكنها تحب البروتستانتية لأن قسوسها حسان . وما زالت بصاحبها حتى أقنعته بأنه لم يبلغ الخمسين من عمره وأنه ما زال يستمتع ببقية من شباب وحتى ضربت معه موعداً للنزهة إذا كانت الساعة الرابعة من مساء غد . ثم تطلب إليه أن يدعها لتستريح قبل استئناف الغناء وأن يرسل إليها شيئاً من الخمر والليمون .

فلا تكاد تخلو إلى نفسها حتى يمر القسيس فتتناوم وتدع رداءها يسقط عنها ؟ وقد نظر إليها القسيس وحدث فيها وكأنها وقعت في نفسه ،

فيدنو منها في خفة ويعيد إليها الرداء وينصرف ، ولكنه لا يكاد يتجاوز الغرفة حتى يسمع صوتها وهي تشكره . وما هو إلا أن يسمع هذا الصوت حتى يضطرب ولا يدري أيمضى أم يقف ، فتستوقفه وتستدنيه ويجيبها إلى ما تريد في شيء من الاضطراب والذهول . ويأخذان في الحديث ، وإذا هي تخفى على القسيس نفسها وتأخذ في اغتياب المغنية فيلومها القسيس ويطلب اليها أن تستغفر الله من هذا الإثم فتأبى فيغضب ويهم أن ينصرف . ولكن الخادم قد أقبل يحمل الشراب ، فتطلب إليه أن يصب لها في القدح فيفعل ، ثم تطلب إليه أن يصب في قدح آخر فيفعل ، ثم تدفع إليه أحد القدحين فلا يستطيع أن يرده ، ثم تأمره أن يحدق فيها وتعلن إليه أنها ستحدق فيه وتقرح أن يشربا قدحيهما على هذا النحو . فإذا فرغا من الشرب رأيناها وقد فتن كل منهما بصاحبه فتنة قوية . فأما هي فتستغفر الله من إثمها حين اغتابت المغنية ، وأما هو فيطلب اليها موعداً لأنه يريد أن يراها وأن يتحدث إليها بأشياء كثيرة ما كانت لتخطر له من قبل . وهما في هذا الحوار إذ يقبل صاحب القصر فيراها على هذه الحال : وهي كالنائمة وهو جاث بين يديها يناجيهما . وأنت تستطيع أن تقدر دهش صاحب القصر حين يرى مكان القسيس من المغنية وهو الذي كان يلومه فيها منذ حين . تنهض المغنية لتستأنف الغناء ولكن القسيس يلح عليها في الموعد غير حافل بمكان صاحب القصر ، فتضرب له الموعد من الساعة الرابعة من مساء غد ، فإذا

ذكرها صاحب القصر بأنها قد ضربت له الموعد في هذه الساعة نفسها
أجابته : أما موعدك فمؤجل . وتنصرف وقد سقط من يدها منديل
فيهوى اليه القسيس فيأخذه

فإذا كان الفصل الثاني فنحن في بيت القسيس ، في حجرة عمله ،
نرى عمته قد جالستنا تنازعان إحداهما في الثامنة والخمسين ، والأخرى
في الستين ، وكلتاهما قد وقفت حياتها على القسيس لا تدرى ماذا تصنع
لترضيه وتعنى بطعامه وشرابه ولباسه ، والخصومة بينهما في ذلك متصلة
مضحكة ، ولكنهما رغم هذه الخصومة متفقتان في الألم لأن الشاب قد
تغيرت حياته تغيراً شديداً منذ ثلاثة أسابيع ، فهو شديد الكلف بهذه
المغنية الإيطالية يقضى معها شطراً من كل يوم حتى نسي خطيبته وحتى
أخذ الناس يتحدثون عن كلفه بهذه الفتاة ، وهما تصليان وتضرعان إلى الله
أن يصرف عن القسيس هذا المكروه ، وهما تستعينان بـ « دي روشار »
صديقتها وصديق القسيس وعم خطيبته ، وهما تنتظران عودة الشاب
بعد حين ، ولكنهما لا تعرفان من الذى أرسل هذه الطاقة من الزهر
دون أن يرسل اسمه معها ، ولا تفهمان لم لا يريد الشاب أن يأخذ
الشاي معها ، ولا تعرفان هذا الشخص الذى سيتناول الشاي مع
القسيس .

وقد أقبل صديقتها دي روشار . قصتا عليه القصة وألحقا عليه في

أن يحاول صرف الشاب عن هذه المغنية الأجنبية ، فيعدها وينبئها بأن الأمر يعنيه كما يعنيهما ، لأنه يحب القسيس كما تحبانه ، ويعلن إليهما أيضاً أنه سينتظر الشاب ليتحدث إليه ، فتتصرفان عنه . ولا يكاد يخلو إلى نفسه حتى تقبل المغنية فيلقاها دهشاً ؟ أما هي فيصحبها شيء من الدهول ، ثم يتحدثان فتفهم من حديثهما أن الحب قد اتصل قوياً غنياً بينها وبين الشاب ، وإن هذا الحب على قوته وعنفه طاهر برىء يقوم على أ كذوبة أو على طائفة من الأكاذيب ، فإن الفتاة لم تستطع أن تنبئ صاحبها بحقيقة أمرها ولا بما تشتمل عليه حياتها من الآثام ، وإنما تركته يصورها كما أراد له خياله وحبه نقية طاهرة مثلاً للفضيلة والبراءة والطهر . وهي تستعذب هذا الحب الأفلاطوني ، ولا تريد أن تكذب ظن الشاب ، ولم تكذب ظنه وستعود إلى أوربا بعد خمسة عشر يوماً فتقطع بينهما الأسباب ، وتكون قد سعدت في حياتها بحلم لذيذ . ولكن دي روشار يلفتها إلى أن الأمر أشد خطراً مما تظن ، فالشاب يجبها حقاً وسيطلب إليها أن تكون زوجة وليس إلى ذلك من سبيل ، وهو يقترح عليها أن تسافر من الغد وأن تنصرف الآن دون أن تراه ، وهي مستعدة للانصراف ، ولكن القسيس قد أقبل وما يكاد يراها وتراه حتى ينسيا كل شيء وينصرف كل منهما إلى صاحبه ، ويضطر دي روشار إلى أن يدعها حيناً . وهنا موقف بين العاشقين شديد التأثير حقاً ، فيه لين ودعة وعدوثة ، وفيه حب يبلغ به العنف أقصاه ،

ولكنه سعيد كله غبطة وأمل ، ثم فيه أمل تتفطر له القلوب وتتفرق له النفوس شعاعاً . أنظر إليه راضياً مغتبطاً شديد الابتهاج بزيارتها آياه ، أنظر إليه في وداعة الطفل يظهرها على ما في غرفته من متاع ، أنظر إليه يظهرها على صورة أمه التي ماتت شابة ، وسمع له يتحدث عن أمه : يصفها بالجمال وعذوبة الخلق ورضا النفس ، وسمع له يذكر أمه وما كانت تشعر به لو أنها رأت صاحبته ، ثم أنظر إليه يهدى إلى صاحبته عقد أمه وهي تأخذ هذا العقد وتطوق به جيدها ، ثم اسمع لها يفنيان معاً صوتاً كانت أمه تغنيه ، ثم انظر إليهما وقد نسيا كل شيء وفنى كل منهما في صاحبه وقد أقبل إليها فضمها بين ذراعيه لحظة ثم أطلقها وهو يطلب إليها أن تكون له زوجاً . هنا تعود الفتاة إلى نفسها وتذكر حياتها الآثمة ويحس منها هذا ، ولكنه قسيس وهو يحب ، فما أسرع ما ينتهي به حبه ودينه ومركزه الديني أيضاً إلى العفو ، فهو ينسى ماضيها بل يمحوه وهو يلح عليها في أن تكون له زوجاً وهو يعلن إليها مبتهجا أنه سيدعو عمته ودي روشار لينبئهما النبأ .

فلا تكاد تسمع اسم دي روشار حتى تضطرب ويريبه هذا الاضطراب . والعجب أنه نسي كل ماضيها وعفا عن آثامها جميعاً ؛ ولكنه شديد الحرص على أن يعلم أنه لم يكن بينها وبين هذا الرجل شيء ، هو يلح عليها وهي تتردد حتى إذا أشفقت عليه من الحق كذبت وزعمت له أنه لم يكن بينها وبين هذا الرجل شيء ، فيستحلفها على

(٥)

التوراة فتهم باقسام اليمين ، ولكن دى روشار قد أقبل ، فينبئه القسيس بحبه وخطبته ، ولكنه لا يرى منه ابتهاجا فيريبه ذلك ، وأنظر إليه قد اندفع به الحب والريب حتى انتهى به إلى ذهول يشبه الجنون ؛ فهو مائل أمام هذا الرجل وهذه المرأة يستحلفهما على التوراة أن لم يكن بينهما شيء . فأما الرجل فقد رق له فكذب عليه ، وأما المرأة فقد كان حبها من القوة والصدق والإخلاص بحيث حال بينها وبين الكذب مرة أخرى . فاسمع لها تعلن في صراحة وألم أنها كذبت وأن هذا الرجل قد كذب أيضاً ، وأنها كانت خليلته منذ سنين ، وأن آثامها في الحياة أكثر عدداً من صلوات القسيس ، وأنها اتخذت جسمها تجارة ، وأنها لا تصلح له زوجا ، وأنها تنبئه بهذا كله لأنها تحبه حقاً . أما هو فقد فقد رشده أو كاد وهو الآن جالس مطرق وقد انصرف عنه الرجل وهمت هي أن تحدته فلم يسمع لها فتنصرف ، حتى إذا سمع الباب يغلق من دونها أغرق في البكاء كأنه طفل .

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في الفندق الذى تقيم فيه المغنية وقد مضت أيام على ما كان فى الفصل الثانى . ونحن نرى خادم المغنية قد جلست إلى النار تهيء طعام سيدتها ، وفى الغرفة اضطراب يدل على استعداد للسفر . وأنا أعفيك — كارها — من ضروب الحوار المضحك

بين هذه الخادم وأهل الفندق ، وأعفك أيضاً من كثير من الحوار اللذيذ لأنتهى بك مسرعاً إلى القصة .

فقد أقبل دى روشار معلناً أن المغنية قد ظفرت في مسرح الأوبرا بفوز لا يشبهه فوز ، وانه ينتظرها في هذه الغرفة ، وما هي إلا أن تقبل الفتاة رائعة مروعة أيضاً قد أنفقت جهداً عظيماً لتخفي ما تحس من ألم ، ولتؤدي واجبها في الأوبرا . وقد انتهت من هذا الجهد ووصلت الآن إلى غرفتها فتستطيع أن تستسلم لآلامها وهي مستسلمة لهذه الآلام . أليست منصرفه عن صاحبها هذا ، منصرفه عن خادمها ، منصرفه عن هذه الجموع التي أقبلت من الأوبرا تشيعها وتهتف باسمها ، منصرفه عن كل شيء ، قد ألتت بنفسها على الأرض مفكرة أو كالمفكرة والناس يحاورونها ويلحون عليها وهي لا تجيب إلا في كره وسخط ، وانظر إليها تنهر خادمها في عنف ثم لا تلبث أن ترق لهذه الخادم فتقبلها في حنان ، وانظر إليها معرضة عن صاحبها حتى إذا هم أن ينصرف أمسكته ، هي ذاهلة لا تفكر إلا في صاحبها القسيس وما بعثت في نفسه من الألم منذ حين ، وهي تتحدث بذلك إلى نفسها مرة وإلى صاحبها مرة أخرى ، حتى إذا عجزت الخادم وعجز صاحبها عن تسليتها أو حملها على أن تأكل انصرفا عنها نخلت إلى نفسها ؛ وما هي إلا أن أقبلت على الصلاة جاثية . ولكن بابها يطرق مرة ومرة ومرة أخرى ، فتنهض وتفتح الباب وإذا القسيس مقبل في شكل بشع رائع ، مضطرب أشد

الاضطراب ، ظاهر الذهول ، حائر الطرف ، لا يكاد يبين ، قد جلل
الثلج ثيابه ، ودلت هيئته على أنه قد هام على وجهه غير قليل ، وهو
يرتعش من البرد . فإذا سأله فيم أقبل أجابها أجمل جواب وأبدعه
وأشده في النفوس تأثيراً . أجابها : لقد خرجت فهمت ساعات لا أدرى
أين أنا وإلى أى وجه أقصد ، ولقيتني فتاة سألتني عن طريقها وكنت
أنت هذه الفتاة ، منذ ذلك الوقت اختلفت على صور منك لا تحصى ،
رأيتك طفلة بأسة تعسة ، ورأيتك فتاة تتغنى في الشوارع ، ورأيتك باغية
تسرف في الإثم ، ورأيتك لاهية ، ورأيتك جميلة ، ورأيتك دميمة ،
رأيتك في عزة ، ورأيتك في ذلة ، وأحاطت بي منك صور لا تحصى ،
ومضيت وهذه الصور من حولي حتى مررت بكنيسة كاثوليكية من
كنائسكم فدخلت وجثيت وصليت وفهمت . . . فهمت إني آثم . . .
آثم حقاً ، مسرف في الإثم ، فهمت أني أشر ، فهمت أني مقصر لم أوّد
واجبي ، كان حقاً على أن أنقذك بعد أن رأيتك فيما رأيتك فيه من
إثم وذل وألم ، ولكنني آثرت نفسي عليك ففررت منك . . . نعم
فهمت وجئت الآن لأؤدى هذا الواجب .

أما هي فما كادت تسمع حديثه هذا حتى أخذها شيء من الذهول
أشبه شيء بذهول الصوفية . وفي الحق أنها تغيرت تغيراً تاماً وانقطعت
الصلة بين حياتها القديمة وحياتها الجديدة . فأسمع لها تهون على صاحبها
القسيس وتنبئه بأنه قد بلغ ما كان يريد لأنه قد استنقذها من الآثام

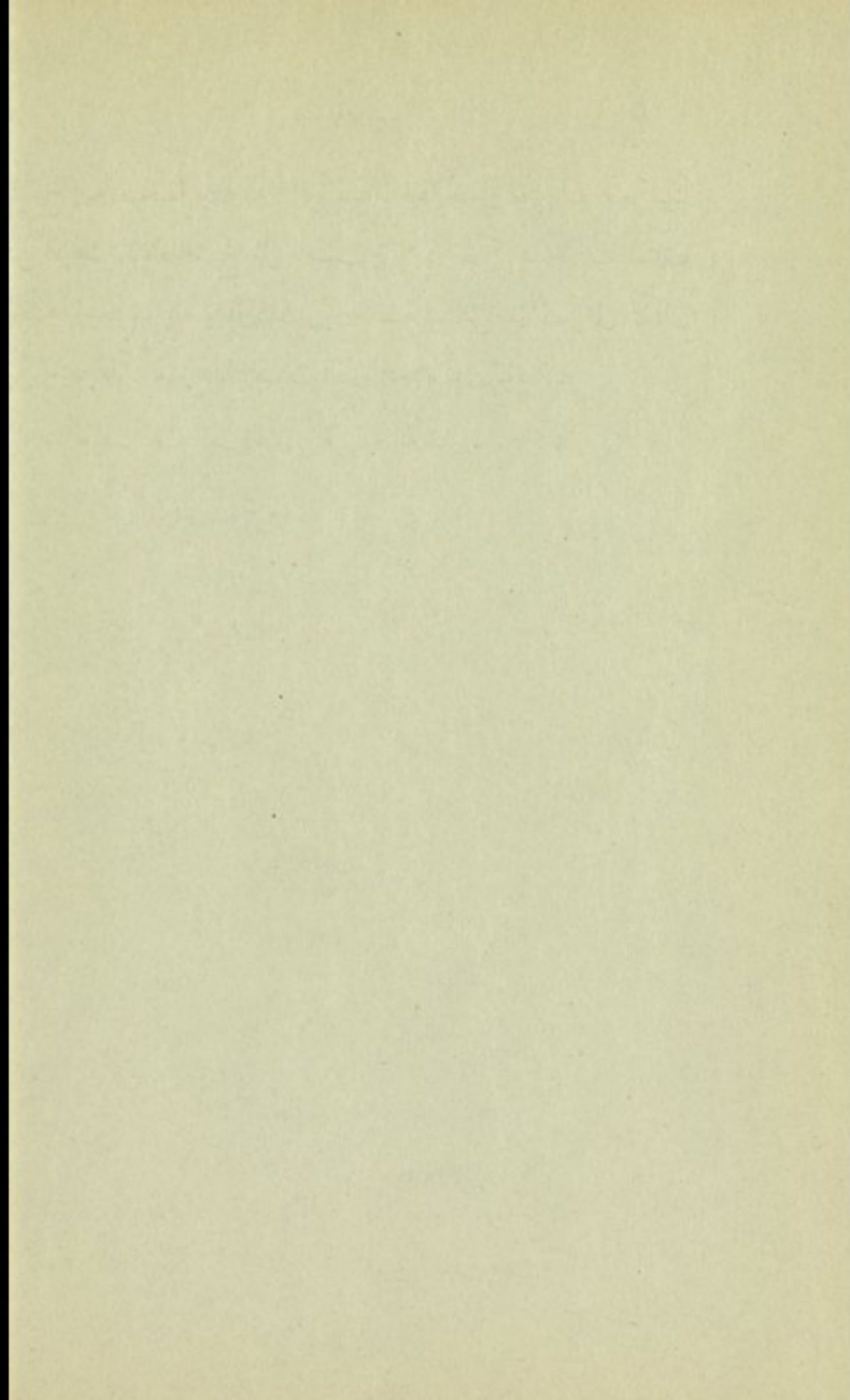
وطهرها من الرجس ، فحدث حياتها الماضية وابتدأت حياة جديدة ؛
أو قل خلعت شخصها الأول واستحالت شخصاً جديداً . وسمع له وهو
يسألها أن تعده ألا تقدم منذ اليوم على إثم وألا تكون منذ اليوم أداة
لهو وعبث . فتدفع له كتاباً قد كانت كتبته فيه هذا الوعد ، ولكن
قراءة هذا الكتاب تغير من صاحبنا كل شيء ، فانظر إلى نفسه وعواطفه
وشهواته الإنسانية وقد ثارت ثورة عنيفة منكرة فمزقت ثياب القسيس
وألقته عنه ، وإذا هو رجل قائم يحس ويشعر ويحب ويشتهي ويرى
أمامه موضوع حبه وشهواته ، وإذا هو يعلن هذا إلى الفتاة في عنف
ويسرع إليها فيضمها إليه ، وإذا هي تضرب بين ذراعيه اضطراب
الطامع المشفق يرغبها حبها في الإسماع ويصرفها ما نذرت عن اللهو ،
وإذا هي تضرع إليه أن يخليها وترغب إليه في ألا يكون كغيره من
الناس ، وألا يتخذ جسمها كما اتخذوه متاعاً . وإذا هي تعلن إليه في
ضراعة وإشفاق ورهبة إن أمرها بين يديه إن شاء تركها سالحة وإن
شاء ردها إلى حيث كانت من الإثم والفساد . وإذا كلماتها ورغبتها
واشفاقها تؤثر في هذا الرجل فتنتلق ذراعه عنها قليلاً قليلاً . وإذا هو
جاث مطرق مغرق في تفكير عميق ، ولكن الليل انتصف وابتدأت
السنة ودقت أجراس الكنائس ، وانطلقت بالصلوات السنة المؤمنين ،
وكأن هذا كله قد انتهى إلى القسيس فأيقظه من نومه ، فينهض مثاقلاً
يمر يده على جبينه يعتذر ويستأذن في الانصراف ليلحق بالمصلين . وانظر

إليه يخرج متثاقلاً وإن الظلمة لتنتشر في الغرفة شيئاً فشيئاً حتى تغمرها
وتخفي فيها كل شيء ، وإذا المسرح يتغير فجأة كما تغير في أول القصة ،
وإذا نحن في حجرة الأسقف حين تركناه في أول القصة يقص على
حفيده ما كان من أمره في شبابه . والفتى يسأله : ثم ماذا كان من
أمر هذه المغنية ! فيجيبه : لم أعلم من أمرها شيئاً ، إنما قصصت عليك هذه
القصة لتعلم أن تقدم السن بي لم ينسني أني كنت شاباً وأنى قد أحببت ،
ففكر في أمر زواجك قبل أن تقدم عليه ، وادع لي أختك فإنها لم تتم
لي قراءة الصحيفة .

ويخرج الفتى فيدعو أخته فتقبل وتستأنف القراءة ، فإذا هي
في الأخبار البرقية وإذا هي تقرأ هذا العنوان : موت مغنية شهيرة
كفاليني . فاذا سمع الأسقف هذا الاسم اضطرب قليلاً وطلب إلى
الفتاة أن تقرأ فتقرأ أن هذه المغنية التي ماتت قد انقطعت عن
الغناء وانصرفت عن المجد وزخرف الحياة في ريعان شبابه منذ
سنة ١٨٧٣ ووقفت ثروتها الضخمة على أعمال البر ، وإن الفتاة
لتقرأ وإذا الأجراس تدق ، فقد انتصف الليل وابتدأت السنة وألقت
الفتاة صحيفتها وتقبل على جدها تهنئه وتقبله ولكنها ترد عنه قائلة :
أرني خدك مبتلاً ! . . . وخذك الآخر . . . إنك تبكي . . . كلا
يا ابنتي ولكن أين أخوك ؟ فتدعو له الفتى ، فإذا أقبل مهنئاً دفع

الشيخ إليه الصحيفة وقال له : اقرأ هذا . فإذا حاول الفتى أنه يظهر شيئاً
من الدهش دعاه الشيخ الى الصمت قائلاً : أتذكر صاحبتك الممثلة ،
اتخذها زوجاً ، و إنه ليقول ذلك وإن القصة لتنتهى بيننا تصل الى الآذان
من بعيد جداً أنغام هذا الصوت الذى سمعناه أول القصة .
« أتعرف ذلك البلد الذى يزهر فيه البرتقال . . . ؟ »

نوفمبر سنة ١٩٢٦



انثوانيت سا برييه

قصة تمثيلية بقلم الكاتب الفرنسي « رومان كولوس »

مثلت هذه القصة لأول مرة في اكتوبر سنة ١٩٠٣ ، وما يزال الممثلون يلعبونها إلى الآن . وأكبر الظن أنهم سيلعبونها زمناً طويلاً أيضاً . ذلك لأنها من القصص التي تعجب جمهور النظارة وتأخذ عليهم قلوبهم وألبابهم ، وتثير في نفوسهم من العواطف ما يدفعهم إلى تشجيع الممثلين على الاحتفاظ بها وإعادة لعبها من حين إلى حين .

والحق أنك لا تكاد تمضي في قراءة هذه القصة حتى تلاحظ أمرين مختلفين ، ولكنهما خليقان بالإعجاب ، كفيلان بأن يطول بقاؤها في ملاعب التمثيل . أحدهما أن الكاتب قد راعى حين وضعها ، لا أقول أصول الفن ، وإنما أقول أصول المنطق ونظام التفكير الإنساني مراعاة دقيقة جداً . فأنت تنتقل بين مناظرها وفصولها ، كما تنتقل بين قضايا القياس المنطقي المتقن . قد وضع كل شيء فيها موضعه لا يستطيع أن يتجاوزه ولا ينبغي له أن يتقدم أو يتأخر . وأنت لا تفرغ من قراءة منظر حتى تتوقع المنظر الذي يليه ، وما تزال كذلك طوال الفصل

الأول وطوال الفصل الثاني ، حتى إذا كدت تفرغ منه فجأتك المصادفة التي لم تكن تنتظر والتي لم يكن منها بدءاً لتنشأ المشكلة التي تدور حولها القصة . فإذا كانت هذه المصادفة فقد نشأت هذه المشكلة وتعمدت و انتهت إلى أقصى ما كان يمكن أن تنتهي إليه من العنف والشدة . ولكننا نعود في الوقت نفسه إلى هدوء المنطق ، وتتصل الحوادث أمامنا مطردة مستقيمة يتبع بعضها بعضاً وينتج بعضها من بعض حتى تنتهي إلى نتيجتها الطبيعية المعقولة ، وهي نتيجة محزنة ، يألم لها الجمهور ، ويُعْجَبُ بها ، ويحرص على أن تتكرر أمامه في الملاعب .

هذا أحد الأمرين . الأمر الثاني أن القصة كلها صراع عنيف بين طائفة من العواطف والواجبات قد ألفتها أوساط الناس واطمأنوا إليها وتعودوا أن يقبلوها كما هي لا يضعونها موضع المناقشة ولا الجدل . فما يعجبهم أن يظهر الكاتب هذه العواطف والواجبات وقد اصطدمت وتناقضت ووقف بعضها من بعض موقف الحرب والخصومة القوية . فنحن نرى في القصة صراعاً بين الحب والصدقة ، وبين الحب والواجب ، وبين الصدقة والواجب ، وبين الحب المشروع والحب الذي لا يبرأ من الإثم والخيانة ، وبين الوفاء الزوجي وهذا الحب الأثيم ، ثم بين الشرف والمنفعة ، ثم بين الشرف والحب والحياة . وكل هذه العواطف والواجبات قد مثلها الكاتب تمثيلاً قوياً صادقاً ، وتخيّر لها أشخاصاً يتقمصونها تقمصاً ، إن راقك هذا التعبير . ونحن نلذ أن نرى هؤلاء الأشخاص

يختصمون ويجاهد بعضهم بعضاً ، ويجاهد كل واحد منهما نفسه .
ونحن نقف أمام النتيجة الأخيرة لهذا كله موقف المطمئن المستسلم الذي
يقول مع الشاعر العربي القديم : « لا بدَّ مما ليس منه بدُّ » والذي
يستطيع في الوقت نفسه أن يمضى إلى ما وراء القصة ويعرف ما يتم بين
هؤلاء الأشخاص من توادع وتراض يقومان على الحزن والاستسلام
لهذه القوانين الصارمة التي تدمر حياة الإنسان .

فإذا أضفت إلى هاتين الخصلتين خصلة ثالثة هي الإتقان الفني من
الناحية الكتابية الصرفة وحسن تخير الألفاظ والمهارة في تدبير الحوار ،
استطعت أن تتبين السر في أن هذه القصة لم تتجاوز شبابها بعد وإن
كانت قد نيفت على العشرين .

ولنبداً في تحليلها كما تعودنا البدء في تحليل هذه القصص بعرض
أشخاصها عليك في إيجاز لأنهم كثيرون .

أول هؤلاء الأشخاص وأحتمهم بالعناية هي بطلة القصة التي سميت
باسمها وهي « أنتوانيت سابرييه » . نعرفها ولما نقرأ من القصة أسطراً ،
ونعرف في الوقت نفسه أنها امرأة قوية الشخصية لأنها بثت الحسد من
حولها ، وأطلقت السنة النساء بالقول المختلف في سيرتها وحظها ووفائها
وما يتصل بذلك . وهي في حقيقة الأمر امرأة قوية الشخصية ، عظيمة
الحظ من الإرادة ، قادرة كل القدرة على أن تضبط نفسها وتسير سيرة
تلائم الواجب والخلق ومكاتها الاجتماعية الرفيعة وإن لم تلائم مثلها

الأعلى في الحياة وحاجتها إلى ما يطلب النساء من اللذة ونعيم العيش .
هي متوسطة السن ليست شابة ولكنها محتفظة بجمال الشباب وروعته
وقوته أيضا . خفيفة الروح ، جذابة ، راجحة الحلم ، يظهر عليها الهدوء
والرزانة والرضا ، ولكن قلبها جذوة من النار مضطربة أشد الاضطراب
وقلما يحس ذلك أحد غيرها . وهي كما قدمنا مالكة لهذا القلب ، قادرة
على تصريفه كما تحب وحيث تحب إلا أن يعرض لها شخص آخر أشد
منها قوة وأبعد منها أثرا .

تزوجت من رجل يشبهها من بعض الوجوه ويخالفها من بعضها
الآخر ، وهو « جرمان سابرييه » قوى الإرادة مثلها ، متقد القلب
مثلها ، ضابط لنفسه مثلها أيضا ، ولكنه قد عرف طريقه فمضى فيها
اندفاعا ، وأذعن له الفوز في كل ما حاول من الأمر . كان ضئيلا
فقيرا يعمل في سوق الأوراق المالية ، فما هي إلا أن اندفع في هذا
الطريق حتى أصبح من كبار المالين في أقل من عشرة أعوام .
وهو اليوم زعيم من زعماء المصارف وملك من ملوك البورصة ، يتقرب
إليه الناس ويتهاكون عليه ويحسدونه ويتربصون به المكروه . وهو
مطمئن إلى حظه ، واثق بالمستقبل ، لا يشفق ولا يخاف ، ولا يتردد
ولا يحسبُ إذا أراد أن يقدم على شيء . وهو يحب امرأته حبا قويا
حادا ولكنه غريب ، فهو لا يظهر لامراته هذا الحب على النحو المألوف ،
وإنما هو مقتنع بأنه يرضى امرأته وعواطفها وميولها إذا أغناها وضمن لها

حياة مترفة خلافة تبعث الحسد وغبطة النساء . وهو يُحَيَّل إليه أنه مصيب من حب امرأته ما أراد ، لا يسأل نفسه أراضية هي أم ساخطة ، أقالعة أم محرومة ؟

و بين هذين الزوجين شخص ثالث هو « دوراي » متقدم في السن بعض التقدم ، قوى الإرادة جداً ، قادر على ضبط نفسه ، في قلبه جذوة تضطرم من الحب ، ولكنه قد سيطر عليها واستطاع أن يلفظها حتى يجعلها جذوة وفاء ومودة بريئة طاهرة . أحبَّ « انتوانيت » وحاول أن يظفر بحبها فلم يوفق ، ولكنه ظفر منها بالمودة ففنع ورضى من حياته بساعات ينفقها من كل يوم مع هذه المرأة في حديث برىء ونصح ومودة راضية ، يجدان في هذا كله لذة لا تشبهها لذة . وانطلقت السنة الناس فيهما بألوان القول ، ولكنهما لا يحفلان بذلك ، ولا يحفل بذلك الزوج نفسه لأنه شديد الثقة بامرأته ، شديد الثقة بصديقه . ولهذا الصديق أخت شابة هي « إيلين » رائعة الجمال ، خلافة المنظر ، شديدة التسلط ، قوية الإرادة ، مضطربة المزاج ، قد بلغت العشرين من عمرها ، وليس لها إلا أخوها هذا ، فهو يقوم منها مقام الأب والأم والمرية . حتى تظفر بما يليق بها في الزواج . وهي تحب رجلاً ليس أقل من الذين تقدموه قوة إرادة ولا حدة عاطفة ولا اضطرام قلب ، هو « رينه دانجين » ، غنى ، ضخمة الثروة ، وسيم الطلعة ، محبب إلى النساء بعيد الأثر في نفوسهن ، مفتون بالأدب والفن والقراءة ، منصرف

عن حياة أبيه الصناعية المالية ، قد أغضب أباه إغضاباً شديداً ،
وانقطع عما يتردد عليه أمثاله من الأندية ومجالس اللهو والعمل . تحب
الفتاة هذا الرجل ، وهو يظهر لها ميلاً شديداً تحسبه الحب وليس هو
من الحب في شيء ، إنما هو لون من العطف والمودة والأنس إليها .
هؤلاء هم أشخاص القصة أو قل أبطالها كما تعود تقاد التمثيل أن
يقولوا . ومن حولهم أشخاص كثيرون قد اختطفهم الكاتب اختطافاً ،
ولمَّح لك بصورهم النفسية تلميحاً ، فبلغ في ذلك ما شاء من الإجابة
والإتقان : منهم هذه المرأة الباريسية التي نجدها في أول القصة تتحدث
إلى زوجها ورجلٍ آخر في دعابة ودلّ باريسيين ، وهي تطلق لسانها
في « أنتوانيت » وزوجها وصديقتها ، وهي تظهر غيرة على الفضيلة
والشرف والعفة والوفاء ، ولكنها لا تكاد تلمح الرجل الذي يعجبها حتى
تبتذل هذا كله ابتداءً وتنزل عنه في ابتسامه أقل ما توصف به أنها
تحمّل على الابتسام .

ومنهم هذا الصحفي الذي حملته صناعته على أن يتتبع مثالب الناس
ويلمّ بدخائلهم حتى أصبح صاحب الفتوى من هذا النوع من الغيبة ،
يلجأ إليه المغتابون ليجدوا عنده ما يحتاجون إليه من ألوان الطعن
والتشنيع . وهو على هذا كله يحاول أن يكون رجل جدّ وصدق ووفاء
بالمودة . فإذا سئل عن مثالب « أنتوانيت » أعلن في حزم أنه لا يعرف
عنها إلا خيراً . ولكنه لا يكاد يتبين الإغراء في عين محدّثه حتى ينسى

الجدّ والصدق والوفاء ويقع في « انتوانيت » بما تشاء صاحبته من الطعن والتلبس . انه رأى حذيقه .

ومنهم هذه الصديقة الوفية التي تُخلص لصديقتها الحب والمودة وتنصح لها جادة رفيقة ، ولكنها أضعف من أن تنصر الواجب وتمضي في نصره إلى النهاية ، فهي لا تكاد ترى صديقتها مبهجة سعيدة بهذا الحب الآثم حتى تدعها وما تريد طالبة إليها ألا يصرفها الحب عن مودتها .

ومنهم هذا الشخص الأخير الذي نلم به إلمامة قصيرة لأنه شائع بين الناس في جميع أطوارهم وبيئاتهم ، هذا الذي يحبك ويقدم إليك ما تحتاج إليه من معونة وتأييد لأن له عندك حاجة ، فإذا لم يظفر منك بما يريد تخلى عنك في سهولة وقسوة لا يحفل من أمرك بشيء ، وربما استحال عدواً لك لا يرضيه إلا أن تنزل بك النازلة ، لا يتأثر في شيء من ذلك بخلق ولا واجب ولا رحمة ولا شيء من هذه العواطف التي يتأثر بها أخيار الناس .

هؤلاء هم أشخاص القصة أو هم كثرة هؤلاء الأشخاص . وأحسبني أستطيع بعد ذلك أن أخص لك . وأحسبك تستطيع أن تفهم هذا التخليص الموجز في غير مشقة .

نحن في ضاحية من ضواحي باريس ، في قصر نغم ، قد استأجره

الزوجان ليقضيا فيه الصيف . وهما يحتفلان هذا اليوم بعض هذه الاحتفالات التي يقيمها الأغنياء ، وقد دعى إلى هذا الاحتفال سراً باريس وأصحاب المكانة فيها ومعهم النساء الحسان يفتنّ الناس بجمالهن ودعابتهن وتنطلق ألسنتهن بما فيه لذة وسحر .

ولا يكاد يرفع الستار عن هذا الفصل حتى نرى هذه المرأة الباريسية بين زوجها وصديقه ، تتحدث إليهما في أمر الزوجين ، فتقع في الرجل بأنه موفق في حياته المالية وأنها تكره الموقنين وتشبههم باللصوص ، وتقع في المرأة بأنها آثمة تعين زوجها بالإثم على ما يسعى إليه من ثروة . فينكر عليها الرجلان هذا . ويأتى الصحفي فيستفتونه جميعاً في أمر « انتوانيت » فيجيبهم بالخير ، ولكنه لا يكاد ينظر في عين صاحبته حتى يرى الإغراء والإطماع ، فيتحول عن الوفاء ويقع في « انتوانيت » ، وبعد أن كان يريد أن ينصرف إلى صحيفته لأداء عمله نراه يؤثّر البقاء ويكتفى بالتليفون .

ونحن نرى المدعوين يترددون في القصر وحديقته يقف كل فريق منهم وقفته على المسرح ، يتحدثون أمام النظارة وقتاً قصيراً ليبينوا فيه بعض ما قدّمت لك من نفسية هؤلاء الأشخاص جميعاً .

فلنمر بهذا الفصل لا نقف منه إلا عند منظرين أو ثلاثة لا بد من الوقوف عندها حيناً . نقف عند هذا المنظر الذي يمثل لنا « انتوانيت » قد أقبلت على صديقها « دوراي » مضطربة كأنها تلتمسه لتشكو إليه

بعض الأمر ، فيسألها فتتردد ، ثم تخبره في استحياء بأن « جاماني » هذا
المالى العظيم الذى لا بد لزوجها من معونته قد أرادها على السوء
امتنت عليه فى رفق ، فانصرف مغيضاً محققاً . ونقف عند هذا المنظر
الذى يمثل لنا « دوراي » وهو يقدم صديقه « رينه دانجين » إلى صاحب
القصر ، ويمثل لنا صاحب القصر وهو يعرض على هذا الرجل الاشتراك
بعض الأعمال المالية فيعتذر إليه . ثم نمر مسرعين بهذا المنظر
الذى يمثل لنا « انتوانيت » وقد لقيت هذه المرأة الباريسية التى رأيناها
فى أول القصة ومعها صاحبها الصحفي قد استسلم لها استسلاماً ، فيقع بين
المرأتين حوار فيه الحسد والتعريض المر ، وفيه من ناحية « انتوانيت »
المدفاع عن النفس فى رشاقة وترفع . ثم تخلو « انتوانيت » إلى صديقتها
تتحدثان ، فنفهم من هذا الحديث أنها لا تحب زوجها ولا تظفر عنده
بما تريد ، ولكنها مع ذلك حريصة على الوفاء له ، لم تخنه ولن تستطيع
أن تخونه ، وهى تعاشره وتشاطره الحياة ، وإذا قدر لها أن تظفر بالحب
لمن تذوق لذته حتى تقطع الصلة بينها وبين زوجها . ثم نقف آخر الأمر
عند هذا المنظر الذى يمثل لنا « انتوانيت » وقد لقيت « رينه دانجين »
لم يكادا يتحدثان حتى وقع من نفسها ووقعت من نفسه ، وكان بينهما
هذا الحب الفجائى الذى يسميه الفرنسيون « وقع الساعة » وإذا هما
باضطرابان أشد الاضطراب ، يقع بينهما حوار قصير يريدان أن يتناولا

به كل شيء فلا يتناولان فيه إلا أنفسهما وسوء حظهما فيما مضى من حياتهما ، وينتهيان وقد تواعدا على المودة .

وتمضى ثلاثة أشهر ، ويرفع الستار عن الفصل الثانى . فاذا نحن فى القصر نفسه آخر النهار ، وقد جلست « انتوانيت » إلى منضدة ترتب طائفة من الأوراق ، ودخلت عليها صديقتها التى رأيناها فى الفصل الأول ، فتسأل « انتوانيت » فم كتبت إليها تدعوها لزيارتها . وتجيئها « انتوانيت » بما كنا نتوقعه فى آخر الفصل الأول من أنها قد أحبت صاحبها حباً لا تجد إلى مقاومته سبيلا ، وأحبها هو كذلك ، وانتهى هذا الحب إلى تبيخته الطبيعية ، وهى أنهما قد اعتزما السفر من فرنسا إلى حيث يجدان الحرية . وهى لم تخن زوجها بعد ، وما ينبغى لها أن تخونه ، وهى تعاشره وتعيش فى بيته . فاذا ذكرت لها صديقتها أن هذا لا يعفيها من الإثم ، فهى مدينة لزوجها بالوفاء حتى يطلقها ، وزوجها يحبها وهو لم يسئ إليها ، وليس من حقها أن تؤذيه أو تسوءه ، أجابت بلسان هذا الحب القوى الآثم إن زوجها لن يطلقها إن طلبت إليه ذلك ، وأنها هى لا تحبه ، وهى تحب هذا الرجل ، ولها حقها فى الحياة ولذاتها ، فما ينبغى لها أن تضحى بنفسها وصاحبها فى سبيل هذا الزواج الذى لا تحبه . وفى الحق أن الحب قد فتن هذه المرأة ، وانتهى بها إلى هذه الأثرة التى ينتهى إليها العشاق عادة ، فهى تضحى بزوجها وصديقتها « دوراى »

وأخته « ايلين » التي تحب هذا الرجل . ولا عذر لها في ذلك إلا أنها
تحب ، وأن صاحبها يحبها ، وأنها كانت تنتظر هذا الحب ، فما ينبغي أن
تمتنع عليه وقد أتيح لها . وصديقتها تسمع هذا فلا تقتنع به ، ولكنها
مترددة بين الدفاع عن الواجب والاحتفاظ بمودة صديقتها ، فتستسلم
وتتمنى لصديقتها التوفيق . ولئن ضعفت هذه الصديقة عن أن تقف في
وجه الحب الآثم وتحتمل ثقل الدفاع عن الواجب ، فلن يضعف عن هذا
صديقتها « دوراي » ؛ فقد أقبل ومعه أخته . فما هي إلا أن يخلو إلى
صاحبته ويتبين ما عزمت عليه حتى ينفجر انفجاراً : يلوم صاحبته لوماً
عنيفاً ، لأنها تضحي بزوجها ، ولأنها تضحي به هو ، ولأنها تندفع مع
الأثرة إلى غير حد ، وهو يردد حيناً ويستعطف حيناً آخر ، ويستسلم مرة
أخرى إلى البكاء . ولكن الانتصار على هذا الرجل يسير ، فهو متهم
في غضبه للواجب ودفاعه عنه ، هو لا يدافع عن الزوج ولا عن الزواج ،
وإنما يدافع عن نفسه لأن صاحبته انصرفت عنه ، وستدعه وتنصرف
إلى حيث تستثمر الحب في دعة وأمن ، في حين يشقى هو بالوحدة والأسى
والحرمان . هو يدافع عن نفسه ، وإذا هو أثر ، وإذا فليس هو بالصديق
حقاً . ولو كان صديقاً حقاً لقبول التضحية في ألم طبعاً ولكن في رضا
وإذعان وما أسرع ما تنتصر عليه وتلزمه الحجة ، وقد تقدم إليها
وانصرف الزائرون ، وأقبل حبيبتها فاتفقا على أن يفرا بعد حين قصير ،
يتنهزان غيبة زوجها في لندرة ويمضى بهما الأتوموبيل إلى حيث يركبان

السفينة إلى أميركا . ويدعها صاحبها على أن ينتظرها أمام القصر ، وهي تدعو خادمتها فتصدر إليها أوامر قصيرة تتصل بهذا السفر وتصرفها . وانظر إليها قد نهضت وتهيأت للخروج إلى حيث ينتظرها صاحبها وهي تلقى بنظرة وداع على الحجرة وما فيها . وإذا فسيظل الواجب مهيضاً وسينتصر عليه الحب الآثم ! وستمضى هذه المرأة مع رفيقها ، وسيعود الزوج فيرى نفسه في هذا القصر و بين هذا الترف وحيداً . يتقوض من حوله كل شيء ؟ . . . كلا ! وما الذي يمنع الصداقة أن تدافع عن هذا الواجب ؟ أنظر إلى صاحبتنا تخطو لتخرج من الحجرة ، ولكنها تصيح وتراجع مذعورة ، لأنها رأت رجلاً وهذا الرجل هو زوجها وقد أقبل من لندرة قبل ميعاد العودة . ولكن انظر إليه إنه مضطرب قد انهت قواه وفقد ما كان يمتاز به من شدة وصلابة وثقة بنفسه وأبالدهر . وامراته تسأله : فيم عجل هذه العودة ؟ وهو يتردد في إجابتها ، حتى إذا وجد القوة على الكلام أخبر امراته بأنه في ضيق مالى منكر ؛ لأن شركاه قد أسلموه وأجمعوا على خيانته . وكان زعيم هذه الخيانة « جامانى » الذى رأيناه فى الفصل الأول يريد أنتوانيت على السوء وينصرف محققاً لأنها امتنعت عليه . والرجل لا يتبين سبب هذه الخيانة ، أما نحن فنعرفه حق المعرفة . ومهما يكن من شيء فإن صاحبنا مضطر إلى نصف مليون من الفرنكات يجب أن يؤديه بعد ثمانية أيام ، وقد سلك إلى هذا المقدار

كل سبيل فلم يظفر به . وهو إن لم يؤده مفلس ثم مقبوض عليه ثم ملقى في غيابات السجن . . .

يقص هذا كله على امرأته وهي تسمعه في شيء يشبه الهدوء ، ولكنه يدل على ثورة عنيفة داخلية . وانظر إليها وقد تغيرت تغيراً تاماً ؛ فهي تشجع زوجها وتنصح له بالجلد والمضى في الجهاد ، وتعلن إليه أن ثمانية أيام ليست بالشيء القليل ، وأنه واجد فيها مخرجاً من هذا الضيق ، ويقع هذا الكلام من قلب الرجل موقعاً حسناً ، ويمنحه قوة وجرماً فيعد باستئناف الجهاد . وانظر إليه وقد نهض قوياً مستعداً للحرب ، وانصرف إلى باريس وترك زوجته في شيء يشبه الدهول . ينصرف الرجل وتغلق الباب من ورائه ، وإذا صديقتها قد أقبلت يتعجلها ، فتعلن إليه أنها لن تسافر الآن . ويكون بينهما حوار عنيف ، نفهم منه أن هذه المرأة كانت تظن أنها ستدع زوجها غنياً قوياً يستطيع أن يتعزى عن الحب بالثروة والقوة . فأما الآن وقد أعدم وضعف فلا يستطيع أن تدعه . وهي تحب صاحبها ، ولكنها تطلب إلى هذا الحب أن يمهلهما حتى يسترد زوجها قوته وثروته . ولكن الحب عجل لا يمهل ، وصاحبها يعان إليها في عنف أنه منصرف عنها إلى حيث لن تراه ، وأنها لم تحبه كما يحبها . وانظر إليه وقد ولى منصرفاً . واستولى الجزع على هذه المرأة ، فهي لعبة بين الحب وشهوته ، وبين الواجب وأمره الذي لا يرد . إنها تدعو صاحبها ملحة عليه ، فإذا أقبل عليها تضرعت إليه في أن يبقى فيأبى ، وإذا هي قد

غيرت من خطتها فجاءة وضحت بالأمانة الزوجية في سبيل الحب من ناحية
وفي سبيل الوفاء لزوجها والإشفاق عليه من ناحية أخرى ، وإذا هي تلتقي
بنفسها بين ذراعي صاحبها وقد استسلمت للإثم .

* * *

وتمضى من الأيام الثمانية سبعة ولم يجد الرجل لنفسه مخرجاً من ضيقه .
ونحن الآن في مصرفه وقد أقبل يائساً مستسماً مستعداً للافلاس
والمحاكمة والسجن . وأقبل عليه صديقه « دوراي » ينبئه بأنه قد سعى
عند كثير من الممالين فلم يوفق لشيء ، ولكنه وفق أخيراً لرجل لا يعمل
في المال ولا في البورصة ، ولكنه مستعد لتقديم هذا المقدار ، وسيأتي
بعد حين ليعرض المال على صديقه . وهذا الرجل هو « رينه دانجين » .
فإذا سمع صاحبنا اسم هذا الرجل أخذه غضب شديد وأعلن أنه لن
يقبل منه هذه المعونة . فاذا دهش صديقه لذلك أعلن اليه بعد تردد
أن هذا الرجل قد أكثر التردد على قصره والتقرب من زوجته وقد عرف
الناس ذلك وتحدثوا به ، فإذا عرف الناس أنه قد أعانه فسيتحدثون
أنه قبل هذه المعونة ثمناً لما بين الحبيبين من صلة . وهنا يغضب
« دوراي » ويقف موقفاً بديعاً في الدفاع عن « أنتوانيت » فهو مؤمن
بطهارتها ، مؤمن بأنها لم تخن زوجها وما كانت لتخونه حتى تفارقه .
وهو يمضى في هذا الدفاع إلى أبعد حد ممكن ، فيعلن إلى صديقه أنه
إن كان قد وصل إلى هذا الحد من الضيق فذلك لأن امرأته امتنعت

على « جامانى » ويعلن الى صديقه أنه هو قد حاول أعواماً أن يصل إلى « انتوانيت » فلم يظفر منها بشيء . وقد كاد يقنع صديقه ببراءة زوجه وطهارتها ، وكاد يقنعه بأنه يستطيع أن يقبل هذه المعونة ، وقد دعا الخادم وأمره أن يتحدث الى زوجه فى التليفون يطلب اليها أن تخضر ، وأقبل الرجل يعرض معونته ، فإذا خلا إلى صاحبنا طلب اليه هذا : أنتستطيع أن تقسم لى بشرفك أنى أستطيع أن أقبل هذه المعونة منك دون غضاضة أو تعرض للدنية ؟ فيقسم له ويهيه « الشيك » ويهيه هو صكاً بهذا المقدار .

وتقبل « أنتوانيت » ، فينبهها بأنه قد أخفق فى سعيه كله ، ولكن هذا الرجل يعرض عليه ما هو فى حاجة اليه . فتحاول أن تشكر الرجل مضطربة وقد تم كل شيء ، ولم يبق إلا أن يمضى صاحبنا الصك . ولكنه يتجه إلى امرأته وصاحبه قبل أن يمضى ويسألها فى قوة وإلحاح : أيمضى هذا الصك ؟ فأما الرجل فيجيبه : نعم . وأما المرأة فيأخذها الإغماء . وأما صاحبنا فقد فهم كل شيء . وانظر إليه محنقاً قد ألقى ما فى يده وأخذ ينتهر الآثمين فى شدة وعنف ، وما زال بالرجل حتى أخرجه وهو الآن أمام امرأته وحدها يأمرها أن تنصرف فتستعطف فلا يزيد استعطافها إلا سخطاً وحنقاً . ومع ذلك فالرجل فى محنة منكورة وقد جاهد أسابيع وضعف عن المقاومة ، وهو فى حاجة إلى من يؤيده ويشد أزره ويعينه على هذه الأيام المرة التى يستقبلها . فانظر اليه وقد عفا

أو كاد يعفو عن امرأته ، ولكنه يريد منها أن تنصرف عن هذا الرجل وتنساه وتبقى له هو وحده ويسألها أتستطيع ذلك ؟ فلا تجد إلى جوابه سبيلاً . فإذا ألح عليها في السؤال عرف منها أنها لا تستطيع . فانظر إليه ضعيفاً مستسهماً مغضباً مع ذلك شريفاً ، يطرد زوجته وهي تآبى عليه ، وتعرض عليه ما تستطيع من أن تعيش معه حليفة معينة ولكن في غير حب ، لأنها لا تملك هذا الحب ، ولا تستطيع إخضاعه لإرادتها . وهو يآبى عليها ويلج في طردها ، فتنصرف معلنة إليه أنها ستنتظره في البيت ، فإذا تركته نهض إلى أبواب الغرفة فغلقها ، ثم يعود إلى مكتبه ويخرج منه مسدساً ويرتب طائفة من الأوراق ، وقد طرق الباب فكان جوابه طلبة المسدس التي تختم بها مثل هذه القصص .

يناير سنة ١٩٢٧

الشاب المحبيل

قصة تمثيلية فكاهية للكاتب الفرنسي « الفريد كايو »

هي إحدى هذه القصص التي يتقنها كبار الكتاب الفرنسيين ، والتي تقرأها أو تشهدها فتشعر بشيء كثير من الراحة لقراءتها أو رؤيتها ، وتشعر بأن الكاتب لم يتكلف جهداً ولا مشقة حين كتبها ، بل تشعر بأن الكاتب قد استراح إلى كتابتها ، ووجد من اللذة في تنسيق فصولها ومناظرها مثل ما تجد أنت في قراءتها أو النظر إليها . بل تشعر بأن الكاتب قد ابتسم عند ما خطر له موضوعها ، ونشط للكتابة في هذا الموضوع فأخذ قلمه باسماء ، وظل يكتب باسماء ، وانتهى من الكتابة ولم تفارقه بسمته ، أو قل انتهى من الكتابة وهو يضحك . على أنك تشعر فوق هذا كله بأن ابتسامه الكاتب وابتسامتك أنت حين تقرأ القصة أو تشهدها ليست ابتسامه حلوة كلها وإنما تشوب حلاوتها مرارة ما . ليست ابتسامه عبث ، ولا ابتسامه سخرية ، وإنما هي إحدى هذه الابتسامات التي تمثل الأمرين جميعاً : فيها العبث لأن بين الأشخاص وفي أخلاقهم وحركاتهم ما يدعو إليه . وفيها السخرية لأن في هذه

الأخلاق والحركات ما يحمل الرجل المستقيم ذا المزاج المعتدل على أن يهز كتفيه . وفيها إلى هذا العبث وهذه السخرية شيء من الألم الهادئ والأمل الذي يخلق بالفيلسوف ؛ لأن هذه الأخلاق والحركات — على أنها خليفة بشيء من الازدراء وعلى أنها شائعة وعلى أنها قوام الحياة — ليست خالدة جامدة ، ولا عسيرة مستعصية على الإصلاح ؛ فهي منكرة بعض النكر ، ولكنها قابلة لأن يعتدل منحرفها ويستقيم بعض ما فيها من العوج .

تجد هذا كله حين تقرأ القصة أو تشهدها . وتشعر بشيء من الغبطة والرضا والحاجة إلى أن تشكر للكاتب أنه قد أرضاك وأهلك دون أن يثير في نفسك هذه الانفعالات الحادة التي تثيرها القصص المحزنة ، ودون أن يسلط عليك هذا الضحك العنيف الذي تبعثه القصص المضحكة بالمعنى الذي يفهمه الممثلون لهذه الكلمة ، وإنما أرضاك وأهلك في هدوء ودعة ، أو قل إنه حقق ما أنت محتاج إليه من هذه الراحة التي يطمع فيها العاملون وقد أنفقوا يومهم في الجهد والمشقة .

ثم أنت واجد في هذه القصة ناحية من الحياة الفرنسية قلما تجدها فيما ألفت قراءته ورؤيته من القصص التمثيلية ، وهي حياة طائفة من أهل الأقاليم . ولكاتبنا هذا عناية بأهل الأقاليم نعرض عليك منها نموذجاً في هذا التلخيص ، ونرجو أن نعرض عليك منها نموذجاً آخر في غير هذا الفصل . ثم أنت واجد في هذه القصة ما تجده في قصص

هذا الكاتب جميعاً من هذا المذهب الفلسفي الذي يقوم على المصادفة
ويضيف إليها الأثر الأكبر فيما يملأ الحياة من عمل ، وما يعترض الناس
من خطوب .

ولقد أحب أن أسلك في هذه القصة نفس الطريق التي تعودت أن
أسلكها في القصص الأخرى ، فأقدم إليك أشخاصها في شيء من
الإيجاز . ولكنني أشعر بأن هذه المقدمة لن تكون قوية ولا خلاصة لأن
الأشخاص في أنفسهم ليسوا أقوياء ولا خلابين . وأشعر أيضاً بشيء
من الخوف لأنني أحس أنني سأتورط في تقصير شديد عن أن أبعث في
نفسك مثل ما بعث الكاتب في نفسي من الراحة والرضا والابتهاج .
ذلك لأن لذة هذه القصة وأمثالها تأتي من اللفظ في كثير من الأحيان ،
وتأتي من اللفظ لنفسه أي من حيث يصعب أن يترجم وينقل من لغة
إلى لغة . ولكنني على هذا كله مجتهد في تلخيص هذه القصة .

وإذا لم يكن بدء من تقديم هؤلاء الأشخاص فلابدأ بأشدهم قوة
وأعظمهم أثراً فيها ، وهو « فالنتين بريدو » شاب في الثامنة والعشرين
من عمره ، وسيم الطلعة حين تقع العين عليه ، ولكنه ليس بالجميل حقاً
إذا أحسنت التحديق فيه ، قد ظفر بالشهادة الثانوية في الآداب ، وهو
إذا تكلم أو كتب خيّل إلى من يسمعه أو يقرؤه أنه عظيم الحظ من
العلم ، كاتب متحدث منطلق اللسان ، فاذا حقق النظر فيه ظهر أنه
ليس شيئاً أو لا يكاد يكون شيئاً . هو ، كما يقول الكاتب ، من هؤلاء

الأشخاص الذين يعجبون النساء لأن عليهم سمة الجمال ولهم مظهر الذكاء ،
وليسوا بالحسان ولا الأذكاء ، وهو مدير لمكتبة المدينة التي يعيش فيها ،
يتقاضى راتباً ضئيلاً ولكنه ضخم بالنسبة إلى مدن الأقاليم . وهو بطبيعة
الحال شديد الإعجاب بنفسه ، شديد الطمع ، شديد الازدراء للناس ،
مقتنع كل الاقتناع بأنه يشهد عصر انتقال يفنى فيه جيل وينهض فيه
جيل آخر . فأما هذا الجيل الفانى فقد استنفد قوته وأصبح غير صالح
للبقاء . وأما هذا الجيل الناهض فهو ممتلئ قوة ونشاطاً ، ولكن الشيوخ
يأخذون عليه الطريق ولا بد له من أن يقهرهم . وصاحبنا ساخط
لا يرضى عن حاله ولا يطمئن إلا إذا ظفر في باريس بالمكانة التي تلاممه .
وله في مكتبته رفيق يعينه ، متوسط ، دمى الخلق ، ساذج الطبع ،
راض بما قسمه الله له ، حريص على مكانته ، جاد في طاعة النظم
والقوانين ، منكر على صاحبه طيشه ونزقه وطعمه .

ثم شخص آخر هو جونيل فى السادسة والأربعين من عمره ، ضخم
الثروة معتدل المزاج ولكنه لا يخلو من طمع ، يريد أن يكون عضواً
فى مجلس الشيوخ ، وهو مخالف للحكومة القائمة فى الرأى ، على أن ثروته
وجمال امرأته يشجعان على الطمع فى الانتصار على مرشح الحكومة .
ولهذا الرجل امرأته كلوتيلد شابة جميلة ، معتدلة المزاج أيضاً ،
شديدة البغض للسياسة والانتخابات والأعمال العامة ، لا تطمع إلا فى
أن يبقى لها زوجها منقطعاً إليها يلهيها ويمتعتها بثروته الضخمة . وهى تبذل

ما تملك من جهد لتصرف زوجها عن مجلس الشيوخ ، وهي تنذره بالخيانة إن أصبح شيخاً ؛ لأن ذلك لا يلائم منها ، ولأن بين الناس من يتملقها وقد وعدته بالإسماح له يوم يصبح زوجها شيخاً . ولكن زوجها يأبى إلا أن يكون شيخاً ، ولا يأبى على نفسه التفكير في أنه قد يصل إلى الوزارة . وهو مطمئن إلى زوجه لا يحفل بوعيدها ، ولا يشك في أنها وفية له مهما يكن من شيء .

وهناك فتاة أخرى مارت أو برى معلمة في المدينة ، رائعة الجمال ، طيبة النفس ، مستقيمة الخلق ، أدركها اليتيم هي وأختها ولما يتمّ تعليمهما فضتا حتى أتمتاه . فأما أختها فأثرت العاجلة وانطلقت مع أول رجل غنى عرض عليها الترف والثروة . وأما هي فأثرت الاستقامة والحياة الشريفة ، وقنعت بمنصب المعلّمة في إحدى مدن الأقاليم . وهي تحب « فالنتين برينو » مدير المكتبة هذا الذي قدّمته لك منذ حين ، وهي تطمع في أن تقترن به ، وهي تتردد على المكتبة في كل يوم تزعم أنها تريد البحث في دائرة المعارف ، ولكنها لا تريد في حقيقة الأمر إلا أن ترى هذا الشاب يحبها ولا يكره أن يقترن بها ، ولكنه يحب قبل كل شيء أن يظفر بمكانة تلاميّه في باريس .

وهل تحب أن أتم هذه المقدمة فأذكر لك هذا الشخص الأخير الذي سنراه في الفصلين الثالث والرابع ، وهو بلوك مدير مكتب للتخديم يعرف كل شيء ، ويسعى في كل شيء ، ويقدر على كل شيء وإن

كان في حقيقة الأمر لا يعرف شيئاً ولا يكاد يقدر على شيء .
هؤلاء هم الأشخاص ، وهم كما ترى ، عاديون لا يمتاز أحدهم بشيء ما ،
ولا يمكن أن تكون القصة التي تقع بينهم إلا عادية هادئة لا أثر فيها
للافعال الحاد ولا للضحك العنيف .

فأما الفصل الأول من هذه القصة فيقع كما قدمنا في مدينة من مدن
الأقاليم . ونحن إذا رفع الستار في المكتبة ، وأمامنا مساعد المدير
كأنه يرتب كتباً . على أننا لا نلبث أن نشعر أن هذه المكتبة
كغيرها من مكاتب المدن فقيرة كل الفقر ، لا تكاد تشتمل إلا على
دائرة المعارف وبعض الكتب أو المجلدات السياسية . وقد دخل
خادم مأمور المركز ، يطلب مدير المكتبة ليحجبه سيده ، وهو يعلن
في ثرثرة ظريفة أن المأمور مغضب لأن مدير المكتبة قد كتب في
صحيفة المدينة فصلاً سياسياً عَصَدَ فيه مرشحاً في مجلس الشيوخ معادياً
للحكومة وذم فيه مرشح الحكومة وهو قريب المأمور . ولا يكاد
يخرج الخادم حتى يأتي مدير المكتبة ، فاذا هو كما قدمنا فتى ظاهر
الرشاقة واللباقة ، ولكنه في حقيقة الأمر ليس شيئاً لولا أنه شديد الطمع
قوى الإرادة . فاذا أُخبر بأن المأمور يدعو وأنه مغضب منه لم يحفل
بذلك ، وإنما أخذ يحدث صاحبه عن الفصل الذي كتبه في صحيفة
« المستقبل » وهاجم فيه قريب المأمور في قوة وعنق ودافع فيه عن

خصمه دفاعاً شديداً . فاذا سأله صاحبه : فيم هذا الهجوم ؟ أنبأه بأن قريب المأمور هذا قد ذكره بسوء فيما بلغه ، وأنه لا يعرف خصمه ، ولكنه مع ذلك يؤيده ويبدل في ترشيحه ما يملك من قوة . ويكون بين الرجلين حوار نفهم منه أن أحدهما وهو المدير يتحرق شوقاً إلى باريس لعلمه يظفر فيها بما يريد من هذه المكانة العالية ، وأنه واثق بالوصول إلى ما يحب ، فكل شيء يدهه على ذلك : انظر إلى هذا الجيل الذي يريد أن ينقضى كيف ضعف واضمحل ، وكيف عجز وانحل ، وكيف أخذ الفساد يعمل فيه من كل ناحية ، فلا خلق ، ولا قوة ، ولا إرادة ، ولا مهارة ، ولا استقامة في الأعمال . وهذا مأمور المركز : ما قيمته !! وماذا عمل وهو يخدم الحكومة منذ خمس عشرة سنة ؟ وهذا المدير أظنه وصل إلى منصبه لولا أنه أصهر إلى سكرتير الوزير ! والأمر كذلك في جميع طبقات هذا الجيل وفي أنحاء الحياة الاجتماعية كلها : جيل يفنى ، وجيل آخر ينهض . وهذا الجيل الناهض منتصر من غير شك ؛ ففيه حب الحياة وطموح إلى الرقي ، وفيه قوة على الجهاد وصبر على المكروه ، وفيه نبوغ واستعداد للنبوغ . انظر إلى صاحب الصحيفة التي تصدر في هذه المدينة ، لقد عرض على الفتى المدير ١٥٠ فرنكاً في الشهر على أن يكتب لصحيفته فصلاً في كل يوم . فهو إذاً يستطيع أن يعيش خارج المكتبة ، وهو يستطيع أن يغضب المأمور . هذا كله في الأقاليم ، فكيف به لو ذهب إلى باريس !

أما صاحبه فهادىء معتدل قانع فيلسوف ، ينصح لرئيسه بالهدوء
والدعة والرضا بما هو فيه ، وينصح له بنوع خاص بالألا يلتمس في الحياة
إلا هذه السعادة الهادئة العادية . وما له لا يفكر في هذه الفتاة المعلمة
التي تحبه وتتردد على المكتبة من أجله ، وتتمنى أن تكون له زوجاً !
أليس هو يحبها أيضاً ؟ ! بلى !! هو يحبها ، ولكنه لا يتعجل هذه
السعادة ، وإنما يريد أن يصل إلى الثروة والمكانة قبل أن يفكر
في الزواج .

فأما وقد تحدث الرجلان في الحب ، فلم يكن بدُّ لصاحبنا المساعد
الفيلسوف من أن يذكر حبه أيضاً ؛ فهو أيضاً يحب ، ولكنه يحب من
من غير أمل . يحب امرأة لا يعرفها ولا ينتظر أن يعرفها ، رآها مرة
في باريس وقد كان يمشى الهويناً في الغابة فإذا هي تنزل من عربتها وإذا
منديلها يسقط فيلتقطه هو ويدفعه إليها فتأخذه شاكرة ، وهذا يكفي
ليذكي في قلب صاحبنا للحب جذوة متوقدة . وصاحبنا فيلسوف يحتمل
هذه الجذوة وما لها من لذع ، ولكنه يعلن أنه إن رأى هاتين العينين
السوداوين مرة أخرى فلن يستطيع أن يضبط نفسه ولن يكون له على
حبه سلطان .

وهذه الفتاة المعلمة قد أقبلت تكلف مساعد المكتبة أن يُعدَّ
لها جزءاً من « لاروس » لتتنظر فيه بعد حين . ولكنها رأت
المدير فتتحدث إليه ، ويدعوها هو إلى مكتبه ليظهرها على بعض

الصحف التي وصلت من باريس فتمتنع عليه . فإذا سألتها لماذا ؟
أجابته : لأنني إن تبعتك إلى المكتب حاولت أن تقبلني كما حاولت
في المرة الماضية ، فأمتنع عليك فنتعاضب . وفيم نتعاضب ونحن صديقان !
على أنني لا أكره أن تقبلني بل قد أجد في ذلك سعادة ولكن قبل أن
اسمح لك بهذه اللذة ولنفسى بهذه السعادة يجب أن تخطبني ، ويجب
أن أعرف متى نقترن ، ولِمَ لا نقترن ؟

فإذا ذكر لها طمعه في الثروة والمكانة دهشت وأعلنت إليه أنها
راضية بمكاتها ومكانته ، وأنها ترى أنهما يستطيعان أن يعيشا
سعيدين ، وأخذت ترغبه في الزواج وتذكر له أموراً من شأنها أن
تشجعه عليه ومن هذه الأمور أنها تحبه . ولكنه مصر على الثروة قبل
كل شيء ، فتدعه على أن تعود لتنظر في دائرة المعارف . وما تكاد
تخرج حتى يأتي « جونيل » هذا الرجل الغني الذي يرشح نفسه لمجلس
الشيوخ ، يأتي لأنه قرأ الفصل الذي نشره الفتى في الصحيفة فجاء
شاكراً . وما هي أن يرى الفتى ويتحدث إليه حتى يعجب به فيعرض
عليه أن يكون سكرتيه ، وأن يرافقه إلى باريس . ولا يحتاج إلى
الإلحاح على الفتى في ذلك فقد قبل الفتى . وما له لا يقبل وهو سيذهب
إلى باريس ، وسيعمل في السياسة ، وسيكون يد هذا الرجل اليميني حتى
يصل إلى مجلس الشيوخ ثم إلى الوزارة . ومن يدري ! ماذا يجني هو
في أثناء هذا كله ! على أن صاحبنا الشيخ ينبئه بأنه يخوض غمار

الانتخابات على كره من زوجه فهي لا تحب السياسة ، ولكنه واثق
بالانتصار عليها ، وهو يعلم أن امرأته ستغضب حين تعلم أنه قد اتخذ له
سكرتيراً ولكن غضبها لن يطول فهو يوصى الفتى بالأناة والرفق . أما
الفتى فقد قبل كل شيء وهو يترك صاحبه ليكتب الاستقالة . ولا يكاد
يخلو إلى نفسه حتى تأتي امرأته ، فإذا هي ، كما قد منا ، شديدة السخط
على السياسة ، شديدة البغض لاندفاع زوجها فيها . ولا يكاد زوجها
ينبئها بأنه اتخذ له سكرتيراً حتى تثور . ولكن السكرتير قد أقبل وقد
نظرت إليه فتحس أنه وقع من قلبها ، وهي تتلقاه متكافئة بعض
الفتور ، وتدعوه إلى العشاء متكافئة بعض الفتور أيضاً .

وينصرف الزوجان وتعود الفتاة المعلمة ، فلا تكاد تتحدث الى
صاحبها وتعلم باستقالته واعتزازه السفر الى باريس حتى يأخذها الحزن
والجزع والاضطراب ، وهو يهدئها ويخطبها ويعدها ، ولكنها لا تحفل
بذلك ولا تكاد تصدق منه شيئاً . وهي تدع صاحبها وتنصرف إلى
الكتاب تريد أن تنظر فيه فلا تستطيع . وأنى لها ذلك وقد ملكها
الاضطراب فهي لا ترى إلا صاحبها ، ولا تفكر إلا في سفره . وهي في
ذلك وإذا امرأة تدخل وتسعى في خفة حتى تصل إليها فتقبلها ، فإذا
التفتت رأت أختها « بوليت » وهي لم ترها منذ سنتين ، منذ انقطعت
هي الى التعليم ومضت الأخرى مع أول رجل غنى لقيها . وأختها تنبئها
بأنها كانت مسافرة معه الى نيس ، حتى إذا وصلا الى ديجون ذكرت

أختها فقالت له يجب أن يفترق هنا لأرى أختي وسألتك آخر النهار .
فإذا سألت ، أختها من هو ؟ أجابت : هو ! هو الذي تعرفينه ، هو
جوستاف ! على أنى سألقاه آخر النهار ، ولم أشأ أن أصطحبه حتى لا
أعرضك لسوء القالة . فإذا سألتك عنى أحد فتولى إني معلمة فى باريس
وأنت تذكرين أنى كدت أكون معلمة فى باريس لولا أن وصل
جوستاف . كلا ! لم يكن جوستاف ، وإنما كان ادوار . ثم تمضى فى هذا
الحديث السريع حتى تسأل أختها عن حالها ، فما أسرع ما تتبين أنها
محزونة ! وما أسرع ما تفهم سبب هذا الحزن ، وما أسرع ما يظهر حبها
لأختها وحماسها فى الدفاع عنها . وبينما أختها تجذبها للخروج من
المكتبة إذ يقبل مدير المكتبة ، فما أسرع ما تعرف هذه المرأة أنه هو
الذى تحبه أختها ، فتأخذ فى لومه وتعنيفه وترغيبه عن باريس .

وإذا كان الفصل الثانى فنحن نراه جالسا إلى المنضدة وفى يده القلم
وصاحبه الشيخ يملى عليه بدء منشور انتخابى . ولكن الرجل لا يكاد
يقوم الجملة الأولى من المنشور ، فهو يتردد ويضطرب ويستأنف القول
ثم يعيده ثم يستأنفه دون أن يستطيع التقدم . فيعرض عليه كاتبه أن
يفعلا كما فعلا فى المرة الماضية . فما أسرع ما يقبل مسرورا ، وإذا هو قد
جلس إلى المنضدة وأخذ القلم ونهض الكاتب فأخذ يمشى فى الحجره
ممليا ، وإذا الكلام متصل مستقيم ، والجمل يتبع بعضها بعضا فى غير

تردد ولا اضطراب ، والشيخ راض مبتهج يلعن في سداجة أنه لا يحسن الكتابة إلا إذا جلس هو وأخذ القلم ومشى كاتبه وأملى .
وهما في ذلك وإذا امرأته قد أقبلت ، فإذا رأت ذلك دهشت وأخذها شيء ، من الضجر لم تحاول قط إخفاءه . ثم تأخذ في لوم زوجها على السياسة ودخوله فيها ، وتساله عن حفلة راقصة يريدان إقامتها : أتكون في الرابع عشر أو الخامس عشر من الشهر ؟ فيتردد ثم يذكر أن بينه وبين الناخبين موعداً في هذين اليومين ولكنه لا يعرف أيهما ، ثم يلتمس كتاب الناخبين إليه فلا يجده فيذهب كاتبه للتماسه . ولا يكاد يخلو إلى امرأته حتى تطلب إليه أن يُقيل هذا الكاتب ، فيعاتبها لأنها تلتقي هذا الشاب بفتور بعد أن كانت قد لقيته أول الأمر في شيء من الظرف واللطف . ولكنها تلح عليه فيأبى . ونفهم من حديثهما ومن إلحاحها أن بينها وبين هذا الفتى حباً أو شيئاً يشبه الحب ، وهي تريد ألا تصل إلى خيانة زوجها . ولكن الرجل سليم القلب لا يفكر إلا في السياسة والانتخاب ومجلس الشيوخ . فإذا أبى عليها ويئست منه تركته وجاء الفتى ، وهما باستئناف العمل ، ولكن مُعين الفتى في المكتبة قد جاء فتركهما الشيخ على أن يستأنف العمل بعد حين . وما هي إلا أن يتحدث الفتى إلى مساعده القديم حتى نفهم أنه قد رأى العينين السوداوين مرة أخرى : رأها هناك في المكتبة في ذلك اليوم المشهود يوم كانت المعاملة تنظر في الكتاب فجاءت أختها . هو إذاً عاشق

لأخت هذه المعلمة ، وقد كان صادقاً حين أعلن أنه لن يملك نفسه إن رأى عينيها مرة أخرى . وقد رأى عينيها بل جلس معها إلى مائدة المعلمة ففقد الرشد أو كاد ، واستقال على كل حال وأقبل إلى باريس ولن يفارقها . وهو سىء الحظ ؛ فقد ذهب إلى دار هذه الفتاة واستأذن عليها فتركته ينتظر نحو الساعة ، ثم خرجت ومعها ثلاثة رجال فمرت به مسرعة وهي تقول : إذا لقيت أختي فبأغها تحيتي . وهو سىء الحظ ؛ فقد التمس العمل فلم يظفر بشيء ، وذهب إلى « بلوك الخدم » وبينهما صلة ، فأبى هذا الرجل أن يلقاه . فلما ألح عليه أمره بالعودة إلى الإقليم . وصاحبه الفتى يأمره بمثل هذا ، ويضرب له موعداً بعد ساعات ليطعما معاً على أن يسافر هو بعد العشاء . أما هذا الرجل فيقبل الموعد ويقبل العشاء ولكنه يرفض السفر . وقد خرج وجاءت امرأة الشيخ ، فأنبأت الفتى أن زوجها قد خرج يتروض ، وأنها تريد أن تتحدث إليه ، ثم أعلنت إليه في صراحة أنها قد طلبت إلى زوجها إقالته فرفض . وإذا فهي تطلب إليه أن يُقبل نفسه لأنها تحب زوجها ، وتكره أن يعاشرها ثالث . أما هو فيعدها بالاستقالة والسفر ، ولكنه ينتهز هذه الفرصة التي لن يراها بعدها ليعلن إليها في صراحة أيضاً أنه يحبها حباً لا حد له ، وأنه لو شاء لأظهر لها هذا الحب ، ولكنه أراد أن يكون رجلاً شريفاً فكتم حبه ، فأما الآن وسيفارقها فراقاً لا لقاء بعده فلا جناح عليه أن يعلن إليها هذا الحب . فإذا أرادت أن تأخذه

بالصمت مضي في الحديث وأعلن إليها أنها شجعتة على هذا الحب .
أليست قد اعتمدت على يده مرة في الملعب وبقيت معتمدة عليها
ما استمر التمثيل !! أليست قد التصقت به التصاقاً مرة في العربة يوم
عادا إلى البيت منفردين !! فلو لم يكن رجلاً شريفاً لانهز إحدى
هاتين الفرصتين وأعلن إليها حبه ، ولكنه لم يفعل ، وهو إذ يفارقها
لا يؤلمه إلا أنها ليست وفية لزوجها . فإذا أخذت تنكر عليه ذلك
أخذ يتهمها بأنها تحب فلاناً وتداعب فلاناً حتى تضيق به ذرعاً فتعلن
إليه أنها لم تخن زوجها ، ولولا حرصها على الوفاء لزوجها لما طلبت إليه
الرحيل ، ولكنها تحبه وتخشى إن أقام أن تقع في الإثم . فإذا سمع هذا
فهو سعيد ، وهي أيضاً سعيدة ، وهي لا تتعجله في السفر بل تطلب
إليه البقاء ولكنها قلقة . أما هو فخرىء ! أنظر إليه يسرع إليها يريد
أن يأخذها بين ذراعيه ، ولكنها تتحرج وتأبى عليه إلا حباً بريئاً ،
ولا تسمح له إلا بقبلة بعينها يضعها بين شعر رأسها لا يتجاوز هذا الشعر .
وإنه لفي هذه القبلة إذ يحسان حركة فيفترقان ، وإذا الزوج قد أقبل ،
فتلقاه متبسمة ، وتعلن إليه أنها قرأت بعض منشوراته الانتخابية
فرضيت عنه . وهو يتهيج حين يراها مسرورة راضية . ولكنه لم يقبل
وحده بل أقبل ومعه أحد الناخبين ، فهو يدعو سكرتيره ليتحدثا مع
هذا الناخب . وتخلو المرأة إلى نفسها فتجلس مفكرة وفي يدها ورق
كأنها تنظر فيه . وبينما هي في ذلك إذ يقبل زوجها دون أن تحسه .

فإذا نظر إليها جالسة هكذا راقته فسمى إليها في خفة ورشاقة حتى يضع شفتيه من شعرها حيث كان الآخر قد وضع شفتيه. أما هي فقد أحست شفتيه في شعرها فلم تفكر إلا في صاحبها ، وإذا هي تقول له : فالنتين ! أنت مجنون . . . إن زوجي يستطيع أن يأتي الآن . قدّر أنت وقع هذا الكلام في نفس الشيخ حين يسمعه .

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في مكتب الخدم « بلوك » وأنا أعفيك من وصف هذا الخدم وأعماله وأعوانه . ولكننا نرى في مكتبه مساعد المكتبة الذي رأيناه في أول القصة ، وقد أقبل الآن يلتمس عملاً ، والخدم يأبى أن يلقاه ، حتى إذا ألحّ دفع إليه بعض النقد وصرفه وأخذ في عمله . وإذا « كلوتيلد » زوج الشيخ قد أقبلت تستأذن عليه فإذا أذن لها أنبأته بأنها تلتمس شاباً يقال له « فالنتين بريدو » وقد جاءت تستعين به على أن تلقاه وقد افتقدته منذ شهرين ، فيعدها خيراً ويطلب إليها صورته الفتوغرافية . فتنصرف لتأتى بها ، ويأتى مكانها « فالنتين بريدو » نفسه يطلب عملاً . فإذا سأله الخدم عما يحسن قال إنه نال البكالوريا ، ولكن البكالوريا لا تفيد شيئاً ! وإن عند هذا الخدم من العمال والأعوان أشخاصاً نالوا البكالوريا في العلوم والآداب ، ولكن باريس قد ضاقت بهم ، وإنه ليعرف قوماً معهم الليسانس في الحقوق وهم يقودون عربات النقل ، ثم أخذ يبحث في دفاتره فلم يجد

ما يعرضه على هذا الشاب إلا عمل خادم عند رجل يحزم الأمتعة ،
فيأبى الشاب . ولكنه قد وقع من نفس الخدم وأعجبه ، فأخذ الخدم
يعرض عليه العمل عنده ويطلب إليه أن يبدأ فيبحث عن فتى يقال له
« فالنتين بريدو » . فإذا سمع الفتى اسمه دهش وقال : غداً سأتيك
به آخر النهار . وقد تركه الخدم لبعض عمله وأقبلت « كلوتيلد » فالتقيا
وتحدثا واطمأن كلاهما إلى صاحبه واستوثق كلاهما من حب صاحبه وكان
بينهما الميعاد . ثم ينصرفان ويعود الخدم تتبعه بوليت وأختها المعلمة .
ونفهم أن هذه الفتاة قد ضاقت بحياة الأقاليم ذرعاً بعد أن سافر خطيبها
إلى باريس ، فاعتزمت أن تترك التعليم وأن تعيش في باريس . وأقبلت
إلى أختها فلقيت عندها الشبان الأغنياء ، وأخذوا يعرضون عليها حياة
اللهو فترفض ، وهي الآن تلتبس عملاً شريفاً . فأما العلوم التي تحسنها
فالرياضة والتاريخ الطبيعي والرسم والموسيقى . ولكن هذا كله لا يغني
عنها شيئاً ، وكل ما يستطيع الرجل أن يعرض عليها إنما هو العمل في
مطعم حقير ، فتتردد ثم تقبل وتهمان بالانصراف . ولكن أختها قد
ألقت في أذن الخدم أنها لا ترضى بهذه الحياة لأختها ، وأنها تعلم حق
العلم أنها ما زالت تحب ذلك الفتى الذي عشقته هناك حيث كانت
معلمة ، وأن هذا الفتى في باريس ، وأنها تريد منه أن يلتمسه واسمه
« فالنتين بريدو » . وتخرجان ، ويأتي جونيل يلتمس عند هذا الخدم
سكرتيراً . وإنيما لفي الحديث إذ يهمس الخادم في أذن سيده أن الفتى

الذى استخدمه اليوم قد عاد يريد أن يخبره ببعض الأمر . وهنا يتنبه الخدم إلى أن هذا الفتى يستطيع أن يكون سكرتيراً لجونيل ، فيعلن إلى جونيل أنه قد ظفر له بما يريد ، ثم يأمر بإدخال الفتى فإذا دخل ورآه جونيل أخذته ثورة وغضب وصاح : هذا فالنتين يريدو ! هذا هو السكرتير الذى أقصيته ! ثم انصرف لا يلوى على شىء .

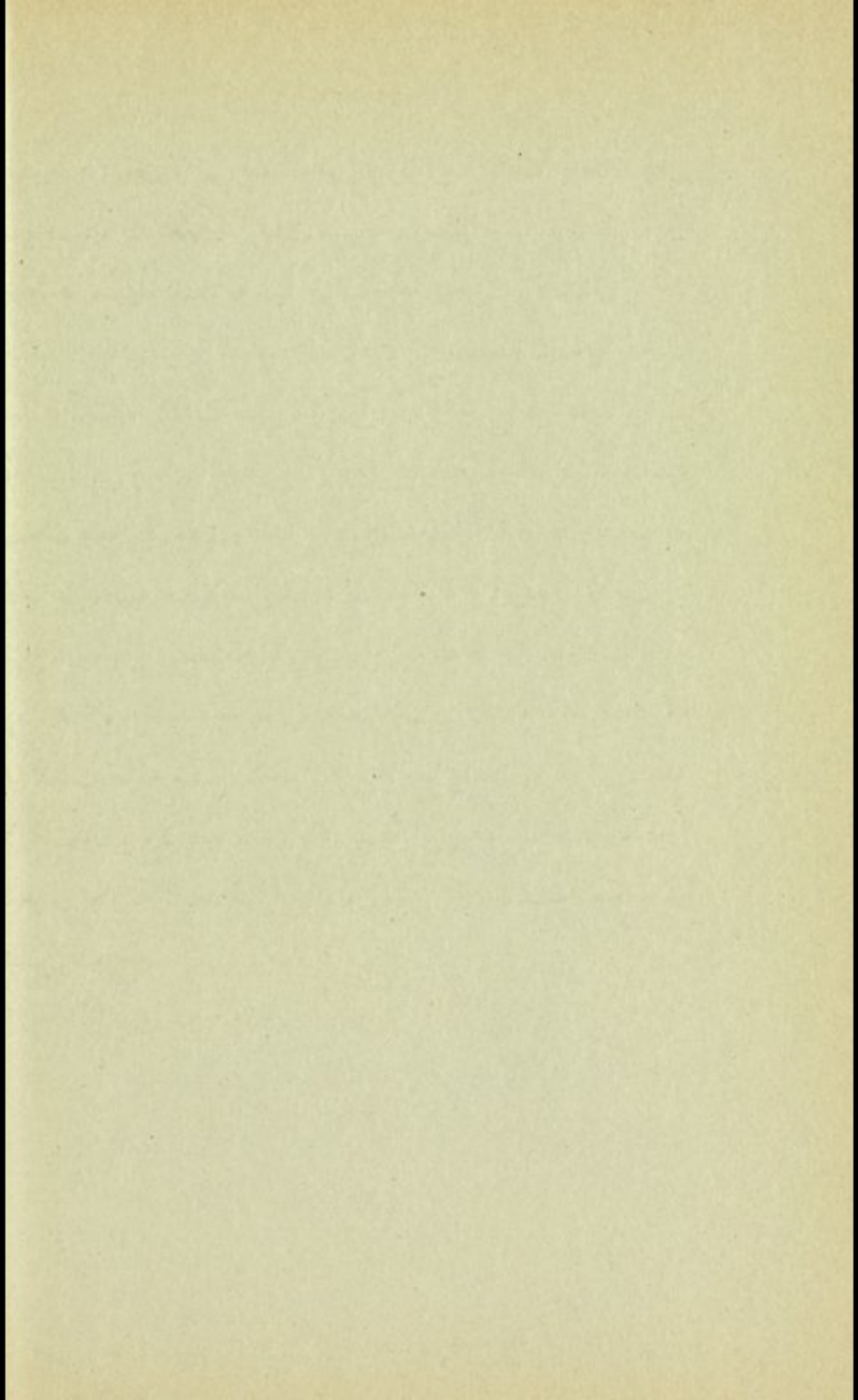
فإذا كان الفصل الرابع فنحن فى فندق حقير أو كالحقير حيث يقيم « فالنتين يريدو » وقد قبل أن يعمل عند حازم الأمتعة ليعيش . وقد اتصلت الرسائل بينه وبين « كلوتيد » وقد وعدته أن تزوره اليوم ، فهياً غرفته وزينها بالزهر ووضع فيها ألواناً من الحلوى وخرج لبعض أمره . وأقبل جونيل ومعه الخدم يلتمسانه . ونفهم من حديثهما أن جونيل قد ظفر فى الانتخاب وأصبح شيخاً . وهو يشعر بأنه مدين بهذا الفوز لهذا الشاب الذى رشحه وأيده وأعانه حتى بلغ ما بلغ من الفوز . وهو رجل وفى خَيْرٍ يريد أن يكافئ هذا الشاب على حسن بلائه عنده ، ولكن غياب الشاب قد طال ، فينصرف الشيخ على أن يعود . وقد أقبل الشاب بعد ذلك فيلقى مساعده القديم قد ساءت حاله إلى حد منكر ، وقد عاد إلى فلسفته الأولى واعتزم العودة إلى الإقليم . ولكن صاحبه يشجعه على البقاء فى باريس ، ويرى أن الحياة جهاد ، وأنه يجد لذة لا تعدلها لذة فيما يلقى من الألم فى عمله الجديد وما يستلزمه من

حمل الأثقال . . . وأى عظماء الرجال لم يشق في أول حياته ! وهو كذلك إذ تقبل « بوليت » . فاذا خلت إليه لامته وأنبأته أن أختها قد تركت التعليم ، وأنها قد أقبلت الى باريس ، وهي الآن تعمل في معمل حقير ، وهي واقعة في الإثم لا محالة اذا مضى في قطيعتها . فيذكي هذا الحديث في نفسه جذوة الحب القديم وكأنه كان نسيه ، فأما الآن وقد ذكره فقد ملأ هذا الحب قلبه نجاة ، وإذا هو يطلب إلى « بوليت » أن تشجع أختها وتدعوها إلى الصبر والاحتمال ، فما زال يحبها وما زال حريصاً على أن يتخذها له زوجاً . أما هي فقد عرفت أنه ما زال محبباً ، واكتفت بذلك وانصرفت

وتقبل « كلوتيلد » لميعادها ، وهي مضطربة مروعة ، فهي مقبلة على الإثم وخيانة زوجها ، وهي مقبلة في هذا الفندق الحقير وفي هذا الحى الذى لا عهد لها به . وبينما هي فى روعها واضطرابها إذا صاحبها فى اضطراب آخر ليس أقل من اضطرابها ؛ فقد ذكر المعلمة وحبها البرىء وزواجهما ، وتبين أنه لا يجب هذه المرأة ، وإنما هي فتنة عرضت له ثم انجلى غوايتها عنه قبل أن يتورط فيها . هو إذاً على بصيرة من أمره ، والمرأة على بصيرة من أمرها أيضاً . وانظر إليهما لا يكادان يبتدان الحديث حتى تقع بينهما الخصومة : عرض بزوجهما فغضبت له وأخذت تحمده وتذود عنه وتفخر بفوزه فى الانتخاب . وما هي إلا أن يحسباً جميعاً أن ليس بينهما حب ، وإنما هي فتنة قد خدعتهم ؛ وإذا فليتصالحا

وليفترقا صديقين لا شر بينهما ولا إثم ولا ريبة . وهما يفعلان وهي
تنصرف ، وإذا المعلمة قد أقبلت مبهجة ، ولكنها لم تكد تدخل الغرفة
وترى هذه المرأة منصرفة منها حتى عاودها اليأس . كانت أختها قد
أنبأتها أن الفتى ما زال لها محبباً ، فأسرعت إليه مستعدة للتضحية والجهاد
معاً . ولكنها ما كادت تصل حتى رأت امرأة تخرج من عنده ورأت
طاقات الزهر وألوان الحلوى . . . فهي ساخطة نائرة مزدرية لنفسها
تضحك وتبكي في وقت واحد ، وهو يستعطفها ويترضاها ويبسط لها
الأمر على جلسته فتصدقه أو تكاد تصدقه . وهما في هذا الحديث إذ
يقبل « جونيل » فيصافح الفتى ويعلن إليه أنه قد فاز ، وأنه مدين له
بهذا الفوز ، وأنه قد جاء يعرب له عن حسن بلائه ويدفع إليه ورقة
هي كتاب تعيينه مأموراً لأحد المراكز . يقع هذا في سرعة ، ولكنه
لا يخلب الفتى ولا يطير بلبه ، وإنما يتقبل الفتى هذا كله هادئاً ويقول
لإحدى جاراته : بعد قليل سأكون مديراً ثم عضواً مكانه في
مجلس الشيوخ .

فبراير سنة ١٩٢٧



الفؤادُ المقسم

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسى « لوسيان بينار »

هى قصة جديدة شهدها جمهور الباريسيين فى بيت موليير آخر العام الماضى . ولعلها خير ما ظهر للناس فى هذا الفصل من فصول التمثيل . وآية ذلك أنها ظهرت لأول مرة فى بيت موليير (الكوميدي فرانسيز) ولم تحتاج إلى أن تتخذ إليه الطرق المعوجة أو المستقيمة التى تتخذها قصص أخرى فتظهر فى ملاعب مختلفة ولا تصل إلى بيت موليير حتى يمضى عليها زمن طويل أو قصير .

وأنت لا تحتاج إلى كثير من التفكير ، بل لا تحتاج إلى شىء من التفكير إذا قرأت هذه القصة لتشعر شعوراً قوياً واضحاً بأنها خليفة بيت موليير ؛ ففيها كل ما يلائم هذا البيت من شدة الأسر وقوة الفكر ، وهذا الجد الذى تله دون أن يثقل عليك والذى تمتاز به الآثار الفرنسية القيمة . ولعل من الحق أيضاً أن ألاحظ أنى لم أقرأ فى هذه الأعوام الأخيرة قصة حديثة أحدثت فى نفسى من الأثر ما أحدثته هذه القصة ، لا أستثنى إلا ما يكتبه « فرانسوا دي كوريل » من حين إلى حين .

فلست أقول شيئاً جديداً إن قلت إن النقاد الفرنسيين يلاحظون
أن فن التمثيل قد أصابه شيء من الفتور غير قليل في هذه الأيام ؛
فقلما تجد في عشرات القصص التي ينتجها الكتاب في كل عام بل
كل فصل قصة تملك عليك عواطفك ، وتأخذ عليك طرق الحياة
والتفكير ، وتُكرهك على أن تقف عليها وحدها حياتك العقلية
والشعرية أثناء قراءتها في مكتبك أو مشاهدتها في الملعب ، إنما هي
قصص سهلة يسيرة ، فيها عبث ولهو أو فيها تفكير غير متقن ، وحوار
خفيف لذيذ يمس الموضوعات في غير إثقال ولا أناة ولا اعتصار لخلاصتها .
فأنت تقرأ أو تشهد هذه القصص ، وأنت في تجد هذا شيئاً من اللهو
والفكاهة أو تحتاج إلى شيء من التفكير لا تلبث أن تنصرف عنه
متى انصرفت عن القصة . وأنت لا تكاد تنصرف عنها حتى تنسى
موضوعها وحوارها وأشخاصها ، وحتى ليحدثك في أمرها محدث بعد أن
يمضي على ذلك شهر أو بعض شهر فإذا أنت لا تكاد تذكر فيها شيئاً . فأما
هذه القصص التي تقرأها فإذا أنت تحفظ بعض حوارها حفظاً ، وإذا
أشخاصها كلهم أو بعضهم قد ارتسموا في نفسك ارتساماً ، فأنت تراهم
يقظان ، وأنت تتوهمهم نائمًا ، وإذا موضوعها قد نصب أمام عقلك نصباً ،
وأقسم لا يزول ولا ينتقل حتى تفكر فيه تفكيراً متصلًا وحتى تجد له
حلاً يلائم عقلك وهواك . هذه القصص قد بعد العهد بها منذ مات
« بول هرفيو » وانصرف كبار الكتاب إلى مجدهم يلهون به ويستمتعون

بشمراته ، كما يلهو إله أرسططاليس لأنه لا يعلم إلا نفسه ولا يُعجَب
إلا بنفسه . حتى بعض الكتاب الذين عرفوا قبل الحرب بالقوة والأيد
وشدة التأثير في نفوس النظارة والقراء .

والذين لم ينصرفوا الى مجدهم وإنما ظلوا عمالاً لفن التمثيل يجدون
فيه بعد الحرب كما كانوا يجدون قبل الحرب وأثناءها ، قد أصابهم
الضعف وأدركهم الفتور . فأنت تقرأ ما يكتبون الآن فلا تحس ما
كنت تحس من قبل ، بل أنت تنكر هؤلاء الكتاب إنكاراً وإن كان
النقاد قد مهّدوا لقصصهم بالفصول الطوال ملؤها الثناء والتقريظ اللذان
لا حدّ لهما . ويكفي أن ننظر الى ما يكتبه « برنستين » الآن وما كان
يكتبه قبل الحرب لننتنع بأن هذه الظاهرة حقيقة لا بد من ملاحظتها
والتماس أسبابها للذين يعنون بهذا الفن من فنون الأدب الفرنسي .
ولكني لن أضيع وقتك ووقتي في التماس العلل لها الفتور الذي طرأ على
كتاب التمثيل ؛ فإن هذا الفتور ليس مقصوراً على التمثيل وحده
وإنما هو يتناول الأدب الفرنسي كله بعد الحرب ، ، ويجب أن نُلتمس
علله في الحرب نفسها وما تركت في نفس هذا الجيل من أثر . إنما
أردت أن ألاحظ أن هذه القصة التي أعنى بها اليوم تمتاز من هذه
القصص الكثيرة التي تظهر وتختفي من ملامح باريس دون أن تترك
أثراً قوياً أو ضعيفاً . هذه القصة خليقة بالبقاء وستبقى وما أرى إلا أنها
ستعمر طويلاً لأنها — كما قلت — قد جمعت هذه الخصال التي تمتاز بها
الآثار الأدبية الفرنسية القيمة .

ولننظر قبل كل شيء الى موضوع القصة ؛ فليس هو من هذه الموضوعات الضخمة الفخمة التي تخلبك لما لها من ضخامة وعظم شأن . وليس هو من هذه الموضوعات النفيسة الدقيقة التي تسرف في الدقة حتى لا يلاحظها إلا علماء النفس والذين وقفوا أنفسهم على تحليل ما لبعض الناس من ألوان العواطف والشعور الخاصة التي تدرس في المستشفيات . إنما هو موضوع عادى في نفسه يراه كل إنسان ويحسه ويشعر بأثاره ، لا يحتاج من ذلك إلا إلى حظ عادى من الذكاء والملاحظة ودقة الحس . وأى إنسان لا يعرف أن كل امرأة ، مهما تكن مقسمة النفس بين أسرتها الجديدة وأسرتها القديمة . أى الناس لا يعرف أن كل امرأة تتعرض لهذه الأزمة أزمة الخصومة بين حياتها الزوجية وحياتها المنزلية الأولى !! ثم أى الناس لا يعرف أن كل أسرة تتأسس فهى إنما تتأسس على الأتقاض ، وهى إنما تقطع شيئاً كان متصلًا لتصل شيئاً كان مقطوعاً . فالفتاة حين تدخل فى أسرتها الجديدة تقطع الصلة بين أبويها قطعاً صريحاً أو غير صريح ، وتنشئ صلة جديدة مع زوجها ، وهذه الصلة يقويها الحب إن كان هناك حب ، ثم تقويها الحياة اليومية ثم يقويها الولد يوم يأتى الولد . وقد أرادت الطبيعة الإنسانية أن يكون الحب والمنفعة المشتركة بين الزوجين ، والولد وضعفه وحاجته الى التربية والتعليم ، ثم الأثرة التي فطرنا عليها ، عناصر من شأنها أن تقوى الصلة الجديدة ، وتهون على الرجل والمرأة احتمال « عملية البتر »

التي يحدثها الزواج بينهما وبين أبايهما . ولكن نفوس الناس جميعاً ليست مستوية الحظ من هذا الاحتمال ، وظروف الناس جميعاً ليست متشابهة ؛ فقد يوجد الحب ويكون من القوة والشدة بحيث يلهي الزوجين عن قديمهما ويفنيهما في الجديد . وقد يكون هذا الحب قوياً شديداً التأثير ، ولكنه يصادف مزاجاً قوياً وفيماً يستطيع أن يتسع للقديم والجديد ، وأن يزعم الوفاء للأسرة والزوج . وقد لا يوجد الحب أصلاً ، فيظل الزوجان متأثرين بقديمهما وتكون الخصومة بين هذا القديم وبين المنفعة الجديدة التي تستتبعها الحياة الزوجية .

ونحن لم نفكر إلى الآن في الزوجين . فإذا فكرنا في أسرتهما فسنبصر أن هاتين الأسرتين لا تقبلان في رضا واطمئنان هذه القطيعة التي يحدثها الزواج بينهما وبين أبنائهما . فأما أسرة الزوج فساخطة أشد السخط ، متألماً أشد الألم ، ذاكرة ما بذلت من جهد وما احتملت من تضحية في تربية ابنها وتنشئته ، حتى إذا استقام له كل شيء لم يجز أبويه إلا بالعقوق ، وإذا هو يؤثر عليهما امرأته ، وإذا هو لا يحس أو لا يكاد يحس ما بينه وبينهما من صلة وما يعطفهما عليه من عاطفة . وأما أسرة الزوجة فساخطة أشد السخط على هذا الزواج نفسه ، لأنه قد أخذ ابنتها من ناحية فقطع الصلة بين الأبوين وبين هذه الفتاة التي بذلت في سبيلها ما بذلت من جهد ، واحتملت في سبيلها ما احتملت من تضحية . ثم هو لا يقطع هذه الصلة فحسب ، ولكنه لا يزال يجب

أسرته ويعطف على أمه ، وإذاً فهو لا يحب امرأته كما ينبغي ! وإذاً فهو متصل بأسرته القديمة أكثر مما هو متصل بأسرته الجديدة ! كل هذه المعاني معروفة شائعة يحسها الناس جميعاً . وهي من الآلام الطبيعية التي تقوم عليها حياتنا الاجتماعية مهما تختلف الأزمنة والأمكنة . وقد يكون من ألد المباحث الأدبية التماس ما تركت هذه الخصومة بين الأسرة الجديدة والأسرة القديمة من الآثار الأدبية شعراً ونثراً في مختلف اللغات .

والمعروف أن المرأة أشد اتصالاً بأسرتها وأكثر ولاءً لأبويها وأحفظ للمودة من الرجل ، وأنها في الوقت نفسه شديدة الغيرة من أسرة زوجها ، تخاصم أمه خصاماً شديداً ، وما تزال جادة في هذا الخصام حتى تنتهي إلى الفوز وتظفر لأسرتها الجديدة بالاستقلال . ولكنها لا تحاول أو لا تكاد تحاول تحقيق هذا الاستقلال بالقياس إلى أسرتها هي ، فالصلة بينها وبين أبويها قوية والمودة متصلة ، وهي تظهرها من أمرها على كل شيء وتستشيرها في كل شيء . وزوجها يرضى حيناً ويسخط حيناً ، ويظهر الغفلة حيناً وينتهي دائماً إلى الإذعان .

وقد اختار كاتبنا من كل هذه المعاني ومن كل هؤلاء الأشخاص المنبثين في الأرض كلها طائفة ضيقة صغيرة ، عرضها علينا في قوة ومقانة ودقة تفكير وشيء من التعقيد جديد ما كنا ننتظره نحن ، ولكنه رفع القصة من مستوى القصص العادية ، كما يقولون ، إلى مستوى القصص

الممتاز بدقة البحث عن عواطف النفس وأهوائها . ذلك أن الكاتب
محا أسرة الزوج محوياً تماماً . فحن لا نعرف أباه ولا أمه ، وإنما نعرفه
هو وحده ، ونعرفه قوياً له من الإرادة حظ عظيم جداً ، شديد السلطان
على نفسه ، راغب في التسلط على غيره ، موفق في ذلك توفيقاً عظيماً ،
وهو في الوقت نفسه هادئ المزاج حادّ العاطفة ، هادئ في حياته العادية
قلما يظهر عليه الاضطراب أو الغضب . ولكنه حادّ العاطفة . يجب فلا
يستطيع أن ينظم حبه ولا أن يضبطه . ويريد فلا يستطيع أن يضعف
إرادته ويحولها عن وجهها . وتقع الخصومة بين حبه وإرادته فيندفع في
الحب إلى أقصاه ، وفي الإرادة إلى أقصاها . ولا يستطيع أن يغلب
أحدهما على الآخر ، فيظل موضوع النزاع العنيف بينهما ، ولولا أن تعنى
الظروف بإنقاذه لذهب ضحية هذا النزاع . وهو إلى هذا كله عالم طيب
يعنى بطبه عناية العلماء في المعمل منصرف إلى تجاربه ، يحاول أن
يستكشف من هذا العلم ما يغير وجه البحث عنه وطرق العلاج فيه .
وهو قوى في علمه قوته في حبه وفي إرادته ، فهو عبد لهذه الأشياء
الثلاثة : الحب ، والعلم ، والإرادة . هذا الزوج هو « بيير ريجو » .

أما امرأته « فريدريك » فهي في السادسة والعشرين من عمرها ،
جميلة خلابة ككل نساء القمص ، ولكنها قوية الإرادة أيضاً ، شديدة
الكبرياء ، إذا همت فليس ما يصرفها عن مهمتها تكن النتائج . وهي
محبة قوية الحب ، ليست أقل حباً من زوجها كما أنها ليست أقل إرادة

منه . ولكن إرادتها فيما يظهر أقوى من حبها ، فهي تستطيع أن تساو ، بل هي تستطيع أن تألم ، وتألم في غير حد . ولكن حبها هذا مقسم ، فهي لا تحب زوجها وحده ، وإنما تحب أباهما مع زوجها . ولنلاحظ أنها فقدت أمها وهي حديثه السن ، فعنى أبوها بتربيتها عناية مضاعفة . ولنلاحظ أيضاً أن أباهما هذا شخص لا كالأشخاص : له حظ من قوة وبأس ، هو طيب عالم كصهره ، ولكنه متقدم في السن إلى حد ما ، يدانى الخمسين ، وهو على ذلك قوى له حظ من شباب ، حلوا الحديث فتان للنساء ، مفتون بهن مقرب إليهن يتهاكن عليه ويتفانين في حبه . وهو قد عنى بابنته عناية شديدة ؛ فأحبهته حباً شديداً ، وأحبها هو كذلك . ولكن في هذا الحب شيئاً غريباً ؛ فهو لا يشبه ما يكون بين الأب وابنته من البر والرحمة ، وإنما يشبه ما يكون بين الزوجين من الحنان والفتنة . وآية ذلك أنك تبدأ في قراءة القصة وتمضى في الحوار بين الأب وابنته فلا تشك في أنه حوار بين زوجين أو بين عاشقين ، ويأخذك الدهش حين تستكشف بعد صف من القصة أنهما أب وابنته .

فأنت ترى موضع الخصومة ، وأنت تحس منذ الآن أن هذه الخصومة ستكون عنيفة لأن المختصمين جميعاً أقوياء ، ولأنهم جميعاً يحبون فيحسنون الحب ، ويريدون فيحسنون الإرادة . وأنت ترى أن الأمر لو وقف عند ما نعرف من هؤلاء الأشخاص لما أمكن أن تنحل الخصومة

بينهم إلا بشر وتضحية ، فيجب أن يُضَحَّى بالأب في سبيل الزوجين ،
أو بالزوج في سبيل الأب وابنته ، أو بالقوم جميعاً .

ولكني لم أكشف لك من شخصية الأب إلا عن وجه واحد .
وهناك وجه آخر يؤثر في حياة هؤلاء المختصمين وإن كان شراً في نفسه
وفي ظاهر الأمر بنوع خاص . هذا الرجل أثر مسرف في الأثرة ،
يدفعه حبه لنفسه إلى الكذب والتضليل واقتراف ما يشبه الإثم ، وهو
مضطرب إلى ذلك اضطراراً ، فقد رأيت أنه يحب ابنته هذا الحب الغريب ،
وهو يلهو مع طائفة من النساء ، ولكنه يحب امرأة أخرى حباً طبيعياً
حاداً ، كما تحب ابنته زوجها وكما يحب هذا الزوج امرأته . وهذا الحب
الطارئ هو الذي ينتهي بالقصة إلى أرق منازل العنف ، وهو الذي
ينحدر بها ، ولكن في رفق ولين ودعة ، إلى حيث الرضا والطمأنينة
واستئناف الحياة الهادئة في لذة وابتسام ، وشيء مع ذلك من المرارة
غير قليل .

وفي القصة ، إلى هؤلاء الأشخاص ، أشخاص آخرون ، نذكر منهم
« جاستون » أخا « فريدريك » ، طالب مسرف في لهوه وعيبه ، يلهو
ويلهي النظارة بمزاحه وسخريته وجهله .

ونذكر منهم « كودريه » جد « فريدريك » لأنه شيخ ، رقيق ،
سمح ، رزين ، حسن النصح ، قيم المشورة ، محب لحفيدته وزوجها حباً
مؤثراً حقاً .

ونذكر منهم هذه الدوقة التي نراها في الفصل الأول ، جميلة ، فتانة ،
لعوباً ، تعبت بأبي « فريدريك » وتعبت بنفسها أيضاً ، وتعنى بما
يمكن وما لا يمكن ، لأنها تحب الأستاذ الطبيب وتريد أن تلهو معه .
ثم نذكر آخر الأمر « مسز ونتون » هذه الأميركية ذات الثروة
الضخمة والجمال الرائع والإرادة القوية والحب العنيف أيضاً . كان
زوجها عالماً مخترعاً ، وكان قد ضيف « جان لوى مارنييه » بن
« فريدريك » فأحبته وأحبها ، ثم مات زوجها وأقبلت الى باريس
تريد أن تتزوج حبيبها ، فيصطدم حبها بهذه الخصومة بين الأب
والزوج والزوجة .

فأنت ترى إلى هذه القصة كيف اختار الكاتب موضوعها من هذه
الموضوعات الشائعة المبتذلة ، ثم لم يكدهم يخلق أشخاصاً ويبعث فيهم
الحياة وينفخ فيهم من روحه حتى صورهم أقوياء ممتازين ، لهم من
العواطف والأهواء ما للناس جميعاً ، ولكن مع شئ من الدقة والتعقيد
ليس للناس جميعاً . وما هي إلا أن يقف هؤلاء الأشخاص بعضهم
لبعض حتى ترتفع القصة وتقوى ، وتحس أنك في بيئة ممتازة من كل
ناحية ، دون أن يمنعك هذا الحس أن تجد نفسك وعواطفك وحياتك
مثلة في هذه القصة من كل الوجوه أو من بعضها .

والآن وقد صورت لك هؤلاء الأشخاص تصويراً مقارباً أستطيع
أن أوجز لك خلاصة هذه القصة . ولكنني أفتك منذ الآن إلى

أن هذا التلخيص لن يغني عنك شيئاً والى أنك لن تجد اللذة والمنفعة
الا في قراءة القصة نفسها .

نحن في بيت «جان لوى مارنييه» أول الليل . ينصرف القوم عن المائدة
وقد أخذوا يأتون الى غرفة الاستقبال ، وكان أول القادمين «كودريه»
وحفيده «جاستون» . ونحن نرى الشاب يعنى بالشيخ عناية لا تخلو من
غلو ، ويمهد له ويقدم اليه البيبة ، ويتلطف له في الحديث . ويحس
الشيخ أن هذه العناية لم يرد بها وجه الله ، وما هي الا لحظة حتى نفهم
أن الشاب في حاجة الى الفرنكات لأنه يريد أن يشتري سيارة .

ثم يأتي «جان لوى» وقد قدم ذراعه الى ابنته ، فلا يكادون
يتحدثون حتى يضيق الفتى ذراعاً بأبيه الذي أخذ يسأله في الألمانية ، وبأخته
التي أخذت تظهر جهله بهذه اللغة ، فينتحى بجده الشيخ ناحية ليلعب
النرد . ونرى الأب يجلس الى ابنته ويتحدثان ، ونحن نرى الفتاة تعنى
بأبيها ولكنها عناية لا تخلو من دعابة وفكاهة . والرجل يجيب على هذه
الدعابة والفكاهة بمثلهما ، ثم لا يلبث هذا العبث أن يستحيل الى جدّ .
فقد ظهرت غيرة المرأة ، ووقف الرجل موقف الدفاع عن نفسه . ذلك أن
الخادم قد حمل اليه رسالة ، تقرؤها المرأة فاذا هي من الدوقة التي أشرت
إليها آنفاً . وهي تنبئ الأستاذ بأنها ستزوره بعد العشاء لتقص عليه أخباراً
مهمة متصلة بانتخابه في المجمع العلمى . فلا تكاد «فريدريك» تقرأ هذه

الرسالة حتى تثور وتأخذها غيرة حادة ، وتحصى للرجل سيئاته وآثامه
ولهوه ، وتعلن أنها قد صفحت عن هذا كله لأنه لم يكن شيئاً يذكر ،
إنما كان لهو ساعة أو بعض ساعة ، وأنها لم تخف حقاً إلا مرة واحدة
حين ذهب الأستاذ الى أحد المؤتمرات في أمريكا فأحب « مسز وتون »
امرأة مضيفه ، في هذه المرة خافت حقاً ، وأحست أن الأستاذ سيفلت
من يدها . وهي نائرة ، فقد كانت تقدر أنها ستنفق مع الأستاذ شطراً
من الليل في خلوة لذيذة ينصرفان فيها الى العمل ، تقرأ هي المسودات
ويصحح الأستاذ . وانظر اليها كيف أجلست الأستاذ في مجلس حسن ،
وجلست هي بين يديه في شئ من الظرف والدعابة . ولكن هذه هي
الدوقة تنذر بمقدمها ! . . . لن يكون هذا . وهي تأمر الخادم بأن يسرع
الى التليفون فينبئ الدوقة بأن الأستاذ مريض لا يستطيع أن يلقي
أحدًا ، والأستاذ يعارض ويمانع ، ولكنه مضطر الى الإذعان . على أن
الخادم لا يلبث أن يعود ويعلن في أسف أن الدوقة وزوجها الشيخ قد
خرجا من قصرهما وهما في الطريق . فانظر الى ثورة المرأة وحدثها وانظر
الى الأستاذ يهدئها ويتوسل اليها في ألا تسيء استقبال الدوقة . وهذه
هي الدوقة تقبل مسرعة ومعها زوجها ، فلا تكاد ترى الأستاذ حتى
تتحدث معه بلسانين : لسان يسمعه الناس جميعاً وفيه أحاديث عادية ،
ولسان آخر يسمعه الأستاذ وحده وفيه مودة وتعريض بمواعيده .
و« فريدويك » تتحدث إلى الأستاذ بلسانين أيضاً : لسان عادي يسمعه

الناس ، ولسان آخر فيه نذير وتحذير . وانظر إلى هاتين المرأتين تتقارضان
جمالاً ظاهرها فيه الود والتحية وباطنها فيه البغض والعداء . وقد أقبل
« بيير ريجو » زوج « فريدريك » فتنهز الدوقة هذه الفرصة وتطلب
إلى الأستاذ أن يرافقتها إلى « البيانو » لتلعب هي ويغنى هو ، فهي
تحب صوته الرخيم ولا سيما حين يغنى القطعة الروسية . ويحاول الأستاذ
أن يعتذر لأن ابنته تلح عليه في الاعتذار من طرف خفي ، ولكنه لا
يفلح ، فهو يذهب إذاً إلى البيانو حيث يُسَمَعُ غناؤه من بعد . وفي هذه
اللحظة تخلو « فريدريك » إلى زوجها ، فلا يكادان يتحدثان حتى
نحس أن « فريدريك » مشغولة بأبيها وصاحبته ، وأن زوجها يرى
ذلك فيغتم له ويشور ، ولكنه يكظم غمه وثورته ، ويلح على امرأته في
أن تتلطف بالدوقة ولا تظهر هذه الغيرة المنكرة . وامرأته منصرفه عنه ،
ماضية في الإعجاب بصوت أبيها والسخط على هذه المرأة ، حتى يعود
الأستاذ ومعه صاحبته ، فتلتقنه ابنته التقافاً ، وتمضى الدوقة إلى بيير
تحدث إليه ، وتنظر معه طائفة من الصور في دعابة وتلطف .
و« فريدريك » منصرفه إلى أبيها تلومه وتداعبه ، وتلاحظ في الوقت
نفسه زوجها والدوقة ، وتلفت أباهما إلى هذه المرأة التي تداعب زوجها
وتعبث بشعرها في وجهه . والأستاذ مضطرب بين ابنته وصاحبته . ثم
تنهض الدوقة للانصراف ، ويخرج الأستاذ وابنته لتشجيعها ، ويخلو
« بيير » إلى « كودريه » . فنفهم من حديثهما أنه ساخط على حميه

شديد الغيرة منه ، وأنه سيكون له معه شأن بعد حين . فاذا عاد الأستاذ وابنته تعجّل « بيير » فعرض عليهما موضوع هذا الشأن الذي يريد أن يتحدث فيه ، وهو أنه ضيق الذرع بباريس . وبمعاملها ، وقد سنحت له فرصة تمكّنه من العمل الجدىّ المنتج بعيداً عن باريس . ذلك أن غنية أميركية هي « مسز ونتون » قد أنشأت في أحد الأقاليم مستشفى عظيماً للسل ، وفيه معامل حسنة النظام غنية بالأدوات ، وقد عُرِض عليه أن يعمل في هذا المستشفى فقبل . ونحن نفهم أن صاحبنا إنما يريد أن يترك باريس حبا في العلم طبعاً ، ولكن ليستأثر بامراته بنوع خاص ، فلا يكاد يعرض هذا الأمر حتى يثور الأستاذ ثورة عنيفة ويعلن أن ابنته لن تترك باريس . وتمالئه ابنته في هذا ، وتسلك لإقناع زوجها طرقاً مختلفة ، فيها اللين والشدّة ، وفيها الاستعطاف والإنذار فلا تفلح ، ويوشك الأمر أن يفسد بين القوم لولا توسط الشيخ ، ولولا أن « بيير » قد نهض للانصراف . فاذا خلا الشيخ إلى صهره حاول إقناعه وحمله على أن يدع ابنته تترك باريس فلا يوفق . وهنا حوار بديع بين الشيخ وصهره في الصلة بين الآباء والأبناء ، وما يجب على الآباء من التضحية بأنفسهم لأنهم لا يملكون أبناءهم ، ولا ينشئونهم للذة والمتاع ، وإنما ينشئونهم لأنفسهم قبل كل شيء

فإذا كان الفصل الثاني فقد مضت ساعات قليلة على ما كان في الفصل الأول . ونحن في بيت « بيير » في غرفة النوم . وقد أوت

« فريديك » إلى سريرها والخادم تحمها فتنبها بأن سيدها يعمل في مكتبه ، وقد أمر فأعد له خادمه مضجعا في المكتب فيقع هذا الحديث من نفس « فريديك » موقعا تحس أنه مؤلم . وانظر إليها قد صرفت الخادم ولكنها لا تستطيع النوم ؛ فهي قلقة مضطربة تتسمع حركات زوجها في مكتبه . ولهذا اليقظة المضطربة من هذه الظلمة المدهمة في نفسها أثار قوى ، ولكن بابا يفتح ونورا يغمر الغرفة ، وقد ظهر الزوج ففتكأف صاحبنا النوم ، وكأنها قد استيقظت فزعة . ولكن زوجها يعلم أنها لم تم . وقد أقبل يعتذر إليها ويتلطف بها ويستغفر مما قدم ، واطمأنت هي إلى ذلك ، وصفا ما بين الزوجين الحبيبين وأطفىء من النور أكثره ، ولم يبق منه إلا شيء ضئيل يلائم نجوى المحبين آخر الليل ، وما يكون بينهما من عتاب واستعطاف ثم رضا واطمئنان . وهما في ذلك وهو يشكو غيرته من أيها ، وهي تدافعه في لطف ورقة . ولكن التليفون يدق فيحاول أن يمنعهما من النهوض له فلا يوفق ، وقد نهضت إلى التليفون فإذا أبوها قد عاد ، وهو يسأل عنها ويلح عليها في ألا تسافر مع زوجها ، وهي تجيبه بحديث متقطع يظهر فيه أنها مقسمة بين الرجلين ، تحب زوجها وتريد أن ترضيه ، وتحب أباه وتكره أن تفارقه ، حتى إذا فرغ هذا الحديث بعد مشقة عادت إلى زوجها تريد أن ترضيه وتصل معه إلى اتفاق معقول . ولكن لم يبق إلى ذلك من سبيل ، فقد دخل الأب بينهما فأفسد كل شيء . وكيف بهذا الرجل

يدخل بين الزوجين حتى آخر الليل وحتى أوقات الصفو والرضا ، وقد انتهت الثورة بصاحبنا إلى الظلم ، فهو ينكر على امرأته أنها تحبه ، وهو يسرف في ذلك ؛ وهي تتلطف حيناً وتشتد حيناً ، حتى يصل الأمر بهما إلى أقصاه . فهو يعرض عليها السفر ، وهي تأبى ، وهو يعلن أنه مسافر وحده ، وهي تنذر ، وهما في هذا وإذا الخادم يطرق الباب ، يتحدث إلى سيده بأنه قد أعد له أمتعته ، وبأن القطار سيدسافر ساعة كذا ، فإذا سمعت « فريدريك » هذا الحديث وفهمت أن زوجها كان قد أزمع السفر دون أن يظفر برضاها وقع ذلك في نفسها موقعاً أليماً ، فغلت في العناد والإصرار ، وغلا هو أيضاً في اللجاج ، وافترقا متغاضبين وانسدل الستار . وإنا لنسمع زفرات هذه المحبة المعذبة بين حبيها وكبرياتها ، بين أبيها وزوجها .

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في بيت « جان لوى مارنييه » أول النهار . نرى « فريدريك » جالسة إلى مكتب في يدها ورق وقلم كأنها تحصى شيئاً ، وقد دخل عليها أخوها الشاب ، وفهمنا من حديثهما أن هذا اليوم هو يوم الانتخاب في المجمع العلمي ، وهي تحصى الأصوات التي قد يظفر بها أبوها والأصوات التي قد تخطئه . وهي تلاحظ لأخيها أن الأستاذ قد عاد متأخراً في الليلة الماضية وأنه متعب ، وأنها قد أمرت الخادم ألا يوقظه إلا إذا تقدم النهار . ولكنها لا تكاد تفرغ من هذا

الحديث حتى يدخل الأستاذ كأحسن ما كان قوة ونشاطاً مستعداً للخروج ، فتلقيه ابنته في دعابتها وفكاهتها ، ويلقاها هو بمثل ذلك . وانظر إليها تطلب إليه يومه وليلتة تريد أن يفرغا من المهنيين بعد الانتخاب ، وأن يفلتا إلى أحد المطاعم ثم إلى أحد الملاعب ، وهو يجيبها في غموض : « سنرى . . . »

ويبدأ فيعلن إليها أنه لن يتغدى معها وينتحل لذلك المعاذير ، وهي مغضبة في دعابة . ولكن جدها قد أقبل ، وأقبل من مكان بعيد ليشهد يوم الانتخاب ، فينفلت الأستاذ ويترك ابنته مع الشيخ . ولا تكاد المرأة تتحدث إلى جدها حتى يذكر « بيير » ونرى من الحديث أنها تألم ولكنها تكظم ألمها ، وهي غير موفقة في هذا الكتمان : أليست قد أحصت الأيام منذ سافر زوجها ؟ أليست مغضبة لأنه لم يكتب إليها كتاباً واحداً وقد مضى على سفره نيف وثلاثون يوماً ؟ ! أليست كانت تنتظر أن تراه في باريس يوم الانتخاب !؟ هي مغضبة واجدة ، وكانت تحب أن ترى زوجها لتتفق معه على الطلاق فليس إلى استمرار الزوجية من سبيل . وقد أنبأها الحامي أن قضية الطلاق لا تحتاج إلى أكثر من شهر إلا أن يقاوم زوجها ، وما تظن أنه يقاوم . فإذا أراد الشيخ أن ينبهاً بأنها ما زالت تحب زوجها غضبت وزجرت جدها كأنها تشفق من هذا الحديث .

ولكن الخادم قد دخل ومعه بطاقة . تنظر فيها فإذا هي بطاقة « مسز

ونتون » ويقول الخادم إن هذه السيدة تلح في أن ترى مولاته ، فتأذن لها وتخلو اليها . فتسألها هذه : ما بالها لم تجب إلى دعوتها وقد طلبت اليها الزيارة غير مرة ؟ فتعلن اليها « فريدريك » دهشة أنها لم تتلق دعوة ولم تعلن بوجودها في باريس . فتسألها : ألم يخبرك الاستاذ بأني في باريس منذ حين ، وأني أراه كل يوم وكل ليلة وأني أكلفه دعوتك إلى زيارتي وأني معترمة أن أسافر معه إلى روما ، وأن زوجي قد مات ، وأن الأستاذ يريد أن يتخذني له زوجاً ، وأنا نفكر في أن نصلح بينك وبين زوجك ؟ ! وتقع هذه الأنباء كلها من « فريدريك » موقع الصاعقة ، ويظهر لهاتين المرأتين أن الرجل قد كذبهما وعبث بهما ، فتتفقان فجأة على مقتته والسخط عليه ، وتنشأ بينهما فجأة مودة قوية مصدرها فيما يظهر تشابههما في الحب والارادة والصراحة واستقامة الخلق . وهما في ذلك إذا الاستاذ قد عاد ؛ فاذا رأى صاحبتة أخذته الاضطراب ولم يحسن الحديث ، ثم تتركه صاحبتة لابنته . فيكون بينهما موقف عنيف مؤلم ، يظهر فيه مقدار ما لحب النفس من التأثير في حياة الناس : هذا الرجل الذي كان يحب ابنته ويسرف في حبها حتى ليضحى بها في سبيل نفسه ، وهذه المرأة التي كانت تحب أباهما وتسرف في حبه حتى لتضحى بزوجها في سبيل هذا الحب ، وقد وقفنا الآن موقف الخصومة وجهماً لوجه ، لأن امرأة أخرى قد دخلت بينهما فاستأثرت بقلب هذا الرجل . وهذه ابنته تهمه بالكذب والقسوة والأثرة والخداع ، وهو يتهم ابنته بالعقوق والإثم .

وهي تعلن اليه أنه لن يتزوج من المرأة ، وهو يعلن اليها أنها ستعود الى زوجها ، وسيقترن هو بهذه المرأة ؛ كل ذلك في قوة وعنف مؤثرين حقاً .
ويقبل الشيخ فينقطع هذا الحوار العنيف ، وتنصرف الفتاة . فاذا خلا الرجلان قال الأستاذ لحميه : يجب أن تسافر وتعود ومعك « بيير » فيجيب الشيخ : إن « بيير » في باريس وهو في بيته ، بين هذه الأشياء التي تمثل حبه يألم ويأسى . فيقول الشيخ : اذهب فأنبئه أن امرأته تنتظره . فاذا تردد الشيخ ألح عليه الأستاذ وأقسم إنه لصادق ، فينصرف الشيخ مسروراً متردداً معلناً أن الأمر متصل بسعادة حفيدته ، فيقول الأستاذ وكأنه يحدث نفسه : وسعادتي أنا أيضاً . . . !

* * *

فاذا كان الفصل الرابع فلم يمض على هذا كله إلا دقائق . ونحن نرى « فريدريك » متهيئة للخروج ، ولكن الخادم ينبئها أن زوجها يستأذن ، فتأذن له في دهش وحيرة تقدرها أنت قدرها . فاذا رآته سألتها : أنت قد دعوتنا ؟ فتجيب في دهش : نعم ! . ثم تقبل عليه معذرة مستعطفة متلطفة . ونحس نحن أن هذا كله يهز الشاب هزاً عنيفاً ، وأنه لو استسلم لعواطفه لقبول ورضى بل لاعتذر واستعطف . ولكن له إرادته وكبرياءه ، فهو يكظم تأثيره ويظهر الشك ، حتى إذا فرغت امرأته أو كادت تفرغ أعلن اليها في صراحة ملؤها الجفوة والحب معاً أنها إنما تستعطفه لأن أباه يريد أن يتزوج ، ولأنها تحس أنها

ستصبح وحيدة ، فهي تعود إلى زوجها حتى إذا عاد إليها أبوها رجعت إليه . وهو دهش لأنها لا تعلم من أمر هذا الزواج شيئاً . ولكن دهشه سيزول ؛ فهذا الأستاذ قد أقبل محزوناً منكسر النفس قد ظهر عليه الضعف والاستسلام ، فيخبر بأنه هو الذي دعا « بيير » ، ثم يخبر بأنه فاز في الانتخاب ولكنه على ذلك محزون منكسر النفس . ذلك أن حبيبته قد قطعت ما بينهما من صلة ، وأعلنت إليه أنها تاركة باريس مساء اليوم ، وأبت عليه حتى أن يودعها بل أن يراها مرة أخيرة قبل سفرها . وهو يلوم ابنته لأنها مصدر هذا كله .

ثم انظر إليه يستعطف ابنته ويتوسل إليها ، فهي وحدها تستطيع أن تغير رأى هذه المرأة ، وهي وحدها تستطيع أن تردّها إليه فترد إليه الغبطة والسعادة والحياة . وهو يعتذر ويلجح في الاعتذار ، ويعترف بأنه كان أثراً آثماً مسرفاً في حب نفسه ، ولكنه لم يكن يحس هذا كله ولا يقدره . وابنته لا تجيبه إلا في قسوة وعنف حتى يرق « بيير » نفسه ويلومها على ذلك في لطف . وقد انتهى الأمر بهؤلاء الناس إلى حرج ليس بعده حرج . فأما الأستاذ فمدعن مستسلم بعد أن ظهر له أن ابنته لن تشفع له . وأما « بيير » فستمسك بكبريائه ، لم يمتنع بعد بأن امرأته تحبه هذا الحب الذي يمكنها من التضحية بأبيها ، وأما « فريدريك » فقد أعلنت في حزم وقسم أنها تاركة هذا البيت مساء اليوم ولن تعود إليه مهما يكن من شيء سواء أتم الصلح بينها وبين زوجها أم لم يتم . وانظر إلى استسلام

الشيخ وقد نهض معلناً أنه ذاهب إلى الدوقة لأنها جمعت إلى الشاب طائفة من المعجبين به يهنئونه بالفوز في الانتخاب ، وهو يداعب صهره في حزن فيطلب إليه ألا يهزأ بشيوخ المجمع العلمى .

وقد أقبل صديق « بيير » يتعجله ليسافرا ، فيتردد قليلاً ثم يجيب بأنه لن يسافر الآن . وتقع هذه الجملة من نفس « فريدريك » الموقع الذى تقدره أنت ، فقد أحست أن زوجها قد رضى وثاب إليها . ولكن زوجها يسألها : ألا ترين أن أباك يحب هذه المرأة حباً مبرحاً ؟ فتجيب : بلى ، ولكنه لا يستحق هذه المرأة . فيلح ، وانظر إليه يستعطفها ويتوسل إليها فى أن تشفع لأبيها عند حبيبته ، فتقبل كارهة ، ولكن على أن يشاركها فى هذه الشفاعة لتعلم هذه المرأة أن سعيهما صادق وأنهما قد تصافيا حقاً .

مارس سنة ١٩٢٧

[Faint, illegible handwriting on aged paper]

سعادة اليوم

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي « آدمون جيرو »

وليس ينبغي أن يخذلك هذا العنوان ، فتقدر أنك ستقرأ تحليل قصة خلقية اجتماعية تعرض للسعادة وتصور الناس لها في هذا العصر ، فليس بين القصة التي نلخصها في هذا الفصل وبين هذا الموضوع صلة ما . وإنما « سعادة اليوم » اسم أداة من هذه الأدوات التي تتخذ في الدور ، نستطيع أن نطلق عليها هذا الاسم العامي المبتذل « المكتب » ونريد به هذه المائدة التي تتخذ للكتابة ، وفيها أدراج كثيرة تحفظ فيها السيدات أوراقهن وما لهن من هذه الأدوات الدقيقة المتنوعة . « فسعادة اليوم » في هذه القصة ليست شيئاً غير هذا ، هو لفظ أطلق في عصر من العصور الفرنسية وفي طبقة من الطبقات الفرنسية على هذه الأداة الشائعة . وقد أعطت هذه الأداة الشائعة اسمها لهذه القصة لأنها كانت تحتوي سراً من أسرار أسرة ، فأستكشف هذا السر ، وكان استكشافه مصدر طائفة من الأحداث والانفعالات عبثت بطائفة من القلوب والنفوس عبثاً عرضه علينا الكاتب في قوة ودقة ومهارة خليقة بالإعجاب .

ولعلك لم تنس بعد هذه القصة البديعة التي حدثتكَ عنها في الشهر
الماضي ، قصة « الفؤاد المقسم » . ولعلك لم تنس بعد هذه العواطف
المختلفة التي تتنازع القلوب وتعبث بالنفوس فيما رأيت من قوة وعنف .
فقصتنا في هذه المرة تشبه تلك القصة من هذه الناحية ، فهي قصة جهاد
عنيف بين عواطف قوية حادة تتنازع قلباً كريماً بريئاً من الشر
والإثم ، ولكنه في الوقت نفسه متأثر أشد التأثر بالحياة الاجتماعية وما
توارث الناس من عادة ورأى وحكم ، وما تواضعوا عليه من خلق
ونظام . هي قصة نفسية لأنها تعرض عليك نفساً إنسانية في ظرف من
هذه الظروف الحرجة العسيرة التي تكشف عن دخائل الإنسان وتجرده
أو تكاد تجرده من كل هذه اللغائف التي تلقه بها الحياة الاجتماعية . فهي
قصة اجتماعية لأن هذه النفس التي يعرضها عليك الكاتب إنما تألم
وتحس ما تحس من عذاب ، وتخضع لما تخضع له من حرب وجهاد ، بحكم
الأوضاع الاجتماعية المتناقضة ، وبحكم الأحداث الاجتماعية التي تحدث
في حياة الناس من حين إلى حين ، فتكونهم كما تحب لا كما يحبون ،
وتصورهم كما تريد لا كما يريدون . وهي قصة خلقية أيضاً لأن هذه
النفس حين تتألم وتشعر بالعذاب ، مضطرة إلى أن تظهر شيئاً من الجلد
والقوة على المقاومة ، وهي لاتقاوم عبثاً وإنما تقاوم فراراً من شر وحرصاً
على خير ونفور من الأذى ورغبة في البر .

وهي بعد هذا كله قصة لم تنس المثل الأعلى الذي يضعه الأفراد

والجماعات أمامهم حين يحبون وحين يختلفون في أمورهم المتباينة .
هي هذا كله ، وهي إلى هذا كله نموذج من نماذج اللفظ المختار
المتنقى ، والحوار الدقيق اللطيف ، والمعاني الجيدة التي فكر فيها صاحبها
فأحسن التفكير ، ونسقها فأجاد التنسيق . وقد يستطيع هذا الفصل من
فصول التمثيل الفرنسي أن يغتبط بعض الاغتباط ، فهو غني بهاتين
القصتين ، وهو خير من فصول أخرى سبقته ، ولم يظهر فيها كما رأيت في
الشهر الماضي الا لون من هذا القمص التمثيلي الفاتر الذي لا يمثل شيئاً
ولا يدل على شيء .

ولأعرض عليك أشخاص هذه القصة كما تعودت أن أفعل بازاء
القصص الأخرى . فقد يكون هذا العرض أيسر سبيل إلى فهمها وتذوقها .
ولكني حائر لا أدري بأي هؤلاء الأشخاص أبدأ ، فالظاهر أن لهذه
القصة بطلا ممتازاً تدور حوله ، ولكن أشخاصها جميعاً أبطال ممتازون .
وما أدري في حقيقة الأمر إلا أن لكل واحد منهم حياته القوية المؤثرة
المتأثرة . أبدأ بهذا الشاب الذي تدور القصة كلها حوله والذي يظهر أنه
البطل الممتاز فيها ، والذي يظهر في الوقت نفسه أنه ضحية أبيه وأمه
وعصره ؟ ولم لا ؟ فلا بد من أن نبداً بواحد من هؤلاء الأبطال . فليكن
هذا الشاب .

جان بليسيه شاب قد ناهز من عمره الثلاثين ، جميل المنظر قوى

عذب الخلق ، حلو الحديث ، رقيق القلب . ولكنه في الوقت نفسه بطل
من أبطال الحرب الكبرى ، أدركته ولما يكذب يدع المدرسة ، فيدخلها
جندياً ، ولكنه أبلى فأحسن البلاء ، وتقلب في مراتب هذه الخدمة
العسكرية العاملة وذاق آلامها ولذاتها جميعاً ، حتى انتهى به الأمر إلى
أن أصبح ذا مرتبة عالية في فرقة الطيران . وقد أحسن البلاء في هذا اللون
من ألوان الحرب ، وجر عليه ذلك خطوباً وأواناً من الشرف ، فرأى
الموت وصاحفه أو كاد ، واضطر إلى المستشفى ، وتحلى صدره بالأوسمة المختلفة ،
ثم انجلت عنه غمرة الحرب فاذا هو يعود إلى حيث يقبم أبواه في أحد
الأقاليم الفرنسية ويعيشان عيشة ثروة ونعمة وعمل وهدوء . يعيشان في
قصر نخم من قصور العصور الوسطى ، اشترته الأسرة حين أثرت .
ولكن هذا القصر وما حوله من الأرض الواسعة مهملان أو كالمهملين ،
لأن رئيس الأسرة منصرف عنهما إلى مهنة الطب التي يجبها ويكلف
بها . فاذا عاد الشاب إلى أسرته أسرعت ففكرت في أن تكل إليه
تدبير هذه الثروة ، على أن يكون ذلك عمله في حياته ، وأسرعته فاختارت
له فتاة حسناء لتكون زوجته . وظهر اطمئنان الفتى إلى هذا النوع من
الحياة ، فعنى بالقصر والأرض ، وشغف بالفتاة وشغفت به الفتاة أيضاً ،
وأخذا يستقبلان الحياة في ابتسام وبهجة ، لولا « سعادة اليوم » التي
حدثتك عنها في أول الفصل والتي ستظهر لهذا الفتى أن نشاطه وسروره
وابتهاجه للعمل في هذه الحياة السامية ليست طبيعية ، وإنما هي علة يتعلل
بها كارها ، وإنما حياته الحقيقية في الحرب .

وهذا الشاب من أبوين مختلفين أشد الاختلاف في الطبقة والتربية .
فأمه من أسرة شريفة بعيدة في الشرف ، تحفظ نسبها في القرون
الوسطى ، وتذكر ما كان لأجدادها من بلاء في تاريخ فرنسا ومن
مكانة في قصور ملوكها . وأم هذا الفتى قد ورثت عن أسرتها الشريفة
هذه كل خلالها ، فهي مترفة مهذبة رقيقة ممتازة ، وقد أورثت هذه
الخلال كلها ابنها الشاب .

أما أبوه فمن طبقة أخرى ، من هذه الطبقة التي كانت مهضومة
مظلومة قبل الثورة ، والتي اكتسبت الحرية بعد الثورة ، وجدت
فأضافت إلى الحرية ثروة وقوة واستثنائاً بالحكم . وفيها خلالها ، فهي
نشيطة عاملة صريحة شريفة الخلق . وفيها عيوبها أيضاً فهي غليظة
خشنة قليلة الحظ من التهذيب والرقّة والامتياز ، لا تتنزه عن صفات
نعافها الأرستقراطية . كان جد هذا الفتى يعمل في البريد ، ولكنه
جد حتى أثرى وأحسن تربية ابنه حتى أصبح ابنه وزيراً في
الأمبراطورية الثالثة ، وترك هذا الوزير ابناً أحسن تربيته فهو طبيب
وهو أبو هذا الشاب .

وهذا الشاب متأثر — كما قلنا — بما ورث عن أمه ، نافر أشد
النفور من أخلاق أبيه . فهو لا يكاد يحتمل أباه منذ رجوع من الحرب ،
وهو يألم لهذا ولكنه لا يجد إلى اتقائه سبيلاً ، وأبوه يألم له أيضاً ،
ولكنه يروض نفسه على هذا الألم ، وقد علمته الحياة أن يروض نفسه

على الألم؛ فقد نشأ كما رأيت ابناً لهذا الوزير، وأدر كته حرب السبعين
وما تبعها من الهزيمة، فتركت في نفسه ما تركت في نفس الفرنسيين
جميعاً من هذه الآثار المؤلمة التي يمثلها ضعف العزيمة والاستسلام ثم
الطمع والشك. وكان أبوه ضخم الثروة، فزوَّجه من امرأته الشريفة
الفقيرة. وجدَّ هذا الرجل في مهنة الطب حتى أحبها علماء وعملا، واتخذها
سبيلاً إلى البر بالفقراء والإحسان إلى البائسين. وهو شديد الإعجاب
بأسرته وجدَّها ونشاطها، لا يكره مع ذلك أن يزدرى الأشراف
وخولهم وكبرياءهم. ولكن الحياة كانت تدخر له المأ هو الذي جعله
بطلاً كما أنه أسبغ البطولة على امرأته أيضاً. وليس من الخير أن نتعجل
فنكشف لك عن هذا الألم، فهو قوام الشطر الأول من القصة.

فلندع هذه الأسرة، ولنذكر الشخص الرابع من أشخاص القصة،
وهو «جرين داجوزون» خطيبة جان. فهي فتاة جميلة فتانة ولكنها
فقيرة. هي من أسرة نبيلة، ولكن أبها كان سيئ السيرة والخلق،
وأما كانت تعسة سيئة الحال. فأما أبوها فقد مات. وأما أمها فقد بقي
لها من هذه الحياة السيئة ضرب من الاضطراب العقلي والخلق، يمثله
الغرور والشه والتكاف وما إلى هذه الأخلاق مما يجعل الإنسان موضع
السخرية والإشفاق في وقت واحد. ولكن الفتاة لم تتأثر بشيء من
هذا، وإنما نشأت نبيلة ذكية القلب جلدة قوية الإرادة، قادرة على
المقاومة، ولكنها رقيقة محبة أيضاً. ولم تكد تعرف هذا الفتى حتى

أحبته حباً قوياً عنيفاً ، ولكنه شريف ممتاز يشبه حب الفتى لها .
هؤلاء هم الأشخاص ، لم أعرض عليك من أمرهم إلا ما يمكن أن
يعرف قبل أن تحدث حوادث القصة فتكشف من نفسياتهم عما
كان محبوباً .

فاذا كان العسل الأول فنحن في أعلى القصر في هذه الغرف التي
تتخذ مُلقًى للأدوات العتيقة بعد أن يستغنى عنها ويزهد فيها ، فتترك
في هذه الغرف مهمة وديعة في أيدي الزمان يفنيها قليلاً قليلاً ، وتهمل
معها هذه الغرف ، قد أُغلقت أبوابها من دون هذا المتاع كما تغلق المقابر
دون ما تودع من أجسام الموتى . وقد صعد جان إلى إحدى هذه الغرف
ففتح أبوابها ونوافذها للهواء والضوء ، وأخذ يتفقد ما فيها من متاع في
إعجاب وشغف . وما هي إلا أن أخذ ينسق من هذه الغرفة وما فيها
مكاناً يستقبل فيه خطيبته وأما وأبويه لتناول الشاي . وكانت هذه
الفكرة قد خطرت لخطيبته حين علمت بأن في أعلى القصر أدوات
قديمة من متاع القرون الوسطى . فأقبل الفتى يهيم لها هذه الغرفة ، وهو
يحاور في ذلك خادمه حواراً لذيذاً خفيفاً . فهو كلف بهذا المتاع القديم
لأنه يمثل حياة آبائه ، ولكن خادمه منصرف عن هذا المتاع لأنه عتيق
قد عمل فيه الفناء ، ولأنه يؤثر الجديد الذي لم ينله البلى . وانظر إلى
الغرفة قد نسقت تنسيقاً حسناً ، وإلى طاقات الزهر قد وضعت في هذه

الآنية القديمة . ثم انظر إلى الفتاة قد أقبلت فما تكاد تنظر إلى هذه الأشياء حتى تُفتنَ بها وتمضى في الإعجاب والثناء . وما كان أخلقها أن تمضى في ذلك إلى غير حد لولا أنها تحب صاحبها ، وصاحبها يحبها وخلوتهما ضيقة محدودة ، فلا بدّ من أن يتحدثا في الحب ، ولا بدّ من أن يتبادلا هذه القُبل التي يفتنّ الخطيبان في اتهاز الفرص لها .

وهما يتحدثان في حبهما في خفة ورشاقة وجدّ أيضاً . ونحن نحس أننا لسنا أمام حب فاتر أو نزق ، وإنما هو الحب القوي الحادّ الذي لا يكاد يدخل القلب حتى يملأه ويستأثر به ويندفع منه إلى جميع الملكات والعواطف والحواس فيخضعها لسلطانه . هذا الحب الذي كله ثقة وأمل ورغبة واحترام وطمأنينة . وهما في هذا الحديث وفي هذا الحب وإذا الأسرة قد أقبلت ، فلا أخلص لك ما يدور من حوار حول المتاع ثم حول الشاى ، فقد تستطيع أن تستغنى عن هذا كله ، وإنما ألاحظ أن الأب قد أقبل فرحاً مبهجاً فتغنى مع الفتاة بعض أغاني الأقاليم ، وكانت الفتاة بها مبهجة وأمها كذلك وامراته أيضاً ، إلا الفتى فقد غاظه ذلك وضاق به ذرعا ، ولم يستطع أن يخفى ضيقه ، بل عرّضَ باللوم لأبيه ، وقبل الشيخ هذا اللوم في ألم وغيظ وحزن وسخرية . وانقضى الشاى بين الضحك والحزن تقيمه أم الفتى ما استطاعت .

ثم يعلن الشيخ إلى الفتاة أن في القصر غرفا كهذه الغرف فيها

متاع أقدم من هذ المتاع وأجل . فترغب الفتاة في أن ترى . ويقبل الشيخ على أن يظهرها على هذا المتاع ، وينصرفون جميعاً إلا الخطيبين ، تخلفا فيما يظهر ليختلسا كلمة أو قبلة . والفتاة تدعو صاحبها إلى أن يتبعها إلى حيث ترى المتاع ، وهو يأبى ويتعلل ، وما هي إلا أن نفهم من تعلله أنه لا يريد أن يرافق أباه ، وأنه ضيق الذرع بأبيه وطبقة أبيه وما لهذه الطبقة من عادة وما فيها من عيب ، وأنه شديد الإعجاب بأمه وطبقة أمه وما فيها من ترف ولين ورقة . وانظر إليه وقد استكشف هذا المتاع القديم الذي كان يسمى «سعادة اليوم» فهو يظهر الفتاة على محاسنه وما فيه من رشاقه فنية . وهو يوازن لها بين هذه الأداة الرشيقة التي تمثل ذوق أمه وأسرتها الشريفة ، وبين تلك الأدوات الغليظة التي يمتلئ بها القصر والتي تمثل ذوق هذه الطبقة الوسطى التي سادت بعد الثورة .

وقد تركته الفتاة ، فعمد إلى هذا المتاع ، وأخذ ينظر في أدراجه ويستنشق رائحتها في شغف وفتنة ، لأن هذا المتاع قد كانت أمه تستخدمه في شبابها ، فهو إنما يتنسم شباب أمه . وقد جذب إليه درجاً فتنسمه ثم حاول أن يردده فيستعصى عليه كأن شيئاً يعترض دونه ، فينظر فاذا حزمة من الورق ، فيسرع إليها متلهفاً ويتردد ثم يفضها ، فاذا رسائل تنتثر ، فيسرع إلى هذه الرسائل يجمعها ويخفيها في جيبه . ولكنه يسمع صوتاً فيبالغ في السرعة ثم ينهض فيصرف وقد أقبل أبوه فرآه مولياً ،

ونظر فإذا رسالتان على الأرض قد أخطأها ، فيسرع إليهما فيدسهما في جيبه .

فإذا كان الفصل الثاني فقد مضت أيام على ما قدمت لك ، والقوم مجتمعون في غرفة المائدة بعد العشاء ومعهم الخدم جميعاً كأنهم في حفل منزلي ، والشيخ قائم أمام نار الموقد المتأججة يشوى فيها بنفسه « الشاه بلوط » (أو الكاستينا كما يسمونه الآن) . وهو يقص على الفتاة وأما من عادات الإقليم وأحاديثه ما يضحكهما ويلذها . وهم جميعاً مبتهجون إلا الشاب فقد تنحى وانصرف إلى كتاب كأنه ينظر فيه ، وإلا أم الفتى فهي قلقة لما تشاهد من ضيق ابنها وسوء الحال بينه وبين أبيه . وقد انتهى عبت الجماعة إلى آخره ، وأعلن الشيخ أن ستجمع طائفة من هذا (الشاه بلوط) الذي يشوى، تخرج من الجمر ثم يوضع عليها غطاء ما ، ثم تجلس عليها أصغر الحاضرين سناً . وقد قبلت الفتاة ، والخدم مبتهجون ، وأما مترددة متكلفة ، ولكن الفتى يترك كتابه وينهى خطيبته عن هذا العبت فتأبى ، فيلح فتزاد إباء ، فيبالغ في الإلحاح فتغضب ، ويفسد الأمر بينهما بعض الشيء ، وتنصرف غير حافلة بأما ونذيرها ، وقد أعلنت أن خطيبها يجب أن يعرفها حق المعرفة وأن يعلم قبل أن يتخذها له زوجاً أن لها إرادة وأنها قد تغلو في هذه الإرادة أحياناً . وقد فسد الحفل وانقلب السرور شيئاً يشبه الحزن .

ومضى كل إلى مضجعه ، ويظل المسرح خالياً حيناً ، ثم إذا الشاب قد أقبل إلى المكتبة يلتمس فيها شيئاً ، فيستخرج مجعاً للصور وينظر فيه كأنه يبحث عن صورة بعينها ، حتى إذا انتهى إليها اختلسها ودسها في جيبه . وما يكاد يفرغ من هذا حتى يحس صوتاً فيرد مجمع الصور ويظهر أنه يأخذ كتاباً . وقد أقبل أبوه ، فيسأله : ماذا يصنع ؟ فيجيب الفتى إنه قد امتنع عليه النوم فأقبل يلتمس كتاباً يستعين به على الأرق . يجيب الشيخ : وهذه حالي ، فلنتحدث قليلاً .

وما يكادان يتدنان الحديث حتى يصل الشيخ إلى ما كان يريد ، فهو يريد أن يتعرف من شأن ابنه مصدر هذا الضيق الذي ظهر عليه منذ أيام والذي أقلق أمه ونقص عليها الحياة ، أو قل إن الشيخ يعرف مصدر هذا الضيق ولكنه يريد أن يتحدث فيه إلى الفتى . أما الفتى فيتكلف الجواب ويحتال في اتقاء الشيخ ويعلن إليه أنه ضيق الذرع بهذه الحياة التي يحيها بعد الحرب والتي لا عمل فيها ، وأنه يريد أن يعمل وأن يكسب وألا يكون مديناً بحياته لأحد .

أما الشيخ فلا تخدعه هذه المحاولة . وما هي إلا أن يصل إلى غرضه في صراحة فيعلن إلى الفتى أنه قد عثر بطائفة من الرسائل ، ولكنه نسي منها اثنتين ويدفعهما إليه ، وأنه قد قرأ هذه الرسائل وعرف ما عرف من أمرها وأن هذه الرسائل هي التي تقص عليه حياته . فإذا أظهر الفتى شيئاً من الدهش أنبأه الشيخ في هدوء وألم مبتسم بأنه يعرف ما في هذه الرسائل

وعرف ما عرف من أمرها ، وأن هذه الرسائل هي التي تنغص عليه حياته ،
فاذا أظهر الفتى شيئاً من الدهش أنباه الشيخ في هدوء وألم مبتسم بأنه يعرف
ما في هذه الرسائل منذ ثلاثين سنة . ثم يقص على الفتى القصص .
فليس الفتى ابنه وإن كان ابنه أمام القانون وأمام الناس وأمامه
هو أيضاً . ذلك أنه قد كان تزوج من امرأته دون أن تحبه كما يتزوج
أصحاب الثروة من الفقيرات في غير حب ولا كلف . فلما لم يجد من امرأته
حبا ولا حناناً ولا هيئاً زهد فيها وانصرف عنها الى اللهو والعبث ،
وفرحت هي بهذا الزهد والانصراف . وفي ذات ليلة لقي صديقاً له كان
رفيقه في المدرسة ، وكان من الأشراف ، وكان قد أحب امرأته وكانت
قد أحبته ، وكانا يريدان الزواج . ولكن الفقر حال بينهما وبينه . فلأمرهما
حرص صاحبنا على أن يستأنف الصلة بينه وبين صديقه القديم .
وانظر إليه يتهم نفسه أشنع التهم في لطف ورقة وكرم أيضاً . انظر اليه
يحدث الفتى بأنه اجتهد في أن يتردد صديقه على بيته وتتجدد الصلة
بينه وبين حبيبته القديمة لأمر لا يكاد يتبينه ، وربما كان منه أنه أحب
أن يثير في نفس امرأته حبه القديم لهذا الرجل لعلها تتورط في شيء
من الإثم فيتخذ ذلك حجة عليها وعذراً لنفسه من آثامه الكثيرة . ومهما
يكن من شيء فقد كان ما لم يكن منه بد ، وأثمت المرأة ، وكان الفتى
نتيجة هذا الإثم فأما أبوه فقد ندم وألح عليه الندم حتى التحق بجيش من
جيوش المستعمرات الإفريقية وجاهد حتى اشترى خطيئته بالموت وأما أمه فقد

لقيت في الحمل آلاماً ثقالاً وتعرضت في الوضع لخطر الموت ، ووقف زوجها بين الأمانة لمهنته كطبيب يجب أن ينقذ المريضة ، والانتقام لنفسه كزوج يريد أن يقتل الخائنة ، فوفى لمهنته وأنقذ المريضة حتى إذا تم لها الشفاء لم يجد في نفسه القدرة على استئناف الانتقام فصطح وعفا ، وندمت زوجه وتابت ، وكانت بينهما مودة استحالت حباً قوياً شريفاً استفاد منه الطفل فنشأ بين قلبين يحبانه ويعطفان عليه .

وقد سمع الفتى هذا القصص ، ولكنه بطل من أبطال الحرب ، قد تعود الهول وتجشمه ، وتعود المكروه وصبر نفسه عليه ؛ فهو يألم ولكنه يكظم ألمه ، وهو بين أمرين يتنازعان قلبه ونفسه : السخط على أمه وأبيه ، لأنهما وضعاه في هذه المنزلة الكريهة ، والبر بهذه الأم التي لقيت في سبيله ما لقيت من ألم وتعرضت في سبيله لما تعرضت له من خطر . وهذا الشيخ الذي كان يظنه أباه والذي كان ينكره ويضيق به والذي ظهر الآن أنه ليس منه في شيء : أيحبه لأنه نشأ ورباه كما ينشأ الأب ابنه في مودة وحنان وحب ، أم يبغضه لأنه ليس منه في شيء ، ولأنه هو الذي عرّض أمه للإثم والخطيئة ، وهو الذي اضطر أمه إلى أن تلده في غير رضا الأخلاق والقانون ؟ . وأبوه !! أيحبه لأنه أبوه ، أم يبغضه لأنه ورط أمه في الإثم وجنى عليه هذا الوجود المنكر ؟ وخطيئته ! ماذا يصنع بها ؟ أيمضى في حبها ويكتم عليها ما عرف من أمره فهو إذا يغشها ويدلس عليها ؟ أم يظهرها

على كل شيء ، وإذاً فإلى أى حال ينتهى حبه وكبرياؤه وكرامته ؟
وهذه الثروة الضخمة التى يكلها إليه الشيخ أيقبلها وليست له ،
أم يردّها وإذاً ماذا يصنع ؟ فأنت ترى إلى هذا الموقف المعقد وإلى
ما فيه من حرج .

وموقف الشيخ ! أتظنه يخلو من الحرج ؟ كلا فقد عفا عن امرأته ،
وقد استطاعت امرأته أن تمحو ما فى نفسه من موجدة . وهو يحب
امرأته ويريد أن يحميها من كل مكروه ، وقد كان هذا يسيراً ما خفيت
القصة على الفتى ؛ ولكن الفتى قد عرف القصة ، ووقف الشيخ منه فى
صراحة موقف الغريب فماذا يصنع ؟ وكيف يعصم امرأته من احتقار
ابنها وسخطه ؟ وهو كان أحب الفتى واتخذها ابناً حقاً وقد ظهرت خبيثة
الأمر ، فماله بشيء هذا الفتى ؟ ومع ذلك فلم يَأْثُم الرجل ولم يقترف
خطيئة ، وإنما تكلف اتهام نفسه ليخفف عن امرأته وليعطف الشاب
على أمه . ما خانها ولا تعمد إغراءها وتوريطها فى الإثم . ومهما يكن
من شيء فهو لا يطلب الآن إلا أن تبجل امرأته أن ابنها قد ظهر على
جلية الأمر . وهو يَأْسُ أو كاليأس من حب هذا الفتى . وقد ضحى
بنفسه مرة أخرى ، على أنه قد لقي من حب امرأته ما عزّاه عن تضحيته
الأولى ، فلعله يلقي من إحسانه إلى الناس ومن حب الفتاة ما يعزّيه عن
التضحية الثانية .

فاذا كان الفصل الثالث فقد مضى أسبوعان على ما كان في الفصل الثاني . ونحن نرى الشيخ في عيادته يستقبل المرضى ويطب لهم ، ولكنه متعب قد ظهر عليه السأم والضيق . حتى إذا انصرف آخر مرضاه دعا الخادم فيأمرها بأن تذهب إلى الصيدلي وتطلب إليه أن يحتال في ألا تدفع إليه إحدى مرضاه ثمن الدواء ، فهو كثير وهي فقيرة ، ولكنها عزيزة النفس لا تقبل الصدقة ، فليخدها الصيدلي إذاً وليخيل إليها أن الدواء رخيص ، وليضف قيمته الحقيقية إلى حساب الطبيب .

وانظر الى امرأة الطبيب قد أقبلت محزونة تشكو الى زوجها ضيق ابنها وانصرافه عنها وعن خطيبته ، وتلتمس لذلك العلل والأسباب ، وتخبر زوجها بأن الرسائل متصلة منذ أيام بين ابنها وبين وزارة الحرب . وهي مشفقة من ذلك ، والشيخ يعزيها في مودة وحب ، ولكنه لا يظفر من تعزيتها بشيء ، وهي تطلب إليه أن يتحدث الى الفتى ويعظه لعله يكشف من أمره شيئاً ، ولعله يرده الى حب أمه وخطيبته والرفق بهما . فيتردد ثم يذعن ، وتنصرف امرأته وترسل اليه الفتى .

وما هي الا أن يتحدثنا حتى نعلم أن الفتى قد طلب الى وزارة الحرب عملاً ، فعرضت عليه بعثة في الصين حيث الحرب قائمة فقبل . ومهما يفعل الشيخ ومهما يحتل ومهما يتلطف للفتى فلن يغير رأيه ولا عزمه . والموقف هنا بديع مؤثر حقاً . فالشيخ يصطنع اللين حيناً ، والاستعطاف والعنف حيناً ، والنذير ، والفتى ثابت لا يتزعزع عن موقفه قيد شعرة ،

ولم يتزحزح عن موقفه وهو ابن الحرب قد كوّنته كما أرادت لا كما أراد !! لقد أنفق من عمره أربع سنين في قتل وتدمير، يقتل النساء والأطفال والشيوخ والشبان، لا رأى له في ذلك ولا إرادة، ويواجه الموت يتقيه مرة ويرسله على الناس مرة أخرى، فكيف تريده على أن يكون كغيره من أبناء السلم !! إنه يعلم حق العلم أنه يمزق قلب أمه وخطيبته وقلب الشيخ أيضاً، ولكن ماذا يعنيه من هذا كله ! أليس ابن الحرب قد صورته في هذه الصورة ! فليكن مصدر ألم، وليكن مصدر موت، فكذلك أرادت الجماعة أن يكون . وقد يئس منه الشيخ، وأقبلت أمه يائسة أيضاً تسأله : أحق ما أنبأتني به خطيبتك من أنك مرتحل إلى الصين ؟ يجيبها : نعم !! فما أشد تأثير هذا الموقف بين الفتى وأمه : تستبقيه ضارعة فلا يخفل، تحاول أن تعرف السر الذي يضطره إلى هذا العزم فلا تفلح . وهي تفترض الفروض، وتتوسل إلى الفتى بخطيبته، ثم يخيل إليها أنه لا يجب هذه الفتاة فتجهد في صرفه عنها . ويكون بينهما حوار بديع مؤلم تتمثل فيه نحن إلى أي حد نسيت هذه المرأة إثمها وانصرفت عن خطيئتها، وإلى أي حد أثر هذا الإثم في نفس الشاب وأفسد عليه أمره .

وينصرف الشاب وقد أياس الشيخين من نفسه . ولكن أمه قد عرفت الآن أنه قد ظهر على جلية الأمر . . . فانظر إليها منتحبة بين ذراعي زوجها، وهو يعزّيها وينبئها بأنه قد اتهم نفسه ما استطاع

ليخفف عنها الوزر أمام ابنها . فإذا رآها تسرف في البكاء خيّل إليها أنها تبكي ندما لما تذكر من إساءتها إليه ، ولكنه لا يلبث أن يتبين أنها إنما تبكي على ابنها لا عليه . فليضحّ بنفسه مرة ثالثة ! أليس يحب هذه المرأة !! أليس يحب هذا الفتى !! فليعزّ هذه ، وليجتهد في إمساك ذلك . ولكن ليس إلى إمساك الفتى من سبيل .

فنحن في الفصل الرابع وقد أخفق الشيخ وامراته والفتاة في صرف الفتى عن عزيمته . ونحن في طولون نغر فرنسا الحربى حيث يأخذ الفتى سفينته الحربية إلى الصين . وقد أقبل الجماعة كلهم يودّعونه . ونحن في أحد المطاعم المطالة على البحر حيث السفينة وحيث يستطيع المودّعون أن يروا السفينة حين تطلع ويتبعوها بأبصارهم حتى تغيب . وأنا أعفك من هذا الحوار اللذيذ الطويل بين الشيخ وصاحب المطعم ، وانتهى مسرعاً إلى هذا الموقف البديع بين العاشقين . فقد التقيا وتعاهدا على الحب والأمانة والوفاء ، وأعلن كل منهما إلى صاحبه خبيثة نفسه . ولكن انظر إلى الفتاة تطلب إلى صاحبها أن يرفق بأمه فقد أثمت كارهة . ومن ذا الذى يستطيع أن يزعم لنفسه العصمة من الإثم ! وأن يحب الشيخ ولو قليلاً فقد كان زوجاً برّاً وأباً رحيماً . وما ذنبه في كل ما كان !!

فاذا سأل الفتى صاحبته : كيف عرفت سره ، أجابته : لقد أخبرتنى به أمك واتخذتنى سبيلاً إلى استعطافك وحملك على الرفق . وانظر إلى

الفتى وقد تأثر بهذا كله : بمكان أمه من نفسه ، ومكان هذا الشيخ
الخير البرىء ، ومكان هذه الفتاة الطاهرة المحبة تستعطفه على هذين
البأسين . وقد أقبل الشيخان ، فالفتى رفيق بهما ما استطاع ، يظهر
لأمه من العطف والمودة ما يملؤها رضىً ، ويقبل الشيخ ولكن دون أن
يقول له شيئاً ، والشيخ يرضى بهذه القبلة وهو واجم ، لأنه كان ينتظر
كلمة مودة لم يظفر بها

وقد أقبل ضابط من السفينة يتعجل الفتى ، فيودع القوم جميعاً ،
ولكنه لا يقول للشيخ هذه الكلمة التي كان ينتظرها . وقد مضى نحو
السفينة ، وهم جميعاً يتبعونه بأبصارهم ، الا الشيخ فهو على كرسيه واجم
محزون . ولكن القوم يسمعون من الفتى صوتاً لا يتبينونه ، ثم لا يلبثون
أن تبينوا ، فاذا الفتى يدعو أباه ، وإذا هم جميعاً يدفعون الشيخ دفعاً إلى
النافذة حيث يرى الفتى ويسمعه يدعو به هذه الكلمة التي كان ينتظرها:
« إلى اللقاء يا أبت ! ! . . »

زوجا ليونتين

قصة تمثيلية فكهية بقلم الكاتب الفرنسى « ألفريد كابو »

نعم هي قصة فكهية ولكنها لا تخلو من الجدة ، أو قل هي قصة فكهية ولكن كلها جد . فلن نخطئ إذا قلت هذا ، ولن نخطئ إذا قلت إن الفكاهة في هذه القصة مع أنها روح القصة وغايتها لم تتخذ في حقيقة الأمر إلا وسيلة إلى الجدة ، وسيلة إلى هذا الجد الذى يحسن ألا يقصد إليه مباشرة ، وألا يعتمد إليه الكاتب في غير احتيال وتكاف للطرق المعوجة ، إما لأن الكلام قد كثر فيه حتى أصبح حديثاً معاداً مملولاً ، فلا بد من عرضه في صور جديدة لم يألها الناس ، وإما لأنه من هذا الجد الذى تأبى الأخلاق العامة والأوضاع الاجتماعية أن يهجم عليه الكاتب في غير احتياط ولا تल्पف بالنظارة والقراء ، فهو مضطر إلى أن يحتال ويفتن في الحيلة ليسمعك ما يريبك دون أن يروعك أو يسوءك أو يشق عليك .

والجد الذى يقصد إليه كاتبنا في هذه القصة ويتخذ الفكاهة وسيلة إلى إدخاله في نفوس القراء والنظارة لا يخلو من هذين الأمرين جميعاً ،

فقد كثر الكلام فيه حتى سئمه الناس أو كادوا يسأمونه ، وهو مع ذلك دقيق لا يخلو مما من شأنه أن ينفّر الحريصين على الأخلاق والمألوف من الأوضاع الاجتماعية . ولكنه على كثرة الكلام فيه حتى مُلِّ ، وعلى دقته ومخالفته لما ألف الناس من خُلق وعادة ، خليق بالعناية حريّ بالتفكير ، لم يصل فيه الناس بعد إلى رأى قاطع مقبول . وأنت تعلم حق العلم أن القصّاص ، سواء منهم الممثل وغير الممثل ، قد عاجلوا أمر هذه المرأة اللعوب التي تخون زوجها فتسرف في خيانتها حتى تتمثل كأنها الرذيلة مجسمة ، ولكن لها من دون ذلك العبث والفجور طبيعة خيرة قابلة للصالح والطهر . وأنت تعلم أيضاً أن هذه المرأة على كثرة ما دافع عنها القصّاص والأدباء والفلاسفة لا تزال بغيضة إلى سواد الناس ، ممقوتة أمام ما اتفق الناس على أنه الأخلاق والعادات الموروثة . وأحب أن تطمئن ، فما أريد أن أدافع عن هذه المرأة ، وما أريد أن أُغيّر في الأخلاق ، ولا أن أمس هذه العادات بخير ولا بشر ، فلست أنا من هذا كله في شيء ، وما أنا بالذي يفكر في نقد النظام الاجتماعي وتغييره قليلاً أو كثيراً . إنما هي قصة أعجبتني ، وأظن أنها ستعجبك ، بل أتمنى أن تعجبك ، ولهذا أُلخصها لك ، وأعرضها عليك في غير حكم ولا تأييد . في هذه القصة خفة ورشاقة ، وفيها مجون ودعابة . ولكن من الذي حظر على الناس أن يعمدوا إلى القصص الخفيف الرشيق الذي تزيده الدعابة خفة ويزيده المجنون رشاقة فيقرءوه ويشهدوه ؟ ومن الذي يستطيع أن يزعم

أن الأدب لا يكون أدباً إلا إذا كان جيداً كله؟ ومن الذي يستطيع أن ينكر أن الدعابة والفكاهة قد تبلغان من التأثير في النفس ومن إذاعة الخير وتحبيبه إلى النفوس ما لا يبلغه أشد الجذ حوضة وعبوساً؟
على أن قصتنا ليست من هذه الدعابة الممقوتة ، ولا من هذه الفكاهة التي تضيق بها نفس الرجل الخير المتشدد في حب الخير . فهي تقارب العبث وتدنو منه فتسرف في الدنو ، حتى يخيل إليك أنها ستورط فيه ولكن الكاتب ماهر حريص على الخلق ، حريص قبل كل شيء على حس الجمهور ، وعلى حسه من ناحية الخير ، فهو لا يريد أن يؤذيه ، فهو يدنيك من هذا العبث حتى تكاد تلمسه ، ثم ما هي إلا حركة يدفع بها قلمه فإذا أنت بعيد من الإثم كل البعد ، وإذا أنت لم تشهد منه إلا هذه الناحية التي تضحكك من الشر وترغبك عنه .

وهي فوق هذا كله تعرض لطائفة من الموضوعات الاجتماعية القيمة التي لن يوفق الناس لأن يتخذوا لهم فيها رأياً قاطعاً . تعرض لموضوع الطلاق مثلاً ؛ فما لاشك فيه أن الناس سيظلون مختلفين في الطلاق ، يراه بعضهم خيراً لأنه يرفقه على الناس ويفصل بين الزوجين اللذين لا سبيل إلى أن يعيشا مؤتلفين ، ويمكنهم بذلك من حماية كرامتهم وشرفهم وآدابهم . ويراه بعضهم شراً لأنه يفصم عروة قد أحكمها الدين كما يقول المسيحيون ، ولأنه أبغض الحلال إلى الله كما يقول المسلمون . وسيظل أولئك وهؤلاء في خلاف وجدال ما احتاج الناس

إلى أن يكون بينهم الزواج والطلاق . ولكن هناك وجهاً من وجوه
الطلاق لا يفكر فيه الناس كثيراً ، وربما لم يفكروا فيه بوجه من
الوجوه ، وهم مع ذلك يحسونه ويجدون فيه اللذة حيناً والألم حيناً آخر .
ذلك أن الطلاق في حقيقة الأمر وسيلة قانونية للفصل بين شخصين
لا يستطيعان الحياة مؤتلفين ، كما أن الزواج وسيلة قانونية للجمع بين
شخصين يحبان أن يعيشا مجتمعين . ولكن المسألة هي أن نعرف
أيستطيع الطلاق بعد أن يحقق هذا الفصل القانوني أن يحقق فرقة
أخرى صحيحة فيقطع الصلة قطعاً باتاً بين الزوجين كأن لم يعرف أحدهما
الآخر ؟ كما أن هذه المسألة نفسها تعرض بالقياس إلى الزواج ، فالزواج
يجمع الزوجين جمعاً قانونياً ، ولكنه قد يعجز في كثير من الأحيان عن
أن يؤلف بينهما تأليفاً صحيحاً قوياً . ولعلك تذكر أني قد حدثتك في
هذا المكان من الهلال منذ حين عن قصة لهذا الكاتب نفسه عرض
فيها للطلاق وعجزه عن أن يفرّق بين الزوجين إذا جمع بينهما الحب
الصحيح . وهذه القصة هي قصة « المذهبين » التي رأيت فيها رجلاً
خان امرأته فأسرف في حياتها ، حتى طلبت الطلاق وظفرت به وهمت
أن تتخذ لها زوجاً آخر ، ومضى زوجها الأول في إثمه وعبثه ، ثم التقيا
فظهر أن الطلاق لم يفرّق بين قلبيهما وإن فرّق بين جسميهما ، وظهر
أنهما مضطران إلى أن يستأنفا حياتهما الأولى .

وكاتبنا في هذه القصة التي نحن بصددنا عرض للطلاق من هذه

الناحية وإن كان لا ينتهي إلى مثل النتيجة التي انتهى إليها في القصة الأخرى ، بل ينتهي إلى نتيجة مناقضة من وجه ما لتلك النتيجة . فسئرى زوجين لم يستطيعا أن يعيشا مؤتلفين ، لأن المرأة خانت زوجها فأسرفت في الخيانة ، حتى طلب الزوج الطلاق فظفر به . ولكن هذا الرجل طيب القلب ، خير الطبع ، فهو يعطف على زوجته بعد الطلاق ، ويمدّها بما تحتاج إليه من معونة ، وهو يناها بالبر والمودة أكثر مما كان يفعل قبل الطلاق ، وهو يحسّ أن هذا العطف وهذه المودة يناقضان أشد المناقضة ما ألف الناس من عادة وقانون ، فهو مضطرب بين إرضاء طبعه وعاطفته وإرضاء العرف . وهو يذعن في كثير من الأحيان للطبع والعاطفة ، ولكنه يذعن مرة للعرف فيفرّ من امرأته المطلقة ، ويختل إليه أنه بهذا الفرار سيريح نفسه من هذا الجهاد العنيف . ولكنك تعلم أن « الفريد كابو » صديق للمصادفة ، فهو يرى أن لها أعظم الأثر في تدبير حياة الأفراد والجماعات ، وقد بينت لك هذا في كل ما حللت من قصصه . وهو هنا يعرف للمصادفة هذا السلطان ويسخرها في قصته . وإذا فيستطيع صاحبنا أن يفرّ من زوجه المطلقة ، فالمصادفة كفيلة بأن تكرهما على اللقاء ، وإذا فسيظل الجهاد متصلاً بين هذه العاطفة التي تعطف الرجل على زوجته بعد الطلاق ، وهذا العرف الذي ينكر ذلك ويراه إثماً أو شيئاً يشبه الإثم ، ولا بد من تدخل المصادفة لوقف هذا الجهاد عند حدّ ما .

فأنت ترى أن هذا الوجه من وجوه الطلاق خليق في نفسه بالعناية والدرس ، وأن الكاتب مهما يصطنع من الفكاهة والمجون لدرس هذا الموضوع وتقريبه إلى الناس فليس مسرفاً ولا غالياً في العبث . ذلك إلى أن الأمر في نفسه حقيقة من الحقائق الاجتماعية التي لا تقبل الشك . فكلنا يعلم أن الطلاق كثيراً ما يعقب الندم والحسرة . وكلنا يعلم أن قد كان لهذا أثره في آداب الأمم المختلفة ، في آدابنا العربية وفي الآداب الأجنبية على كثرتها واختلافها . وإذا فهي حقيقة من الحقائق الاجتماعية يجب أن تدرس ، وأن يتخذ الأدباء إليها الوسائل المختلفة قصصاً حيناً وتمثيلاً حيناً آخر ، جداً مرة ، وفكاهة مرة أخرى . ذلك إلى أن هناك أشخاصاً من حق الأديب أو من الحق على الأديب أن يصورهم للناس ؛ فقد يكون في تصويرهم ، إلى جانب النفع الفني ، نفع خلقى واجتماعي . قد يكون هؤلاء الأشخاص اختياراً ، ففي تصويرهم ما يدعو إلى القدوة ، أو أشراراً ففي تصويرهم ما ينفّر منهم .

والحق أن الأشخاص الذين صورهم الكاتب فأحسن تصويرهم في هذه القصة قليلون . هم أربعة ليس غير ، ومن حولهم أشخاص آخرون لا يمتازون بشيء . وهؤلاء الأشخاص الأربعة قد أحسن الكاتب تصويرهم حتى أصبح من اليسير جداً أن ننقل إليك صورهم في غير إطباب ولا إطالة .

فأما أولهم فهو « أدولف ديبوا » رجل من أوساط الناس ، له ثروة

ولكنها ضئيلة ، يعمل في ديوان من دواوين الحكومة ، خير الطبع ،
رضى النفس ، مستقيم الخلق ، ضعيف الإرادة ، يكره الشر ولكنه
لا يستطيع مقاومته في سر ، ويحب الخير ولكنه يحب نفسه أيضاً ، فهو
لا يستطيع أن يعتمد على نفسه في شيء ، وإنما هو محتاج إلى من يعينه
ويرشده ويوجهه إلى سبيل الخير . وهذا الرجل هو الزوج الأول .

وأما الشخص الثاني فهو البارون ادوار دى لاجامبيير شاب من
الأشراف ، ضخم الثروة ، ولكنه كصاحبه خير ضعيف الإرادة ،
لا يستطيع المقاومة ولا يقوى على الجهاد إلا في ناحية واحدة ، وهي
الناحية المضادة لميول الأشراف وما توارثوا من عادة وسنة ؛ فهو يكره
عادات الأشراف ولا يحرص على تقاليدهم ولا يحفل بها .

والشخص الثالث هي « ليونتين » امرأة جميلة فتاة ، ولكنها
كصاحبها ضعيفة الإرادة خيرة ، غير أنها لا تستطيع مقاومة الشر ،
أو قل لا تكاد تميز بين الخير والشر ، سلطان الغريزة عليها أقوى من
سلطان العقل ، محبة للفكاهة مندفة فيها ، أو هي ترى الحياة كلها
فكاهة ، حتى تعلمها المصادفة أن هذه الفكاهة قد تستحيل إلى جد ،
فتستفيد من هذا الدرس ، وإذا هي صاحبة جد ولكنه جد باسم
لا يكاد يخلو من الفكاهة .

والشخص الرابع هي الماركيزة « دى بريسك » شبيخة من الأشراف ،
هي عمه البارون دى لاجامبيير ، محافظة ، مسرفة في المحافظة ، سيئة

الخلق ، طويلة اللسان ، ميالة مع هذا إلى الخير .
هؤلاء هم الأشخاص الذين تقع بينهم القصة . وهناك أشخاص
آخرون كثيرون تأتي بهم المصادفة ليتم تدبير ما سيقع من الحوادث
دون أن يكون لهم في أنفسهم خطر .

فإذا كان الفصل الأول فنحن عند « أدولف » في بيته في باريس ،
نشهد شاباً قد أقبل يطالب بقسط من الأقساط المالية ، فتظن الخادم
أنه يطالب بالقسط المستحق من ثمن البيانو الذي اشتراه سيدها ، فتدفع
إليه خمسين فرنكا ، فيضحك ويطلب ألفين . فإذا سمعت الخادم هذا
الرقم جزعت وفزعت إلى سيدها ، فيقبل ويعد الشاب بالأداء بعد
دقائق . وما هي إلا أن يصل صديق له عضو في مجلس النواب اسمه
« بلانتين » يحمل إليه هذا المقدار فيأخذه ويدفعه إلى الشاب .
والخادم ساخطة تلوم سيدها لوماً عنيفاً ؛ فهي تعلم أين يذهب هذا
المال ، هو يذهب في حاجات زوجه المطلقة . ومع ذلك فقد أضاعت
هذه المرأة على زوجها أكثر ثروته ، ثم خانتها فأسرفت ، حتى إذا طلقها
اتخذت صناعة المومسات ، وهي مع ذلك لا تستحي أن تلجأ إلى
زوجها القديم كلما مسها الضيق ، وزوجها القديم لا يستحي أن يعينها
كلما لجأت إليه . ثم تنصرف الخادم مغضبة ، ويأخذ النائب في النصح
لصديقه ألا يفعل ، وصديقه يرى رأيه ويقبل نصحه . ولكن الخادم

تعود فتعلن إلى سيدها أن زوجها مقبلة ، فيضيق الرجل ذرعاً ولكنه يستقبلها . فإذا دخلت رأيت امرأة خفيفة الروح ، حلوة الحديث ، مستخفة بكل شيء ، قد أقبلت على زوجها القديم مطمئنة واثقة تتحدث إليه في غير تكلف . وزوجها يخشى أن تكون قد أقبلت تطلب بعض المال فهو يدافعها عن ماله . ولكنها لم تقبل لشيء من هذا ، إنما أقبلت لشيء آخر ؛ ذلك أنها غضبت على صاحبها فطرده ، أو غضب عليها صاحبها فانصرف عنها ، وكانت قد استدانته فعبزت عن أداء الدين ، وباع الدائنون متاعها ، وأصبحت وليس لها مأوى . وهي تبحث عن بيت ، ولكنها تريد مأوى حتى تجد هذا البيت وتهيئه للسكنى . وقد فكرت في صديقاتها ولكنها استحمت منهن ، فلم تجد إلا زوجها . فيدافعها الرجل عن بيته ، ويشجعه صاحبه على الدفاع . وتقبل المرأة رفض زوجها راضية غير مكترثة في ظاهر الأمر ، حتى إذا انصرف النائب عنهما أقبلت إلى « البيانو » فأخذت تعزف لاعبة باكية في وقت واحد . وعجز صاحبنا عن المقاومة فأذن لها أن تبقى عنده . وهو يفكر في تدبير الأمر فسينزل لها عن غرفته وسينام في غرفة الاستقبال . أما هي فلا تريد أن يفسد النظام في غرفة الاستقبال بهذا السرير الذي سيضاف إليها ، وهي لا ترى بأساً أن تقاسم زوجها غرفته ، ولكن الزوج يرى في ذلك البأس كل البأس ، فتقبل منه ذلك ضاحكة غير حافلة . وهل تحفل بشيء ؟ . . .

وانظر إليها قد نهضت فنظرت في غرفة الاستقبال فلم يعجبها تنسيق
المتاع ، فهي تقترح تغيير النظام ، تريد أن تنقل هذا المتاع من مكانه
وتضع مكانه متاعاً آخر . وزوجها يرى رأيها وكأنه قد نسي الطلاق
وخيل إليه أنهما في حياتهما الأولى . وانظر إليها بعد هذا تطاب إلى
زوجها شيئاً من النقود ، وتكلف الخادم أن تشتري شيئاً من الزهر
تزين به هذا البيت . ثم انظر إليها تداعب زوجها ، وهو يقاوم أول
الأمر ثم تضعف مقاومته حتى يوشك أن يزل ، لولا . . . زيارة تفصل
بينهما . فقد أقبلت صديقتان لزيارة « ليونتين » وكانت قد أنبأتهما
أنها ستلجأ إلى عمها فتقيم عنده حتى يجعل الله لها من ضيقها مخرجاً ،
فتقبلان وتقدم إليهما « ليونتين » أدولف على أنه عمها .

فإذا خلا النساء إلى أنفسهن قالت إحدى الصديقتين لليونتين : إن الله
قد هيا لها مخرجاً من هذا الضيق ، فإن البارون « ادواردى لاجامبيير »
الذى رآها منذ سنة مفتون بها ، وهو يلتمسها ويريد أن يتخذها
خليلة له ، وهو مقبل لزيارتها بعد حين ، تقولان ذلك وتنصرفان .
ويأتى الزوج وهو مضطرب في دخيلة نفسه ، واثق بالزلل إن أقام مع
امرأته ، عاجز عن أن يرى لنفسه مخرجاً من هذه الأزمة . ولكن
صديقه النائب قد عاد يخبره بأنه مسافر ، فيطلب إليه أن يصطحبه
ليخرج من هذه الأزمة ، ويقبل النائب . وانظر إليه يعلن إلى زوجته
أنه مسافر الآن لأمر طراً ، وأن سفره قد يطول ، وأنها مطلقة التصرف

في البيت ما لم تسيء السيرة ، وأن خادمه متصلة بشخصها ، وأنه تارك لها مقداراً من المال يقترضه من صاحبه ، وهو يهيبه حقيقته وينصرف وما هي إلا أن يُقبل البارون ومعه صديق له أستاذ في مدرسة من مدارس الزراعة في الأقاليم . فإذا استأذنا وأذن لهما انتظرا لحظة نراها فيها وحدهما فنعرف أن البارون على ذكائه ومهارته في تصريف الحديث مفحم أمام النساء ، ولا سيما حين يعجبينه ويقعن من نفسه .

وما هي إلا أن تدخل « ليونتين » حتى يظهر اضطرابه وعجزه وحتى تسخر منه في نفسها ، و يظهر في الوقت نفسه لسن هذا الصديق الأستاذ وفصاحته ، وإذا « ليونتين » مفتونة بهذا الأستاذ . ولست أطيل عليك بتلخيص ما يقع بينهم من حديث ، ولكن الأمر ينتهي بدعوة إلى العشاء وقبول لهذه الدعوة وخروج الثلاثة إلى حيث يطعمون

فإذا كان الفصل الثاني فنحن في مدينة من مدن الأقاليم ، في دار الأستاذ الذي رأيناه في الفصل الأول ، وقد أقبلت لزيارته واستشارته المركيزة « دي بريسك » ومعها ابنة أخ لها جميلة يقال لها « أورتنس » . وأورتنس هذه تنبى عمتها أنها كادت تفقد الحياة لولا أن رجلاً أنقذها ورد عنها فرساً جامحاً كاد يقتلها . وعتتها تسخر منها ومن صاحبها الذي أنقذها ، كما تسخر في غضب وسخط من ابن أخيها البارون « دي لاجامبيير » الذي تزوج امرأة مطلقة من باريس خارجاً بذلك

على تقاليد الأشراف وأصول الدين . وهذه الشيخة مغضبة محنقة على كل شيء ، ترى أن النظام الجمهورى مسئول عن كل الشرور حتى التي لا عمل للناس فيها . أليست الجمهورية هي التي استحدثت هذه العلل التي تصيب الكروم فتفسدها !! وقد أقبلت هذه المرأة تستشير أستاذنا الزراعى فى أحدها ! . ولكن الأستاذ قد أبطأ ، فتصرفان على أن تعودا بعد حين .

وَيُقْبِلُ الأُسْتَاذُ وَيُقْبِلُ البارون ويتحدثان . فنفهم من حديثهما أن البارون لم يكذب يرى « ليونتين » حتى فتن بها واعرزم أن يتخذها له زوجاً ، تردد فى ذلك أياماً ثم صحّت عزيمته فتزوجها ، لم يحفل بأحد ولم يدع أحداً ، وهو سعيد بهذا الزواج منذ ثلاثة أشهر ، وامرأته سعيدة أيضاً . وهو يلتمس لها العذر فيما اقترفت من إثم قبل أن يتزوجها ، فذنب ذلك على زوجها الأول ، ذلك الرجل المجرم الذى كان يشرب حتى إذا سكر عاد إلى بيته فأذاق امرأته ألوان العذاب . وآية ذلك أن المحكمة حكمت عليه بالطلاق لا على زوجته . هو إذاً راض عن حظه مغتبط به ، وصاحبه الأستاذ يهنئه ويغبطه ، وهو يعلمّ زوجته اصطناع البسكليت ، وهو معجب بجمالها فيما تتخذ لهذا الغرض من زى ، معجب بكائها وسرعة إتقانها لهذا الفن .

ثم نفهم من حديثهما أنه ساع لصديقه الأستاذ فى أن ينال أحد الأوسمة ، وأنه لا بد لذلك من عريضة توقعها أعيان الإقليم . والأستاذ

قد هيا هذه العريضة وسيمضيها البارون ويحمل عمته على إمضائها ،
فسيكون لذلك أثره ، وإن كانت عمته ساخطة عليه مغاضبة له . وقد
أقبلت « ليونتين » في زىّ البسكليت جميلة خلابة مبتسمة للحياة ،
راضية عن كل شيء ، حلوة الحديث ، لذيدة الفكاهة ، فتتحدث
حيناً ، ونفهم من الحديث أن زوجها مضطر إلى أن يغيب عنها ساعات
تقضيها هي في درس البسكليت ، ثم ينصرف الزوج حيناً ، فإذا بين
الأستاذ وبين « ليونتين » إثم قديم العهد لأنها أحبته منذ رآته وأحبها
هو أيضاً . ولكنه خائف ، أما هي فلا يعرف الخوف إلى نفسها سبيلاً .
وانظر إليها قد أخذت تداعبه ، وهو يجيبها كارهاً ، ثم تدنو منه وما
تزال تدنو حتى تكون بين ذراعيه ، وهو يقبلها وهي تقبله ، وهي
تكرهه على أن يضرب لها موعداً إذا انصرف زوجها ، وهو يتأبى ،
ولكنها تكرهه وتلح عليه وتقول له في قبلة : « إلى اللقاء بعد حين » .
وفي أثناء ذلك يفتح الباب وتظهر الشيخة ، فإذا رأت هذا المنظر
انصرفت مغضبة وافترق العاشقان ولم يحسا شيئاً .

ثم يعود البارون وتنصرف امرأته إلى البسكليت . وبينما هو في
حديث مع الأستاذ إذ تستأذن الشيخة فتدخل في جد وحشمة ، وتطلب
إلى الأستاذ أن يزور زراعتها غداً أو بعد غد وتهم بالانصراف . ولكن
ابن أخيها يستوقفها ويريد أن يتقرب إليها ، فيتركهما الأستاذ حيناً
فيتحدثان . ونفهم من حديثهما أنها لا تعترف بزواجه ، وإنما ترى أنه

اتخذ له خلية وليس في ذلك بأس . غير أن الشاب يطلب إليها توقيع العريضة فتأبى في غضب لأنها تزدرى هذا الأستاذ ، وكيف لا تزدرى به وقد رأت بين ذراعيه منذ حين امرأة جميلة في زى البسكليت ما ترى إلا أنها من مومسات باريس !! يدهش الشاب لأنه كان يرى صديقه الأستاذ أبعد الناس عن العبث واللهو . فإذا ألح في هذا الدهش وألحت عمته في الوصف والتفصيل ، تطرق الشك إليه فيستوصف عمته ، فتفصل الوصف ، فيستحيل الشك يقيناً ، وإذ هو مصعوق ، وإذا عمته تقول في سخرية : أخشى أن أكون قد أسأت إليك عن غير عمد . ولكن صاحبنا يريد أن ينتقم وهو يريد البينة قبل الانتقام ، وقد أخبرته عمته أن العاشقين تواعدا على أن يلتقيا بعد حين ، فيخرج وتخرج معه عمته للاستعانة بصاحب الشرطة . وقد عاد الأستاذ إلى غرفته ، وهو يحدث نفسه كارهاً لهذا الموعد ، معلناً أن الدرس والمرأة لا يجتمعان . ولكن المرأة قد أقبلت فتداعب وتعبث حتى تصرف الرجل عن درسه ، ثم تنسل في لطف إلى غرفة النوم وقد تجردت من ثيابها ، وهي تدعو إليها صاحبها في دعابة ورشاقة ، وصاحبها يقبل عليها كارهاً . ولكنه يسمع وقع أقدام ، ثم يحس طرق الباب ، ثم يستيقن أنه الزوج قد أقبل ومعه صاحب الشرطة ، فيضطرب ويشتد اضطرابه ، ويحاول أن يحمل صاحبتة على الفرار . ولكن كيف تفر وهي عريانة !! . أما هي فهادئة مطمئنة ، تأمر صاحبها أن يفتح الباب . وقد فتح الباب ، ودخل

الزوج ، ودخل صاحب الشرطة ومعه كاتبه . ولكننا لا نكاد نرى صاحب الشرطة حتى يأخذنا الدهش ثم الإغراق في الضحك ؛ ذلك أن صاحب الشرطة هو « أدولف ديبوا » الزوج الأول لليونتين ، أرادت المصادفة أن يكون مدير الشرطة في هذه المدينة منذ أيام .

يأخذ صاحب الشرطة في كتابة المحضر مستعيناً بكاتبه ، حتى إذا أراد أن يرى المرأة الخائنة أنبيء أنها لا تستطيع أن تظهر له فيسجل ذلك في المحضر . و بعد حين يفتح باب الغرفة وتخرج « ليونتين » . . . فتدّر دهشها ، وقدّر بنوع خاص دهش صاحب الشرطة وقد رأى امرأته في هذا الموقف . ولكنهما يجتهدان في اخفاء هذا الدهش ، ويحاول الرجل أن يمضى في عمله فيأخذ في سؤال « ليونتين » فتطلب إليه « ليونتين » أن يأذن لها في توجيه الكلام لحظة الى هذين الرجلين زوجها وعاشقتها . فتسأل الزوج ماذا يريد ؟ يجيبها الطلاق في أسرع وقت . وتسأل الأستاذ ماذا يريد أن يصنع ؟ فيجيب أنه لا يريد شيئاً ، فهو رجل درس ، وكل ما يعنيه أن ينصرف إلى عمله . هو إذاً متخل عنها . . . هو إذاً رجل لا شرف له ولا مروءة وقد كانت أحبته لأنها كانت ترى فيه جدّاً واستقامة . أما زوجها فيسألها ماذا تريد أن تصنع هي ؟ تجيبه وما يعنيك من هذا ؟ فيقول : انك ستظلين زوجي حتى يفرق الطلاق بيننا ، فمن الحق أن أعرف الامّ تصيرين . عجيب ! ساذهب إلى حيث كنت ، الى بيت عمى فهو خير كريم . ولا يكاد

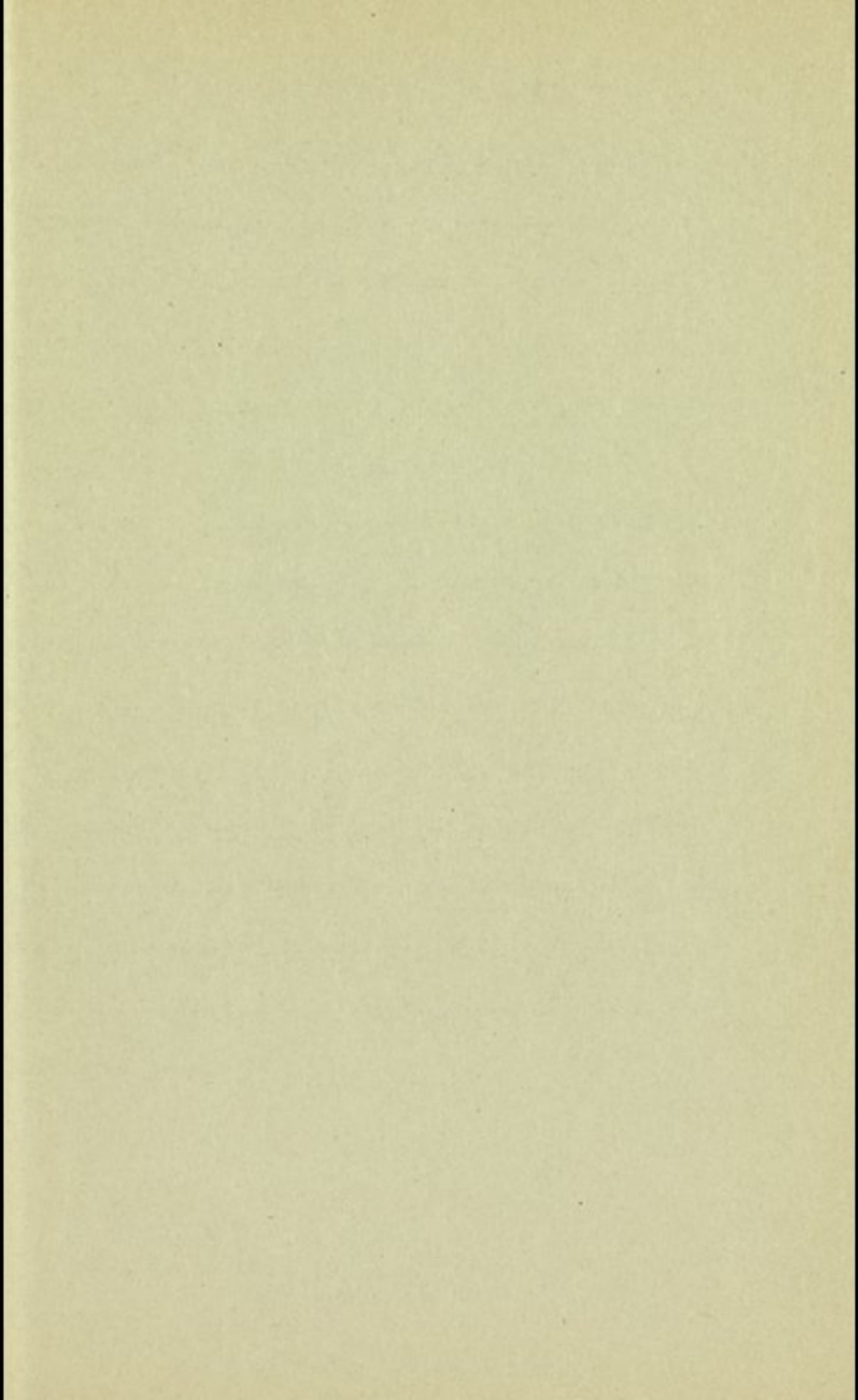
صاحب الشرطة يسمع هذا حتى يملكه غضب لا حد له ، فهو يحس أن «ليونتين» ستعود اليه ، وهو انما ترك باريس فراراً من «ليونتين» وهو يريد أن يتقيها ما استطاع الى ذلك سبيلاً . وانظر اليه بأبي أن يمضى فى كتابة المحضر على وجهه ، ويعلن أنه لم ير إثمًا وانما رأى سيدة محتشمة عند الأستاذ . فلا تسل عن سخط الزوج وحنقه . ولكن صاحب الشرطة ملح ، ثم ينتهى الأمر بأن يطلب صاحب الشرطة الى الزوج أن يتحدثا لحظة على خلوة ، فيتفرق عنهما الناس ، ويأخذ « أدولف » فى النصيح لهذا الشاب بأن يعدل عن الطلاق ، وما يزال به يبغض إليه الطلاق ويحبب إليه العفو والمغفرة حتى بلغ منه ما أراد . وقد عادت المرأة ، فيتركهما لحظة يتم فيها الوفاق بينهما ، ويعود وقد استقام له الأمر كما كان يحب ، فلن يكون طلاق ولا خصومة ، ولن تلجأ اليه «ليونتين» . ولكن الزوجين قد أحباها لأنه أصلح بينهما وأحبهُ الزوج بنوع خاص ، فهو يدعوهُ الى العشاء ، وامرأته تلح فى الدعوة . وإذا فقد كان يريد أن يفلت من «ليونتين» فأصبح مكرهاً على عشرة «ليونتين» .

فاذا كان الفصل الثالث فقد مضت أيام على هذه الحادثة ، ونحن فى قصر البارون نرى «ليونتين» تؤنب خدماها فى رفق وفكاهة ، وقد أقبل « أدولف » مدعواً الى الغداء ، ففتلقاه «ليونتين» مبتهجة

بلقائه وهو ضيق الصدر بهذه المودة ، ضيق الصدر خاصة بمكانه من البارون الذى يجهل كل شىء مما كان بين « ادولف » و « ليونتين » وهو ينجىء « ليونتين » بأنه قد غير اسمه الخاص عندما سأله عنه البارون ، وبأنه يلتمس طريقاً للانتقال من هذه المدينة حتى لا يضطر إلى معاشره الزوجين . ولكن « ليونتين » لا تريد أن يفارقهما ، وهى لا ترى فى شىء مما كان بأساً . ونحن نحس فى كل أحاديثها أن قد تغيرت حقاً منذ تلك الحادثة التى رأيتها فى الفصل الثانى ، تغيرت فأصبحت خيرة طيبة النفس ، طاهرة الطبع شديدة البغض للآثم والخيانة ، محبة لزوجها ، شديدة الحرص على الوفاء له ، عافية عن الآثمين متجاوزة عن آثامهم . وقد أقبل الزوج فاذا هو أشد من امراته حباً لأدولف ووفاء له واعترافاً بجميله . والرجل مضطرب ضيق الصدر بين هذين الزوجين . ولكن حب البارون لأدولف لا حد له ، فهو يريد أن يلتمس له زوجاً ويضن به على هذه الحياة التى تنغصها الوحده ، وامراته تشاركه فى هذا الرأى . وما هى إلا لحظة حتى يهتدى الزوجان إلى القرينة الملائمة . وما الذى يمنع « أدولف » من أن يتزوج ابنة عم البارون « أورتنس » فهى جميلة غنية خيرة ! أما أدولف فلا يرى فى هذا إلا نوعاً من المزاح . ولكن « أورتنس » قد أقبلت ، فلا تكاد ترى « أدولف » حتى تدهش . فهو الذى أنقذها من الموت . وما يكاد ابن عمها يخلو إليها ويحدثها فى هذا الزواج حتى تظهر الرضا والاطمئنان ، فالقوم جميعاً

سعداء ، ولا سيما بعد أن أقبل النائب « بلانتين » يزور البارون فيلقى صديقه « أدولف » وصاحبته « ليونتين » ويكون في هذا كله اضطراب غريب مصدره حرص « أدولف » على ألا يظهر اسمه الحقيقي ، وحرصه أيضاً على ألا تظهر المعرفة و « ليونتين » . وتكلف هؤلاء القوم جميعاً الحيلة في إخفاء الأمر على البارون . هم ينجحون في هذا التكلف ، وهم كما قلت لك سعداء ينتظرون الدعوة إلى المائدة . ولكن المصادفة لم تفرغ بعد من عملها ، فقد أقبلت عمّة البارون الشيخة ، نخلت إلى ابن أخيها لحظة تسأله عن أمر الطلاق ، فلا يستطيع أن يخبرها بأن قد تمّ الصلح بينه وبين امرأته ، فيزعم لها أن القضية تجري مجراها . ولكن الشيخة قلقة لأن ابنة أخيها « أورتنس » مشغوفة بحب هذا الرجل الشرطي الذي أنقذها من الموت ، وهي تخشى أن ينتهي هذا الحب إلى الزواج . فاذا سألتها ابن أخيها وأى بأس في ذلك ؟ أجابت أنها الفضيحة ، فإن هذا الرجل قد طلق امرأته . فيدهش الشاب لأنه كان يقدر أن صاحبه لم يتزوج ، فتؤكد له عمته ذلك وتخرج له وثيقة استخلصتها من المحكمة في باريس وفيها أن هذا الرجل واسمه « أدولف ديبوا » قد كان سكيراً يضرب امرأته ، فطلقت امرأته عليه ، ثم أثبتت لابن أخيها أن هذا الرجل هو بعينه الذي عين منذ أيام مديراً للشرطة . فقد رأيت دهش الشاب واضطرابه حين يعلم أن صاحب الشرطة هو الزوج الأول لامرأته ، واسمع لعمته تقول له الآن كما قالت له في الفصل الثاني : أخشى أن

أكون قد أسأت اليك عن غير عمد يا ابن أخي ! . وقد انصرفت عنه
وتركته في هياج واضطراب . فانظر اليه وقد دخل عليه « أدولف »
ومعه « ليونتين » كيف يستقبل صاحبه مضطرباً ساخطاً صاخباً ، يعلن
إليه اسمه وصناعته الأولى في باريس وقضيته مع امرأته . . . والرجل
يعترف بكل شيء في وجوم ودهش ، حتى اذا فرغ من هذا أعلنت
« ليونتين » أن « أدولف » لم يكن في يوم من أيام حياته سكيراً ولا
شريراً ، لم يضربها ولم يسيء اليها ، وإنما هي التي خاتته فأراد الطلاق ،
وكره أن يكون الحكم عليها فقبل أن يتهم نفسه وأن يقع الطلاق عليه
هو ، ثم تتبع امرأته بعد الطلاق بالبر والعطف ، حتى كان هذا الحادث
الأخير . وانظر اليها ترفق بزوجها وتترضاه في خفة ودعابة وطهر حتى
تأخذ يده فتضعها في يد زوجها الأول . وتدخل « أورتنس » ومعها
النائب يستعجلان الغداء . فيضع البارون ذراع « أدولف » في ذراع
« أورتنس » وقد سماه باسمه هذه المرة . فاذا سمع النائب ذلك أظهر
الدهش ، فينبئه صاحبه أن قد عرف الرجل كل شيء وهم يتقدمون إلى
المائدة والخادم مقبلة وفي يدها زهر تقدمه الى سيدتها كأنما تهدي هذا
الزهر الى هذين الخطيبين .



المسألة

قصة تمثيلية بقلم الكاتب الفرنسي « مارسل بانيول »

ليس هذا العنوان ترجمة دقيقة للعنوان الفرنسي ، وربما لم يكن ترجمة مقاربة . فالعنوان الفرنسي يشير إلى نوع خاص من اللهو ، هو هذا الضجيج الأمريكي الذي شاع في الحانات والملاهي والذي يسمونه الجاز باند . وإذا كنت لم أعن بالترجمة الدقيقة لهذا العنوان ، فذلك لأن هذا العنوان نفسه لا يدل على القصة ولا يختصرها ولا يدل على جزء مهم من أجزائها ، إنما يدل على شيء إضافي مرّ في القصة عرضاً . ومن حقنا أن نتساءل : لِمَ اتخذ الكاتب لقصته هذا العنوان ؟ وما باله لم يلتمس لها عنواناً يلائم موضوعها أو أشخاصها ملائمة صحيحة ؟ على أن هذه الخصلة ليست وحدها الخصلة الغريبة في هذه القصة ، فالقصة كلها غريبة في حقيقة الأمر : غريبة في تصورها ، غريبة في عرضها ، غريبة في نتيجتها ، ولكنها على ذلك قيمة لذيذة ، أو قل إنها لذلك نفسه قيمة لذيذة . والحق أنك في حاجة إلى أن تقرأ هذه القصة مرتين ، وربما احتجت إلى أن تقرأها أكثر من مرتين ، لا لتفهمها ففهمها سهل

يسير ، ولا لتشعر بقيمتها الفنية فأنت شاعر بهذه القيمة متى بدأت في القراءة ، ولكن لتبين الغرض الذي إليه قصد الكاتب حين وضع قصته . ولست أدري أمن اليسير بعد القراءة مرة أو مرتين أو ثلاثاً أن تقطع بالغرض الذي قصد إليه الكاتب . ومن يدري ! لعله لم يقصد إلى غرض بعينه ، ولم يفكر إلا في أن يعرض عليك قصته كما تصورها ، تاركاً لك أن تستنبط منها ما تشاء .

ومهما يكن من شيء فأنت مضطر إلى أن تلاحظ في هذه القصة أمرين : أحدهما نعي شديد على العلماء الذين يقفون حياتهم على العلم وحده وعلى العلوم التي تمس الآداب بنوع خاص . فموضوع القصة رجل من هؤلاء العلماء وقف حياته على اللغة اليونانية . والكاتب لا يعرض علينا أمر هذا العالم وحده ، ولكنه يعرض علينا من قريب أو بعيد أمر قوم آخرين يعملون في كلية من كليات الآداب منهم الأستاذ ومنهم الطالب . والثاني صراع عنيف بين الحياة العلمية الجافة والحياة العملية التي لا تخلو من لذة ودعة ولين . فهل قصد الكاتب إلى أن يبعث إلى الناس هذه الحياة العملية الخشنة التي يسرف فيها بعض العلماء حتى يجعلوها أشبه برهبانية الرهبان ونسك الناسكين ، مزدورين في سبيلها عواطف النفس وأهواءها ، وحاجات الجسم وما تستتبعه هذه الحاجات من لذة وألم ؟ أم هل قصد الكاتب إلى أن يسخر من هذا اللون من ألوان البحث العلمي ، ويبين أنه إذا كان

هناك نوع من العلم خليق بأن يقف الإنسان عليه حياته فليس هو هذا النوع الذي يفرغ له الباحثون عن اللغات وعن اللغات القديمة بنوع خاص؟ أم هل قصد إلى أن يسخر من البحث العلمي بوجه عام؟ أخشى أن يكون قصد إلى هذا كله في وقت واحد، أخشى أن يكون قد قصد إلى ما يقصد إليه الشبان في هذا العصر الحديث، ولا سيما بعد انتهاء الحرب الكبرى، من تمجيد الحياة العملية والإعراض عن هذه الحياة العامة الخالصة، بحجة أن هذه الحياة العملية هي وحدها المنتجة، وهي الملائمة لطبيعة الأشياء وحاجات الناس ومذهب المنفعة بعبارة موجزة .
ومهما يكن الغرض الذي قصد إليه الكاتب فإن قصته لا تخلو من لذة قوية ونفع كثير . ولو لم يكن للكاتب إلا هؤلاء الأشخاص الذين قد صورهم فأحسن تصويرهم لكانت قصته خليقة بالعناية، فكيف وقد وفق فوق هذا لطائفة أخرى من المعاني تبشر بأن سيكون له في فن التمثيل مستقبل لا بأس به .

على أني لا أحب أن أبدأ في تحليل القصة وعرض أشخاصها عليك قبل أن ألاحظ أن الفصل الثاني من هذه القصة خليق أن يمحي، فليست إليه حاجة فنية، وربما كان من الإتقان الفني أن يترك الكاتب للقارئ أو للنظارة تقدير ما جاء فيه . على أن هذا الفصل نفسه لا يخلو من فكاهة رائقة وتفكير عميق . ولعل هذا هو الذي حمل الكاتب على أن يضحى بالفن التمثيلي في سبيل الفن الأدبي الخالص .

الأشخاص الذين يستحقون أن يُعرَضوا في هذه القصة أربعة ،
أولهم جان بليز وهو رجل في السابعة والخمسين من عمره ، أنفق حياته
كلها في درس اللغة اليونانية ، ووفق في هذا الدرس إلى حظ
من الفوز فتن به الناس جميعاً فنال أوسمة الشرف كلها من
حكومته الفرنسية ، وهو يوشك أن ينتخب عضواً في المجمع العلمي وأن
يختار أستاذاً لليونانية في السوربون . وهو في سبيل هذا المجد العلمي
قد أخذ نفسه بألوان من الشدة في حياته ، فرفض الحب رفضاً قاطعاً
وانصرف عن النساء وعن لذات الحياة كلها . ثم لم يكتف بهذا بل خيل
إليه أنه من هذه الطائفة المختارة التي خلقت لتفود الإنسانية وترقيها .
وهو مطمئن إلى هذه المكانة ، مقتنع بأنه قد أصبح من الخالدين ،
وهو يزدري الحياة العملية والذين يضطربون فيها ، لا يؤمن لهم إلا
بأنهم خدم يهيئون للعلماء حاجاتهم فيعينونهم على تأدية ما يؤدونه من
نفع هذا النوع الإنساني . وهو بهذا كله مؤمن ، مقتنع بإيمانه ، لا يقبل
فيه جدالاً ولا نزاعاً . ولكن نفسه على شدة اقتناعها بهذا كله لم
تستطع أن تقهر حسه ولا أن تغلّه ولا أن تلطف من حدة شعوره فهو
في جهاد متصل بين العلم والهوى . وأكبر الظن أنه إنما أمعن في العناية
بالعلم ووقف حياته عليه حين أحس الإخفاق في الحب ، وأشفق ألا
يعجب النساء . وآية ذلك أن هذا الجهاد قد بلغ من العنف أن آذاه

وأضناه وظهرت آثار هذا الأذى في مجموعته العصبية التي نشعر منذ الفصل الأول بأنها قد أخذت تضعف وتضطرب حتى أشفت عليه خادمه أن يكون قد أصيب بأحد أمراض المعدة . وقد وفق الكاتب توفيقاً غريباً لأن يعرض علينا شخصية هذا الرجل عرضاً قوياً ، فقد ألف هذا الرجل من شخصين مختلفين : أحدهما هو هذا العالم الذي عرضته عليك ، والآخر شاب يمثل هذا الرجل حين كان طالباً وحين كانت نفسه تنازعه إلى الحب والنساء ، وجعل الصراع بين هذين الشخصين مادياً خارجياً يرى بالعين .

الشخص الثاني عميد كلية الآداب ، وهو رجل متقدم السن عالم ولكن فيه عيوب أمثاله من العلماء الذين يشغلون المناصب ويحرصون على أن يرضى عنهم الجمهور والرؤساء ؛ فهو حسود مسرف في الحسد ، وهو منافق غال في النفاق ، وهو إلى ذلك جبان عظيم الحظ من الجبن ، وهو يتقن العلم ويظهر الإيمان به ولكنه في حقيقة الأمر يزدرية ويشك فيه .

الشخص الثالث فتاة في ريعان الشباب هي سسيل بواسيه طالبة في الجامعة تدرس اللاتينية واليونانية ، جميلة ولكنها فقيرة ، تعنى بأن تعيش ، ولا تكاد تفكر فيما يفكر فيه الفتيات من حب أو هو ، مستعدة كل الاستعداد للتضحية ، ولكنها لا تكاد تحس الحب حتى تظهر فيها الأثرة ويظهر عجزها عن التضحية .

الشخص الرابع فتى صربي هو ستيبانوفيتش كان من جنود الحرب الكبرى ، أبلى فيها بلاء الأبطال ، فلما انتهت عاد إلى مهنة التعليم التي كان يعيش منها ، ثم بدا له فجاء إلى فرنسا يتم درس اليونانية ، وهو كبير النفس صبور محتمل للمكروه في سبيل العلم ، لا يتردد في أن يتخذ صناعة الحمال في محطة السكة الحديدية ليتمكن من الدرس . وهو رقيق النفس قوى العاطفة ، ولكنه يعرف كيف يكتف حبه ، فإذا ظهر له أنه يستطيع أن يعلن هذا الحب دون أن يتجاوز الحق والعدل مضى في ذلك غير مشفق ولا متردد ولا محجم عن أشنع أنواع القسوة . هؤلاء هم أشخاص القصة ، فلننظر كيف يضطربون فيها .

نحن في مدينة جامعية من مدن الأقاليم ، في دارجان بليز آخر النهار ، وقد ذهب الأستاذ إلى الجامعة ليلقى درسه . فإذا رفع الستار رأينا خادمه تتحدث إلى صديق أقبل ليزوره ومعهما عميد كلية الآداب قد جاء وكأنه يحمل نذير سوء . ثم ينصرف هذا العميد منذراً بعودته . فإذا خلت الخادم إلى صديق سيدها أخبرته بأن سيدها متعب مضطرب الأعصاب قد يتحدث إلى نفسه إذا جنه الليل ، وعملت ذلك باضطراب في المعدة ، وعلل الصديق ذلك بالوحدة .

ثم يأتي الأستاذ فإذا كانت بينه وبين صديقه التحية المألوفة وجلسا يتحدثان فهمنا أن هذا الأستاذ قد ذهب مرة إلى مصر فوجد في بعض

أديرتها نسخة قديمة كتب عليها الإنجيل باللغة اللاتينية ، ثم تبين أنه قد كان مكتوباً قبل الإنجيل شيء باللغة اليونانية ، فحذا الإنجيل وأخضع نسخته لعمل كيميائي ممكنه من كشف الأصل لهذا النص اليوناني فإذا هو كتاب من كتب أفلاطون يقال له « فايثون » . ولكن هذا الأصل كان مضطرباً قد عبث به الزمان فلم تبق منه إلا كلمات وجمل منها التام ومنها المبتور ، فجدت في ذلك حتى أصلحه وأتمه . وقد أنفق في هذا العمل أعواماً طويلاً ، ثم نشره فاضطرب له العلماء في أقطار الأرض وكادوا يُجمعون على أن هذا الأستاذ قد أخرج للناس أقوم أثر من آثار أفلاطون من الوجهة اللغوية والأدبية والفلسفية . وعرفت الحكومة الفرنسية لهذا الأستاذ حقه فكافأته بالأوسمة ، وهي تريد أن تنقله إلى السوربون ، وهو يوشك أن يكون عضواً في المجمع العلمي . ويحدث بهذا كله صديقه الذي لا يكاد يفهم منه شيئاً لأنه يعمل في التجارة . فإذا ظهر منه عجزه عن الفهم كانت بينه وبين صاحبه مناقشة رأينا منها كبرياء الأستاذ بعلمه وازدراءه لغيره من الحياة والأحياء . وبيننا هما كذلك إذ تقبل سسيل بواسيه إحدى تلاميذ الأستاذ تريد أن تستعير من أستاذها كتاباً فيعيرها إياه . ولكنهما لا يكادان يتحدثان حتى نحس من الأستاذ ميلاً خاصاً الى هذه الفتاة وعطفاً عليها ومن الفتاة إعجاباً بالأستاذ . والفتاة لم تأت في حقيقة الأمر لتستعير الكتاب ، إنما جاءت لتعرض على أستاذها أن رفيقاً لها من الطلبة هو

ستيبانوفيتش قد ضاقت به سبل الحياة فهو مضطر الى أن يعود الى وطنه ، وقد تعاون رفاقه فيما بينهم فجمعوا له مقداراً من المال ، ولكنهم لا يعرفون كيف يدفعونه اليه لأنه شديد الكبرياء ، فهم يتوسلون بالأستاذ ليؤدى إليه هذا المقدار . فإذا سمع الأستاذ هذا ، رد المقدار إلى الفتاة ووعدّها بأن يصلح من أمر الفتى ، ثم أخذ يلومها لأنها لم تحسن كتابة الموضوع الذى طلب إليها كتابته باليونانية . وتنصرف الفتاة ، ويأتى الفتى الصربى مودّعاً الأستاذ ، فلا يمكنه الأستاذ من أن يتكلم ، بل يفجؤه بأن يعلن إليه أنه سيطلع كتاباً من كتب كسينوفون ، وقد أعد لهذا الكتاب شرحاً وتعليقاً ، ولكن أوراقه فى حاجة إلى الترتيب والنسخ ، فهو يكلفه هذا العمل ويأجره عليه ويدفع إليه بعض هذا الأجر مقدماً والفتى مغتبط بهذا لأنه يمكنه من إتمام الدرس وتأدية الامتحان دون أن يؤذى كبرياءه .

فإذا خرج الفتى وهمّ الأستاذ أن يستأنف حديثه مع صديقه أقبل عميد الكلية ، فيتلقاه الأستاذ عابساً منقبضاً ، ويسرع العميد فينبئه بأنه جاء يحمل إليه نبأ سيئاً ويأخذ فى تعزينه وتشجيعه . فإذا ألح عليه ليعرف هذا النبأ أعلن إليه أن العالم الإنجليزى كولسون قد ذهب إلى مصر واستكشف فيها نسخة من كتابه « فايون » وكانت نسخة صحيحة واضحة لا عيب فيها ، وظهر من قراءة هذه النسخة أولاً أن الكتاب ليس لأفلاطون وإنما هو لنحوى من أهل الاسكندرية كان

يقلد أفلاطون في القرن الأول للمسيح أى بعد أفلاطون بأربعة قرون .
ثانياً أن كل ما اقترحه الأستاذ لإصلاح النص وتكميل جملة وألفاظه
وتصحيحها خطأ . وهذا العالم الإنجليزي ينشر نسخته التى استكشفها
ولكنه يرسل منها مسودة ليقرأها الأستاذ قبل أن تظهر للناس . ثم
يدفع العميد هذه المسودة إلى الأستاذ ، ويأخذ هذا فى قراءتها
والاضطراب يملكه شيئاً فشيئاً ، وقد ظهر ذلك عليه ، فهض صديقه ،
وخرج العميد ليترك الرجل منفرداً إلى مسودته .

وفى أثناء ذلك يظهر فتى كأنما انشق عنه الحائط وهو رث شاحب ،
فيقف خلف الأستاذ وينظر محزوناً كأنه يقرأ المسودة .

فاذا كان الفصل الثانى فقد مضت أيام على هذه القصة وظهر أمرها
للناس ، وافتضح الأستاذ فضيحة منكورة ، وانقسم فيه العلماء الذين
كانوا يعجبون به ، فمنهم من يتهمه بالجهل المنكر ، ومنهم من يتهمه
بالتدليس القبيح . وقد كانت هذه الفضيحة صدمة للرجل حالت بينه
وبين الذهاب الى الجامعة أياماً . وكأنه قد استرد قوته فعزم أن يستأنف
دروسه ، وأقبل الطلبة مضطربين يريدون أن يروه وأن يسمعوه وهم
فى أمره مختلفون اختلاف العلماء والجمهور . ولكن العميد يحاول أن
يؤخر استئناف هذا الدرس ، فيغرى أحد الخدم بأن يصد الطلبة عن
قاعة الدرس ، ويعلن إليهم أن الأستاذ قد أجل درسه ، ولكن بعض

الطلبة يابون إلا أن يقتحموا غرفة الدرس . وهم جلوس وقد رأى العميد أن لا بد من استئناف الدرس ، فأقبل يخطب الطلبة يعيب أستاذهم وكأنه يرثى له ، ويفريهم به وكأنه يعطفهم عليه .

ويأتى الأستاذ فيتخذ ثوبه الرسمي ويجلس الى مائدته ، وإذا الفتى الذى رأيناه فى آخر الفصل الأول قد ظهر ووقف فى آخر الغرفة تجاه الأستاذ ، وبدأ الأستاذ يتكلم فإذا هو يعترف بأنه قد أخطأ فى كل شيء فليس الكتاب لأفلاطون ، وليس تصحيحه لهذا الكتاب حقاً ولا مقارباً ، وإنما يشتمل على أكثر من ثمانمائة غلطة . ولكن هذا الكتاب المزور المملوء بالخطأ قد خدع الذين يعنون باليونانية جميعاً سواء منهم اللغويون والأدباء والفلاسفة ، كلهم قبله ، وكلهم أظهر الإعجاب به . وينتقل الأستاذ من هذا الى أن العلم ليس شيئاً ، وإنما هو وهم فى وهم وضلال فى ضلال ، وأن العالم أشبه الناس بالرجل الذى اهتدى إلى كنز فى مكان مظلم فاتخذ المصباح ليصل اليه ، ولكنه شغل بالمصباح عن الكنز ، فأخذ يرفع ذبالبته حيناً ويخفضها حيناً آخر . وليس العقل الإنسانى إلا هذا المصباح الذى يشغل العلماء عن الحياة وما فيها من لذة ومتاع ، وإذا الأستاذ يبحث تلاميذه على الإعراض عن العلم والاستمتاع بلذات الحياة ، ويمضى فى ذم العلم ومدح اللهو إلى حيث يوشك أن يكون متصوفاً ، ثم ينهض فيلقى عنه ثوب الأستاذية ، ويعلن الى تلاميذه أنه مستقيل .

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في بيت الأستاذ مساء هذا اليوم ،
وقد تغيرت غرفته نخلت من الكتب خلواً تاماً . وهو جالس الى مكتبه
ينظر في أوراق ثم يمزقها ، وقد جاء العميد يسأله عن كلمات زعموا أنه
قالها في درسه وهي لا تليق بالعالم ولا بالأستاذ ، فلا ينكرها بل يزيد
عليها ويرفع إلى العميد استقالته من الأستاذية . ويلح العميد عليه مخلصاً
في أن يسترد هذه الاستقالة فيأبى . وهنا تنكشف لنا نفس العميد ، فهو
يتخذ العلم ورياسة كلية الآداب صناعة لا أكثر ولا أقل ، وهو لا يؤمن
بعلم ولا يؤمن بجامعة وإنما يؤمن بالحياة : بامراته وولده . وهو يشبه
العلماء حين يظفرون بالحق فيفرحون ، أو يردون عنه فيحزنون ، بالأطفال
الذين يتحاربون لاعبين فيخيل اليهم أنهم يجدون وإذا هم يطلبون
الفوز ويفرحون به حقاً ويكرهون الهزيمة ويحزنون لها حقاً . ولكن
الأستاذ مصر على استقالته فينصرف عنه العميد . ويخلو الرجل إلى
نفسه حيناً ، وإذا الشاب الذي رأينا في الفصلين الماضيين قد مثل أمامه ،
فيكون بينه وبين الأستاذ حوار بديع مؤثر حقاً . فليس هذا الشاب
في حقيقة الأمر إلا الأستاذ حين كان طالباً وحين كان يكره نفسه على
العلم ويصرفها عن الحب واللاهو . وقد تمثل هذا الشباب القوي الفتى
المحروم في شخص هذا الفتى وأقبل يعرض على الشيخ ذكرى هذا
الحرمان والشيخ يدافعه ثم لا يلبث أن يمضى معه في الذكرى . فانظر

إليه حين كان يستيقظ قبل آخر الليل فيقبل على اليونانية يقرأ ويكتب
ويستظهر . وانظر إليه كيف كان يغدو مع الصبح فيسلك إلى الجامعة
أبعد الطرق عن الفتنة منصرفاً عن ضوء الشمس وجمال الربيع وابتهاج
المدينة . وانظر إليه كيف كان يلوى وجهه عن هذه الفتاة الحسنة تمر
إلى جانبه . وانظر إليه كيف أحب وعبث الحب بقلبه ولكنه مع ذلك
أبى أن يعلن حبه وأخذ يخادع نفسه عن هذا الحب ، وأخذ يتجاهل
ميل صاحبتة إليه فلا يحبها ولا يظهر الميل إليها . وانظر إليه مع ذلك
كيف أهوى مرة إلى زهرة ألقها هذه الفتاة فاحتفظ بها منذ عشرين
سنة فهي الآن جافة ذابلة ولكنه لا يكاد يلمسها حتى تفتح وتسترده
نضرتها . ثم انظر إليه كيف يعتذر إلى شبابه فيزعم أنه لم يكن جميلاً
ولا وسيماً ولا جذاباً للنساء . ولكن حركة يأتها الفتى فإذا هو جميل وسيم
حسن الطلعة مقتنع بأنه كان يستطيع أن يظفر بحب النساء . يعرض
الفتى على الشيخ شبابه وما صنع فيه من لذة وما أهمل فيه من فرصة ،
والشيخ يضطرب عليه شيئاً فشيئاً حتى يدنو من الجنون . وإذا هو
يستغيث ، فتقبل الخادم فلا ترى أحداً ويستخزي الشيخ .

ولكن هذه سسيل قد أقبلت تعلن إلى الأستاذ باسمها وباسم رفاقها
دهشهم مما سمعوا ، فيؤكد الأستاذ أنه لم يكن مازحاً ولا عابثاً ، ويعلن
إليها أنه مستقيل ، فتلح عليه في أن يسترده استقالته فيأبى . ويكون
بينهما حوار نفهم منه أنه يحب الفتاة ويود أن يجد حبه صدى في نفسها

وهو يتلمس هذا الصدى فلا يجده فهو يضطرب بين اللين والشدة حتى إذا استيأس ترك الفتاة تنصرف . ولا يكاد يخلو الى نفسه حتى يعود إليه الفتى فيلومه لوماً عنيفاً لأنه يجب هذه الفتاة وقد تركها تنصرف وقد كان يستطيع أن يعلن إليها حبه ، فينكر هذا الحب ، ثم يعترف به ، ثم يعتذر عن إحجامه بأنه متقدم السن وقد ظهرت عليه آفات الكبر ولكن الفتى يقنعه بأنه ما زال محتفظاً بقوته قادراً على أن يستمتع بالحياة ، والفتاة عائدة بعد حين لأنها نسيت حقيقتها ، وهي إنما نسيتهما لأنها تحب الشيخ . فإذا عادت فيعلن إليها حبه ، وليكن بها رفيقاً ولها ملاطفاً وفي حديثه إليها لبقاً . وقد عادت الفتاة تلتمس حقيقتها ، فيدعوها إلى البقاء حيناً . وماهى إلا أن يتخذ طريقه إلى الحب فيعلنه إلى الفتاة ، فتدهش ويطلب إليها الزواج فتضطرب ثم تتردد ، ويكاد يستيأس منها ، فيعلن إليها هذا اليأس وأنه سيقتل نفسه ، فتشفق وتلين وتضعف ، فيدنو منها يريد أن يقبلها فتأبى وتفزع وتراجع . فإذا رأى الفتى هذا قام مقامه في هذه المداعبة والملاينة فظفر من الفتاة باللثمة التي يرجوها ، وإذا الفتاة مستأنسة مطمئنة قد جلست الى جانب الشيخ وأسندت رأسها إلى كتفه وهي تنسم تلك الزهرة التي كانت جافة فعادت نضرة .

فإذا كان الفصل الرابع فقد مضت أيام على هذا ، وتم الاتفاق بين الشيخ والفتاة على أن تكون له زوجاً وعلى أن تقيم عنده أياماً ، ثم يسافران إلى حيث يقيم وصيها فيكون الزواج ، ويسافران اليوم مع

الظهر . ونحن نرى الشيخ قوياً وسيماً حسن الزى مطمئناً إلى الحياة مبتسماً لها يمشى في غرفته مشياً مطمئناً الراضى . ولكن العميد قد أقبل يعلن إليه أن الناس يتحدثون بمقام الفتاة عنده وينكرون ذلك ، وقد كتبت فيه صحف السوء واتهمت كلية الآداب كلها بالعبث والمجون ، وذلك شرير غب الناس عن الكلية وأساتذتها ، وقد أصبحت الكلية حديث الناس وشك فيها الجمهور حتى إن امرأته قد أعلنت إليه أنها لن تدعه يذهب وحده إلى الكلية . ولكن الشيخ لا يحفل بكلام العميد ولا بكتابة الصحف ولا بسخط الجمهور ، فهو سعيد ، وهو يريد أن يتخذ الفتاة له زوجاً ، وهو سيبرح هذه المدينة وجامعتها وجمهورها .

فاذا انصرف العميد وأقبلت الخادم رأيناها ليست أقل من العميد سخطاً على الأستاذ . وكيف لا تسخط وهو شيخ يريد أن يقترب من فتاة ، وهو يحتجز الفتاة عنده وليست زوجاً ولا خطيبة ، والناس يتحدثون . أليست بائعة الفاكهة قد تحدث إليها في ذلك ساخرة ساخطة !! . ولكن الشيخ لا يحفل بها ولا ببائعة الفاكهة .

وانظر الى الفتى قد أقبل ، ويسأله الشيخ فيم جاء فيأخذ الفتى في لومه : أليس يحب هذه الفتاة ؟ أليست هذه الفتاة تحبه ؟ فما باله لا يظفر منها بما يطعم فيه المحبون ؟ وما باله يدعها تقضى الليل وحيدة في غرفتها وهو في غرفته مسهد يرضيه الحب وتعذبه الشهوة ! . والفتى يغريه والشيخ يدافعه . ولكن انظر إليه كيف أثر فيه الإغراء ، فملكك الشهوة عليه

أمره ودنا من غرفة الفتاة تدفعه إليها الرغبة ، وكاد يدخل لولا بقية من شرف ووفاء ردتته عن ذلك ، فينهر الفتى ويكبح شهوته ويؤثر انتظار الزواج .

وهذه الفتاة قد أقبلت ، فيلقاها باسمًا وترد تحيته في دعة واطمئنان وتعرض عليه أن يكون الزواج في هذه المدينة ، وأن يكون الفتى الصربي من شهود هذا الزواج . ثم تأخذ في الثناء على الصربي وذاكر بلانه في الحرب ، فيحس أن في نفسها من هذا الفتى شيئًا ، وقد خرج الأستاذ لبعض شأنه على أن يعود بعد حين .

وأقبل الفتى الصربي يريد أن يرد إلى الأستاذ كتابه وماله لأنه مسافر . ولا يكاد يتحدث إلى الفتاة حتى نفهم أنه لا يسافر زهدًا في العلم ولا عجزًا عن الإقامة ، وإنما يسافر يأسًا وقنوطًا ، فهو يحب الفتاة ولكنه لم يعلن إليها حبه ، وقد مضى الوقت وجاء هذا الإعلان متأخرًا . والفتاة تدافعه وتعتذر عن نفسها بضعف الشيخ ويأسه ، وأنها لا تعرف الحب ولم تحسه ، وقد أخذت نفسها بأن تعيش مع هذا الرجل كما تعيش الممرضة مع المريض . ويهم الفتى أن ينصرف ، فتمسكه ، ويمضيان في الحوار ، حتى إذا استيقن أن لم يكن بينها وبين الشيخ إثم التمس الحب عندها فوجده في قلبها تستحى له الفتاة وتراجع .

وهذا الأستاذ قد عاد فيردُّ الفتى إليه كتابه وماله ، ثم يعلن إليه في لين لا يخلو من القسوة أنه لا يستطيع أن يتزوج من هذه الفتاة . وقد تركتهما

الفتاة ، فيكون بينهما حوار عنيف فيه غيرة وحقد ، فيه غيرة الشباب الطامع في الحياة يريد أن يستقبلها في أمل ولذة . وفيه غيرة الشيخ اليأس يريد أن يظفر من الحياة بنصيب . وقد اتفقا على أن يحكما الفتاة نفسها ، فتدعى ويرد عليها الشيخ حريتها ويسألها أن تختار بينهما . فتسأله : وإلى أى حال تصير وحدك ؟ . . . ويفهم الشيخ . فانظر إليه يائساً قد صعقه اليأس وانصرف عنه المحبان .

وانظر إلى الفتى قد ظهر يزجره وينهره ، وهو الآن لم يأت ناصحاً ولا رفيقاً ، وإنما جاء نائراً محنقاً يريد أن ينتقم لشبابه المضيع . وقد تغير المسرح بعض الشيء ، وأخذنا نسمع ونرى ضجيج الرقص وحركته وأصحاب اللهو يسرفون في لهوهم ، والمومسات يتهالكن على الناس فتنة وإغراء ، والفتى يدفع الشيخ إلى هذا اللهو ، والمومسات يدعونه إليهن وقد كاد الشيخ يقبل لولا بقية من شرف وكرامة فهو يأبى ويتراجع ، والفتى يدفعه منتهراً زاجراً منذراً معلناً إليه أنه قد أفسد عليه شبابه فليفسدْ عليه شيخوخته ! . ولكن الشيخ يأبى . وانظر إليه قد اعتصم آخر الأمر بكتب بقيت له ، فهو يلتمس عند العلم العزاء بعد أن يئس من الحب . وكذلك فعل شاباً . ولكن الفتى ينازعه ويكون بينهما جهاد يُصرَع له الشيخ . وتسمع الخادم فتسرع الى سيدها فاذا هو طريح فاذا أقبلت إليه لتسعه نهض متثاقلاً وأمرها أن تلمس الطبيب فتخرج ويعمد الشيخ الى مسدسه فيخرجه وهو يعتصم بالمسدس حيناً وبالكتاب

حيناً آخر . ولكن الفتى قد أقبل مرة أخرى ، وظهرت الحانة والرقص
والفتى يدعو الشيخ اليهما فيأبى ، ويطلق مسدسه على الفتى فلا يصيب
منه شيئاً . وانظر الى الفتى فهو الذى يتناول المسدس وهو الذى يطلقه
على الشيخ . وانظر الى هذا الشباب المضيع وقد انتقم لنفسه من هذا
الشيخ فهو يسقط صريعاً .

يونيو سنة ١٩٢٧

Faint, illegible text at the top of the page, possibly bleed-through from the reverse side.

زوجهَا

قصة تمثيلية للكاتبين الفرنسيين « بول جيرالدى وروبير سبيتزر »

بول جيرالدى كاتب يفتن به المترفون في شعورهم وعواطفهم من الفرنسيين ، لأنه مترف في شعوره وعواطفه ، ومترف بنوع خاص حين يحلل العواطف والشعور . تناول طائفة من الموضوعات في قصصه التمثيلية فاستطاع أن يبلغ من دقة التحليل ولطف المدخل إلى القلوب ما أسرع به إلى بيت مولير وأنزله منه منزلة رفيعة . ولست أدري أذكر القارئ أنى تحدثت إليه في غير هذا الموضوع عن قصة من قصصه التمثيلية سماها الحب ، وحلل فيها الصلة بين زوجين متحابين يعرض لهما من أسباب الفتنة ما يصرف المرأة عن زوجها حيناً ، ثم تتكشف الخبرة لهذه المرأة عن حقيقة الأمر فتبين أنها كانت مفتونة لا عاشقة ، وأن جهها إنما كان مقصوراً على زوجها حتى في أشد أوقات الفتنة . ذلك لأن الحب شيء غير الشغف وغير الهيام وغير هذه الشهوات التي تملك النفس فتفسد عليها الأمر حيناً . فيه ثقة تمكن المتحابين من أن يطمئن كل منهما إلى صاحبه ، فلا يسمح لنفسه بالشك فيه ولا يتخيل هذا الشك

وتمكنهما من أن يعتمد كل منهما على صاحبه اعتماداً لا حدّاً له . فيه هذه الثقة التي تمكن الزوج من أن يجيب امرأته حين أنباته بأن فلاناً يتبعها بحبه وطلبت إليه أن يحميها من هذا الحب : « مثلك لا يحتاج الى حماية ولا حراسة ، ولا خير في حب يتكاف صاحبه أن يقوم دونه يدفع عنه المغيرين » . ثم فيه الى جانب هذه الثقة ألوان من الذكرى يسيرة ضئيلة في نفسها ، ولكن الحب يتألف منها ، أو قل إنها هي التي تؤلف حياة المتحابين .

وقد وفق بول جيرالدى في هذه القصة توفيقاً عظيماً دون أن يحتاج الى حركة أو مشقة في تدبير هذه الحركة ، وإنما هي كلها حوار بين الزوجين أو بين المرأة وذلك الذي أراد أن يفتنها . ثم لم يقف توفيق بول جيرالدى عند هذه القصة بل تجاوزها الى قصة أخرى فتنت الباريسيين في السنة الماضية ، وهي قصة « روبر وماريان » وهو على هذه الإجادة في التمثيل شاعر مجيد دقيق ، يحبه الفتيان والفتيات ، ويقروون له بنوع خاص ديواناً صغيراً عنوانه « أنت وأنا » تناول فيه العلاقة بين العاشقين من نواحي الحياة المنزلية اليومية في لطف ودعة وخفة روح .

ولكن بول جيرالدى على هذا كله صاحب جيد ، وحظه من الهزل قليل . هو مترف في جدّه خفيف الروح ، يحاول الدعابة والفكاهة ولكنه لا يبلغ منهما ما يريد ، أو هو لا يريد أن يبلغ منهما شيئاً . وكأنه كان

محتاجاً إلى أن يعينه زميله الذي اشترك معه في وضع هذه القصة التي أتحدث إليك فيها اليوم . كان محتاجاً إلى هذه المعونة ليلاً بين جدّه وفلسفته المترفة و بين ما يحتاج إليه الباريسيون في هذه الأيام من الفكاهة واللّهو حتى في أوقات الجدّ والتفكير العميق . وقد ظفر بول جيرالدى من معونة زميله بما أحب وبما أحب الباريسيون ، فجاءت هذه القصة الأخيرة آية في الجد والفكاهة معاً . فأنت لاتستطيع أن تمضى في قراءتها دون أن ترى نفسك مغرقاً في الضحك ، ولكنك في الوقت نفسه مغرق في التفكير والتأمل . ذلك لأن الموضوع كله جد ، ولكن الصورة كلها هزل لفظ رشيق فيه عبث كثير ، ولكن من دون هذه الرشاقة والعبث حقيقة من هذه الحقائق التي يجب على كل إنسان أن يفكر فيها وأن يلائم بينها وبين سيرته مع زوجته .

وفي الحق أن روى هذين الكاتبين قد التأمنا في هذه القصة التأمناً بديعاً . وحسبك أنهما استطاعا أن يحملاك على أن تفكر في أشد الموضوعات خطراً دون أن تجد في ذلك مشقة أو عنفاً ، بل على أن تجد في ذلك لذة لا تعدلها لذة . ولكن هذه المشقة التي لاتجدها أنت حين تقرأ القصة أجدها أنا حين أحاول أن أخلصها لك . ذلك لأنني أستطيع أن أخلص لك موضوعها وغرضها ، ولكنني لن أستطيع أن أخلص لك شكلها وصورتها وحوارها وما فيه من رشاقة وخفة وسرعة ؛ فكل ذلك لا سبيل إلى نقله إلا في ترجمة دقيقة ليست من السهولة واليسر بحيث تظن .

فلاعرض عليك ما أستطيع من هذه القصة معترفاً منذ الآن بأنه
تلخيص للموضوع لا أكثر ولا أقل . ولأسلك في هذا العرض الطريق
التي تعودت أن أسلكها في غير هذه القصة ، فأضع أمامك الأشخاص
كما أراد صاحب القصة أن يكونوا .

والقصة تعتمد قبل كل شيء على التناقض بين شخصين متباينين
تبايناً تاماً في الطبيعة والذوق والمزاج ، ولكنهما يخدعان عن نفسيهما
ويخيل اليهما أنهما متفقان مؤتلفان لا تباين بينهما ولا تناقض .

فأما أحد هذين الشخصين فالزوج ، واسمه « مكسيم مينار » رجل
من أغنياء باريس وأصحاب الأعمال فيها ، رجل كغيره من الناس ،
عادي في ذوقه ومزاجه ، وربما كان إلى الطبقة السفلى أقرب منه إلى
الطبقة العليا ؛ فإن امتاز بشيء فهو يمتاز بمجده في العمل ومهارته في
تصرف الأمور المالية ؛ وهو لذلك كثير الصمت قليل الكلام قليل
الحركة أيضاً ، لا يكاد يتصور الحياة إلا على أنها انهماك في العمل حين
يكون في مكتبه ، وأكل ونوم حين يأوى إلى بيته . وهو على ذلك
قانع بهذه الحياة ، يرى فيها المثل الأعلى للسعادة . وهو لا يفهم من
الزوجية إلا أن يرى امرأته في البيت زينة له وأداة للهوه الذي لا يصيب
منه إلا قليلاً من حين إلى حين . وهو يفهم الأمانة الزوجية كما يفهمها
غيره من الناس ، لا يخون زوجه ولا يريد أن تخونه زوجته ، يكره
العبث ، ويسئ الظن بكل لون من ألوان المجون والمزاح ، ولكنه مع

هذا كله ضعيف طيب القلب مستعد للعفو إن وقع له ما من شأنه أن
يحفظ الرجال . هو رجل طيب ولكنه يعيش في الأرض وليس له
جناحان يستطيع أن يرتفع بهما في الجو ولو قليلا .
أما امرأته « جاكلين » جميلة خلابة ككل نساء القمص .
ولكنها تناقض زوجها أشد المناقضة ، فهي قوية الخيال تعيش في السماء
لا في الأرض ، لا ترى الناس كما هم وإنما تراهم كما تحب أن يكونوا ،
تصوغهم صوغاً خاصاً ، وتُسبغ عليهم صورتها الخاصة ، ثم تعيش معهم
بعد ذلك عيشة راضية ملؤها الصفاء والطهر والثقة والإيمان . ذلك أن
نفسها تتصف بهذه الصفات كلها ، فهي راقية تنزهه عن الدنيات .
وهي طاهرة لا يكاد يخطر لها الإثم على بال . وهي مطمئنة على نفسها
فبيعثها ذلك على أن تطمئن إلى الناس وتثق بهم ثقة لا حد لها . وهي
على هذا كله مترفة في تفكيرها وشعورها ، رقيقة العاطفة رقيقة المزاج
قوية الحس ، تألم لكل شيء وتسأل لكل شيء ، وتنتقل من الألم إلى
السرور ومن السرور إلى الألم في سرعة غريبة ، تعيش في حلم مستمر
وهي بعد هذا كله قد صاغت زوجها في صورة ملائمة لصورتها ، فاستيقنت
أنه أجل الناس ، وأكرمهم ، وأرقهم طبعاً ، وأصفاهم مزاجاً ، وأبعدهم
نظراً ، وأصدقهم حكماً على الأشياء والناس أيضاً ، حتى إذا أسبغت
عليه هذه الصورة الجميلة الخلابة أحبته وفتنت به ، واندفعت في هذا
الحب والفتنة إلى أقصى أمد ممكن ، وأخذت تؤول عيوبه على أنها

محاسن ومزايا . هو كثير الصمت لا يتحدث إليها في الحب والغزل ذلك لأنه رقيق دقيق ، ولأن الحب أجل من أن يتناوله الكلام ، ولأن الكلام يفسد الحب إذا تناوله . وما حاجتها إلى الكلام ! أليس يكفي أن ينظر إليها زوجها فتري في هذه النظرات ما تشاء من حب وشغف وولاء وإخلاص ! وهو لا يحب اللهو ولا السمر ، وما حاجتها إلى اللهو والسمر ! أليس ذلك دليلاً على أنه رجل جد وعمل ! أليس يكفيها أن تراه وقد عاد إلى البيت فنظر في رسائله ثم قال بصوت مغضب : ما لنا لا نذهب إلى المائدة ! إن في هذا كله حباً وفتنة . وعلى هذا النحو أحببت زوجها وسعدت بحبه ثلاثة أعوام كاملة ، واتخذت نفسها وزوجها مثلاً أعلى للأسرة السعيدة المتحابية . ولكنها كانت تجهل زوجها ، وكانت تجهل نفسها أيضاً ، وكانت في حاجة إلى حادثة من الحوادث تظهرها على حقيقة نفسها ، وتعرض عليها زوجها كما هو ، وتنزلها من السحاب الذي كانت تعيش فيه إلى الأرض لتري الناس والأشياء كما أراد الله أن يكونوا لا كما صورهم الخيال .

ومن غريب الأمر أن في هذه القصة شخصاً ثالثاً يناقض «جاكلين» من بعض الوجوه ، ويوافقها من بعضها الآخر ، وهو مثل شائع الآن في فرنسا . هذا الشخص هو «جيزيل» أخت «جاكلين» . فتاة تدرس الطب ، حرة في لفظها وحركاتها وسيرتها ، مسرفة في هذه الحرية ، لا تتحرج من أن تستعمل في لغتها ألفاظاً يألفها الطلاب وحدهم وينفر

منها المترفون ، ولا تتخرج من أن تقضى يومها وشطراً من ليلاً مع الشبان في لهو وعبث ومجون ، ولا تكره أن تعود إلى بيتها بعد منتصف الليل وقد همت ورقصت وصاحبها إلى البيت شاب من زملائها في الدرس ولكنها على هذا كله طاهرة السيرة ، تستطيع أن تقول لأختها إنها على عبثها وهوها لا تزال عذراء وستظل عذراء . وهي لا تكره أن تعلن إلى أختها في صراحة أن الحب قد بطل في هذا العصر ، وأن البدعة إنما هي في الدعابة والعبث ليس غير . ومن دون هذا كله قلب خير ملؤه البر والحنان ، ونفس راقية تحب المثل الأعلى وتطمح إليه ، ولكنها تراه عزيزاً فتسامح ، وتنظر إلى الحياة مبتسمة في شيء من السخرية المرة تفشيها حلاوة متكلفة . هي كأختها لولا أن حظها من العقل يفوق حظها من الخيال

وهناك شخص رابع هو أم هاتين الفتاتين ، امرأة متقدمة في السن تمثل عصرها وتعيش غريبة في هذا العصر الجديد ، لا تفهم « جاكلين » لأنها تعيش في السحاب ، ولا تفهم « جيزيل » لأنها تحللت من القيود المألوفة ، وهي معذبة بينهما دائماً أنهما ستقتلانهما

ثم هناك شخص خامس نستطيع أن نقول إنه البطل الثاني من أبطال هذه القصة ، وهو « اندريه مورو » شاب قد جاوز الثلاثين قليلاً ، حسن الطلعة ، متقن الزى ، غني ، متصل بالأسر الراقية ، شديد الحياء ولكنه حاد العاطفة والمزاج ، ضعيف فيما يظهر لا يكاد يملك نفسه

ولا يسيطر على عواطفها ؛ أ كاد أرى أن الكاتبين قد خلقاه خلقاً وبعدا
به بعض الشيء عن الأشخاص المألوفين . وهو كما خلقاه خفيف الروح
جذاب ، عذب اللسان منطلقه ، يندفع في ذلك حتى يخيل اليك أنه
مجنون ، وهو في حقيقة الأمر مجنون ، قد ذهب الحب بعقله حيناً فأصبح
كهؤلاء الذين يخضعون للتنويم المغناطيسى .

هؤلاء هم أشخاص القصة . والقصة في نفسها قصيرة كما أن الوقت
الذى تقع فيه قصير ، لا يكاد يتجاوز اليومين . أو قل لا يكاد يبلغهما .
وهي تذكرنا كما قلت بقصة الحب لولا أن الزوجين في قصة الحب
كانا مؤلفين في رقة الطبع ورقى النفس ، وهما في هذه القصة مختلفان ،
ومن هنا انتصرت الزوجية في قصة الحب ، وانهمزت في هذه القصة ،
لولا أن قصة الحب جد كلها ، وهذه القصة جد قد صيغ في لفظ فكاهي

نحن في بيت « جا كلين » آخر النهار وقد فرغت من استقبال زائريها
في هذا اليوم الذى تعودت أن تستقبلهم فيه كل أسبوع ، و دخلت إلى
أختها « جيزيل » فكان بينهما حديث نفهم منه الفرق بينهما في الطبيعة
والمزاج ، هما تتحدثان عن صديقة لجا كلين ، فأما « جا كلين » فمفتونة
بها قد أسبغت عليها صورتها الخاصة وأخذت تسرف في الثناء عليها .
وأما « جيزيل » فقد رأتها كما هي ، وأخذت تهون من شغف أختها .

وتمضيان في الحديث فتتناولان أشياء كثيرة يظهر فيها ما بينهما من الاختلاف في الذوق والحكم، ولكن يظهر في الوقت نفسه أن بينهما حبا ومودة تقربان مسافة هذا الخلف وتعطف كلاً من الأختين على الأخرى. وقد لامت « جا كلين » أختها لأنها لاتزورها كثيراً ولاثق بها ولاتطمئن إليها في الحديث، واتفقتا بعد حوار طريف على أن تستأنفا حياة الأختين في ثقة وطمأنينة. وقد فهمنا من هذا الحديث أيضاً أن « مكسيم » مسافر لبعض عمله في بلجيكا، ورأينا حب « جا كلين » إياه، وفهمنا أن « جيزيل » مزورة عنه بعض الازورار. وتقبل أمها مضحكة مضطربة لاتدري علام تقبل من الأمر، أتمكت مع ابنتها أم تعود إلى بيتها، ثم يستقر رأيها على العودة فتصرف مع ابنتها الفتاة وتخلو « جا كلين » إلى نفسها. فنحس أنها تشعر بشيء من الضجر بوحدتها، وهي تريد أن تنصرف إلى غرفتها فتتناول فيها العشاء، وهي تهتم بذلك لولا أن الخادم يدُخل عليها رجلاً، تنظر إليه فاذا هو « مورو ». وكانت قد رأت هذا الشاب مرة واحدة في بعض الأسفار فأنست إليه وأنس إليها، وتحدثنا فأطالا الحديث. وأقبل هذا الشاب يزورها في يوم استقبلها، ولكنه أقبل متأخراً فيعتذر من هذا التأخر أول الأمر ثم يعترف بأنه تعمد بعد ذلك، ثم يفتن في الثناء على « جا كلين » ويظهر اغتباطه بذلك الحديث، ثم يهجم بالانصراف معتذراً ولكنه يلتمس سبيلاً للبقاء، أو يلتمس سبيلاً إلى العودة،

فيعرض على صاحبتة أنه يريد أن يستشيرها في أمر ذى بال ، وأن الوقت متأخر فهو يستأذنها في أن يعود ليستشيرها في زيارة أخرى . أما هي فنكاد نحس رضاها عن هذا الحديث وميلها إلى هذا الفتى . وقد أذنت له أن يعود ، ثم بدا لها فأمرته أن يبقى ، وأن يعرض قصته فوراً . فبقي ، وينبئها بأنه اختلف في الشتاء إلى إحدى الأسر فاتصت المودة بينه وبينها ، وفي هذه الأسرة فتاة ، فأحس أن الأسرة تطمع في أن يخطبها ، فهو مضطرب لا يدري أيقطع الصلة بينه وبين هذه الأسرة لأنه لا يريد أن يتزوج أم يحتفظ بها . أما « جا كلين » فتدهش لأن صاحبها يستشيرها في مثل هذا الأمر وهي لا تكاد تعرفه ، ولكنه قد أنس إليها حين رآها في المرة الأولى ورأى منها صراحة ونصحاً وإخلاصاً فطمع في أن يستشيرها واطمأن إلى رأيها . وهي لا تدري بم تشير عليه ولكنها ، كما قدمت لك ، طيبة النفس ، صادقة العاطفة . فانظر إليها وقد اندفعت تلوم صاحبها لوماً عنيفاً لأنه يستشيرها في مثل هذا الأمر وهي ترى أنه أمر لا يحتمل المشورة ، فأنت بين اثنتين : إما أن تحس بشيء من الميل إلى هذه الفتاة ، وإذا فاحتفظ بالصلة وامنض حتى تنتهي إلى الزواج وإما ألا تحس شيئاً وإذا فلا ينبغي أن تطمع هذه الفتاة ولا أن تضلها . وصاحبنا لا يحس شيئاً وإذا فسقطت الصلة . ولكن « جا كلين » يروعا هذا وتشفق أن تكون مشورتها عقبة في سبيل السعادة الزوجية التي تطمع فيها هذه الفتاة ، فتنصح لصاحبها بالأناة والتفكير ، وتندفع

في حديث عن الحب لذيذ كله حرارة وصدق وإخلاص، وقد اندفعت فيه حتى تناولت نفسها وزوجها وسعادتهما، ولم تفكر أو قل لم تشعر بما تترك في نفس هذا الشاب من الأثر. وهي تجد لذة في حديثها إليه، وهو يجد لذة في الاستماع إليها، وما تزال في الحديث وما يزال هو في الاستماع والسؤال أحياناً حتى ينتهي الأمر إلى أقصاه، وقد خلبت الفتى وحببت إليه الزواج، فاستقر رأيه على أن يُسرع إلى بيت الفتاة فيخطبها من فوره. وهي الآن تنصح له ألا يتعجل في الخطبة بعد أن كانت تنصح له ألا يتعجل في القطيعة.

وقد فهمنا من كل هذا أنها تجد لذة في الحديث إلى الفتى، وأن الفتى مفتون باستماع حديثها. وهما في ذلك وقد تقدم الليل وإذا « مكسيم » قد أقبل ولم يكن منتظراً إنما كانت تنتظر عودته من الغد. أقبل فلم يجد أحداً من الخدم، وعالج باب الدار حتى فتحه، وتقدم حتى انتهى إلى غرفة الاستقبال دون أن يظفر بخادم، فلما دخل الغرفة رأى زوجه يتحدث إلى أجنبي. دهش ودهشت وبهت الزائر ونهض مودعاً وانصرف، وخلا الزوجان، ولكن بينهما شيئاً. أما هي فلم تكن تنتظر هذه العودة، وأما هو فلم يكن ينتظر أن يرى هذا الأجنبي، ولم يكن ينتظر أن تستقبله امرأته هذا الاستقبال ولا سيما وقد قدم عودته يوماً وأبرق بذلك إلى امرأته، ولكن الرسالة لم تصل إليها، وقام الدليل على ذلك فوصلت الرسالة أثناء حوارهما. ولكن في نفس الرجل شيئاً على

كل حال ، فهو يسأل عن هذا الأجنبي في شيء من الازدراء أول الأمر ، ثم تشتد عنايته به شيئاً فشيئاً ويظهر الشك قليلاً قليلاً . والمرأة مخلصه في الاغتباط بعودة زوجها ، ولكن هذا الشك يؤلمها . يدهشها أولاً ، ثم يؤذيها ، ثم تحس الإهانة ، ثم تكبر نفسها وترى أنها أرفع من أن تهبط إلى حيث تدافع عن شرفها ، وبينما تغلو في الكبرياء يغلو زوجها في الشك . وبينما تؤثر الكبرياء فيها فيظهر عليها الغضب يظن زوجها أن هذه آثار الخوف والريبة ، وما هي إلا أن ينتهي إلى اللوم ثم إلى التعنيف ، وكلما مضى في ذلك اشتد سخط المرأة وكبرياؤها ، فخيل إليه أن الخوف والذعر هما اللذان يشتدان ، حتى ينتهي به الأمر إلى الاتهام ، وينتهي بها هي الأمر إلى أن تزدرى زوجها فتتهم نفسها أيضاً . وقد انتهت الغيرة بالرجل إلى أقصاها ، وانتهى الغضب والكبرياء بالمرأة إلى أقصاها فتركت زوجها وأغلقت من دونه الباب .

فاذا كان الفصل الثاني فنحن حيث كنا في الفصل الأول من الغد ، و « جا كلين » منصرفة إلى أعمال بيتها تأمر خادمها ببعض الشأن . ونحن نحس أنها تألم وأنها ترى أن قد أهينت في كرامتها وكبرياتها ، ولكنها لا تقول شيئاً ، ولا تظهر شيئاً . ولكن هذه أمها قد أقبلت في شكلها المضحك دائماً ، وهي مضطربة مذعورة ، فإذا رأتها ابتتها خيل إليها أنها مريضة ، ثم ظنت أن أختها قد آذتها ، ثم تبينت آخر

الأمر أن زوجها قد ذهب إليها وقص عليها ما كان أمس وغلا في القصص ، فيسوءها ذلك ويؤذيها في شرفها وكبرياتها . ولكنها تطمع في أن تكون أمها قد دافعت عنها . وقد فعلت أمها فنهرت الرجل وقالت في ابنتها ما تقوله الأمهات . و « جا كلين » إذا سعيدة تقبل أمها في حنان وبر . ولكن لا تلبث الشيخة أن تطلب إلى ابنتها أن تستعطف زوجها وتصلح ما بينهما من الأمر . فإذا مضت في الحديث قليلاً أحست « جا كلين » أن أمها قد صدقت ما قال فيها الزوج فتكلفت الدفاع ، ولكنها مقتنعة فيما بينها وبين نفسها بأن ابنتها آئمة ، فيؤلمها ذلك ويؤذيها إيذاء شديداً تكتمه ولكنه مع ذلك ظاهر ، لا تكاد تفهمه الشيخة ، وتفهمه نحن في وضوح وجلاء .

وهذه « جيزيل » مقبلة . ولست أخلص لك محاولة الشيخة إقصاءها وإخفاء الأمر عليها في حوار بديع وحركات مضحكة ، ولكنها قد دخلت على كل حال وخلت إلى أختها ، وهي تذكر ما كان بينهما من عهد أمس ، وقد سمعت « مكسيم » وهو يتحدث أمها بالقصة فأقبلت تؤاسى أختها وتظهر لها العطف والنصح والمودة . وسمع لها تهنيء أختها بأنها قد اتخذت لها خليلاً وخانت هذا الزوج الذي لا يستحق إلا أن يخان ، وإذا فهي أيضاً تهتم أختها وتصدق فيها الفاحشة ! فلا يزيد ذلك « جا كلين » إلا ألماً وبأساً ، ولكنها تملك نفسها وتأخذ الأمر في سخرية وعبث من دونها ألم شديد .

وهن في ذلك وإذا الخادم يستأذن لمورو ، فأما الشبيخة فيُحنقها ذلك . وأما « جا كلين » فتستقبله ، وهي تستقبله باسمه وهو يقص عليها أمره وأنه خرج من عندها أمس متأثراً مفتوناً فلم يملك نفسه فذهب إلى أهل الفتاة وجلس إليها ، ثم لم يلبث أن تحقق أنها لا تُرضى مثله الأعلى ، فانصرف عنها وعدل عن اتخاذها زوجاً . وهذا كله يُلهي « جا كلين » ويلذها ويسليها بعض الشيء . ولكن الفتى يمضي في حديثه فيخبرها بأنه وإن كان قد انصرف عن هذه الفتاة وعرف أنه لا يحبها ، يشعر مع ذلك بأنه يحب . وآية ذلك أنه لم ينم الليل ، وأنه يرى الحياة قد تغيرت كلها ، فهو إذاً يحب ، ولكن من يحب ؟ وهو يفكر ويسأل نفسه . وانظر إليه وقد كشف الحقيقة فجأة وأعلنها فجأة : فهو يحب « جا كلين » ويعلن إليها ذلك في لهجة مضحكة مؤثرة معاً . وهي تدهش لذلك أول الأمر ، ثم تغضب ثم تثور ، ولكن هذا كله لا يزيد صاحبنا إلا اقتناعاً بأنه يحبها وإلحاحاً في إعلان هذا الحب وهي تنهره وتطرده وتُقصيه ، ولكنه لا يزيد إلا إلحاحاً وإصراراً . ثم يستكشف أنها هي لا تكرهه وقد لا تحبه ، ولكنها تميل إليه بعض الليل . ويستدل على ذلك بأنسها إليه لأول ما لقيته واطمئنانهما إليه في المرة الثانية . وهي تدفع عن نفسها مغضبة نائرة وقد زاد ذلك في إيذائها ، فزوجها يتهمها ، وأما وأختها يصدّقان هذه التهمة ، وهذا الفتى لا يستبعد التهمة أيضاً . وقد انتهت إلى إخراج هذا الفتى ولكنها

عذرت زوجها وأخذت تلوم نفسها على هذا الكبر الذي وضعها هذا
الموضع السيء وقبلت أو رغبت في أن ترى زوجها وتستعطفه وتظهره
على جليلة الأمر . ويُقبل زوجها ، فتتلقاه باسمه واثقة مطمئنة وترضاه ،
ولكنها كلما حاولت أن تبسط له حقيقة الأمر مضى هو في الاتهام ثم
انتقل منه إلى العطف ثم إلى العفو . فهو إذاً يأبى إلا أن تكون زوجته
آئمة ، وكبرياؤها تأبى أن تصرح له بجلية الأمر . وقد وقع بينهما ما لم
يكن بدءاً من وقوعه ، وظهر أنهما مختلفان اختلافاً أساسياً ، فهو لا يؤمن
بها ولا يقدر سها بل يراها كغيرها من النساء ، وهي تألم لذلك ولكنها
تقبله وتخفي الألم وتشكر زوجها على العفو إذا طلب إليها هذا الشكر .

فاذا كان الفصل الثالث فنحن حيث كنا في الفصلين الأولين من
الغد ، ولكننا نرى « مكسيم » ضيق الصدر ينتظر امرأته التي خرجت
فأبطأت في العودة ، وقد جاء ميعاد الغداء وهو جائع يتضور ، ويطلب
إلى الخادم ما يتبلغ به . وهذه « جاكلين » مقبلة ، فهو يلقاها ساخطاً
لأنها ، يعنفها لأنها بعد الذي كان أمس قد أسرفت في عدم الاكتراث
به . أما هي فتجيبه في سخرية مؤلمة بأن هذا اللون من التشديد لا يليق
به بعد هذا العفو الذي أصدره أمس ، على أنها قد تناولت غداءها في
باريس في أحد المطاعم ، وعلى أنها لا تعرف أين تتعشى ، وعلى أنها قد
تريد أن تذهب إلى أحد المراقص . وكل هذه الأحاديث يدهش لها

« مكسيم » ثم يغضب ، ثم يحاول أن يستعمل سلطته وأن يقهر امرأته على أن تحيا حياة ملائمة . ولكنها تنكر عليه ذلك في سخريه . أليس قد عرف أنها آئمة ثم عفا عنها فهو إذاً يبيح لها الإثم ! فليبح لها الحرية . وهما في هذا الحوار وإذا أمها مقبلة ، فينصرف الرجل إلى غدائه ، وتعلن الفتاة إلى أمها في شيء من الإبهام والسخرية أنها لا تحب زوجها ، وأنها قد عرفتته وكشفت أمره وقد كانت تجهله ، فهو رجل كغيره من الناس ، وأمها لا تفهم من هذا الحديث شيئاً . و يفرغ الرجل من غدائه ويعود فيسأل امرأته كيف تريد أن تقضى بقية النهار فلا تجيبه بشيء مقنع ، ثم تنصرف عنه مع أمها إلى غرفتها . وتقبل « جيزيل » ، فإذا لقيها تنكر لها وتنكرت له ، ثم كان بينهما حوار لذيذ يفهم منه « مكسيم » أن امرأته بريئة ، وأنها لم تأثم ، ونفهم نحن أن هذه الفتاة نادمة لأنها أساءت الظن بأختها وآذاتها في شرفها . والرجل لا يعرف كيف يحتمل في إرضاء امرأته ، فهو يقترح ألواناً من الترضية يريد أن يستعطفها ويريد أن يهدي إليها هدية ، ويريد أن يقبلها . ثم يبدو له فيرى أن الحل الملائم إنما هو أن ينصرف ، وكذلك يفعل . وتأتى « جاكلين » فإذا رأت أختها كان بينهما حوار جاف نفهم منه ألم « جاكلين » وندم الفتاة وحنانها وكبرياءها أيضاً .

ولكن هذا الخادم يستأذن لمورو ، فترفض استقباله ، ثم يعود الخادم فيلح وينبئ بأن مورو قد جلس وأعلن أنه لن ينصرف ،

فتأذن له مغضبة وتستقبله منتهرة زاجرة . ولكنه الآن هادىء مطمئن
رزين يطلب إليها فى صوت كله دعة وطمانينة أن تتفضل بتناول العشاء
عنده مع زوجها . أما هى فترفض مغضبة ويلح هو متلطفًا فتأبى . وقد
أخذت تدهش لأنه لا يتحدث إليها فى حبه ، وهى لا تملك نفسها أن
تسأله : أثناب إلى الرشد منذ أمس ؟ فيعتذر فى دعة وهدوء . وكأنها تألم
لتغير لهجته ، وكأنها كانت تريد أن تراه مشغوفًا مفتونًا فتنهره وترجره
فأخذها شىء من الحزن حين رأته هادئًا يعتذر ، فهى تلومه فى لطف
وحزن على ما كان منه أمس . وانظر إليه وقد انفجر وترك ما كان فيه
من دعة وهدوء وأخذ يعلن إليها أنه يحبها ويحبها ويحبها ، وأنه إنما
تكلف هذا العشاء وهذا الهدوء ليستطيع أن يراها وأنه كان يريد أن
يعتدل ويهدأ ويرورها من وقت لآخر زيارة هادئة محتشمة مكتفياً
بذلك ، فأما وقد أبت إلا أن يتكلم فهو يتكلم ، وهو يحبها ويحبها ويحبها .
ونحن نحن أنها تجد شيئًا من اللذة فى أن تسمع هذا الحديث ، ولكنها
مع ذلك مغضبة نائرة تنهره وترجره وتزعم له أنه لا يعرف من أمرها
شيئًا ، ولا يستطيع أن يحبها . ويأخذ هو فى وصفها ، حتى إذا انتهى
إلى أنها سعيدة فى حياتها المنزلية أنكرت عليه ذلك وألحت فى الإنكار
فاذا هو سعيد مغتبط ، يرى أنه قد هان كل شىء فى سبيل حبه ، فهو
يُقبِل عليها يأخذ بيدها ويدعوها إلى أن تمضى معه ، وهو يهيم بتقبيلها
وهى تدافعه عن نفسها فى قوة شديدة وضعف شديد معًا . وهى قد

اضطرت إلى أن تستخدم آخر سلاح فتعلمن إليه أنها عاشقة وأن لها خليلاً... يصدق ذلك أول الأمر، ثم لا يلبث أن يفطن فينكر وينكر في عنف، ويعلن إليها أنها تكذب لتدافع عن نفسها، وأنه لن يصدق شيئاً من هذا وأنه لوراها بين ذراعى رجل لما صدق أنها عاشقة. وهو كلما مضى في هذا الحديث صادف منها قبولاً ورضاً. وانظر إليها الآن مطمئنة هادئة، ولكنها تبكى في صمت وتشكر له إيمانه بها وحسن رأيه فيها، ثم تطلب إليه أن ينصرف الآن، فاذا أبى أحت عليه في رفق وفهمنا أنها تحبه، وأنها تعترف بهذا الحب. ولم لا؟ فهو الشخص الوحيد الذي آمن بها وبرأها من هذه التهمة. وهو يقبل أن ينصرف، ولكن على أن يعود إذا عجز عن المضي في طريقه. وما يكاد يخرج حتى يعود زوجها باسماً مبهتجاً، فينبئها بأنه قد استأجر لها مكاناً في الأوبرا حيث الرقص هذا المساء، ولكنها تعتذر. وإذا فسيصحبها زوجها للعشاء في أحد المطاعم، ولكنها تعتذر. وإذن فسيبقيان في البيت ولكنها تستدنيه وتنبئه بأنها لا تحبه وقد انصرفت عنه. أما هو فمغرور مفتون بنفسه واثق بسلطانه فهو لا يحفل بهذا الاعلان ولكنه يمضي في حديثه مداعباً هازئاً وهي تطلب إليه حريتها فيجيبها في دعابة وهزاء وقد أقبل الخادم يستأذن مرة أخرى لمورو. فيأذن له مبهتجاً بلقائه، ويعتذر إليه بأنه أساء لقاءه في المرة الأولى فقد كان متعباً من آثار السفر، وهو يدعوهُ إلى العشاء معهما هذه الليلة، فيعتذر الفتى محرراً.

ويعلن « مكسيم » أسفه ويلح في أن يتعشى معهما في إحدى ليالي
الأسبوع . ثم يعتذر ببعض العمل وينصرف عمداً تاركاً لزوجته ترتيب
أمر العشاء .

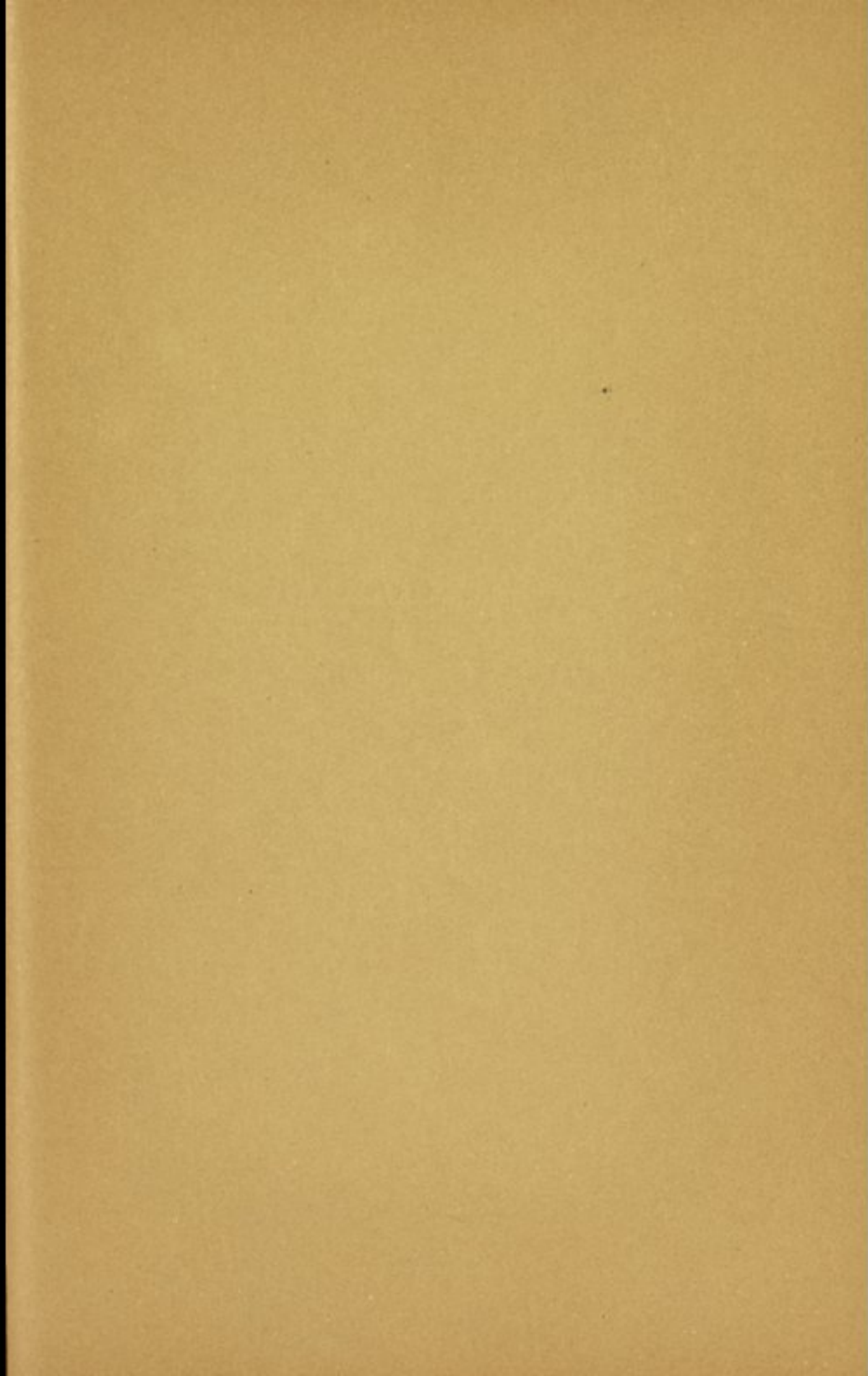
فاذا انصرفت نظر كل من العاشقين إلى صاحبه في شيء من الحرج
والضيق ثم جلس القتي وطال الصمت حيناً ثم أعلن إليها في هدوء أن
اسمه الخاص أندريه . . .

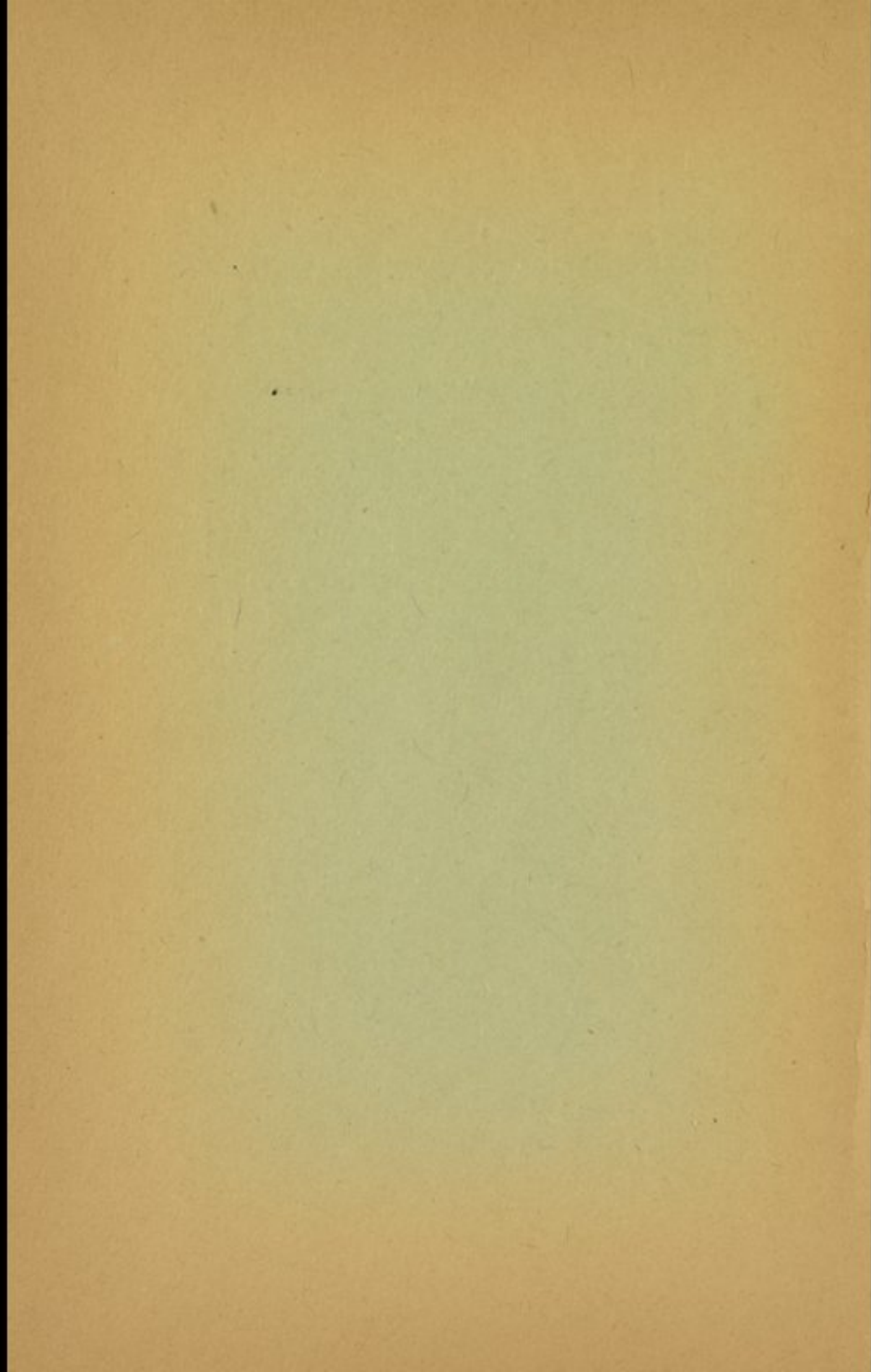
يوليو سنة ١٩٢٧

فهرست

ص	
۵	میشیل بوبیر
۲۱	الاعواء
۳۹	الغربان
۵۵	صوت
۷۳	اتوانیت ساربریه
۸۹	الشاب الجمیل
۱۰۹	الفؤاد المقسم
۱۳۱	سعادة اليوم
۱۴۹	زوجا لیونتین
۱۶۹	الملهی
۱۸۷	زوجها

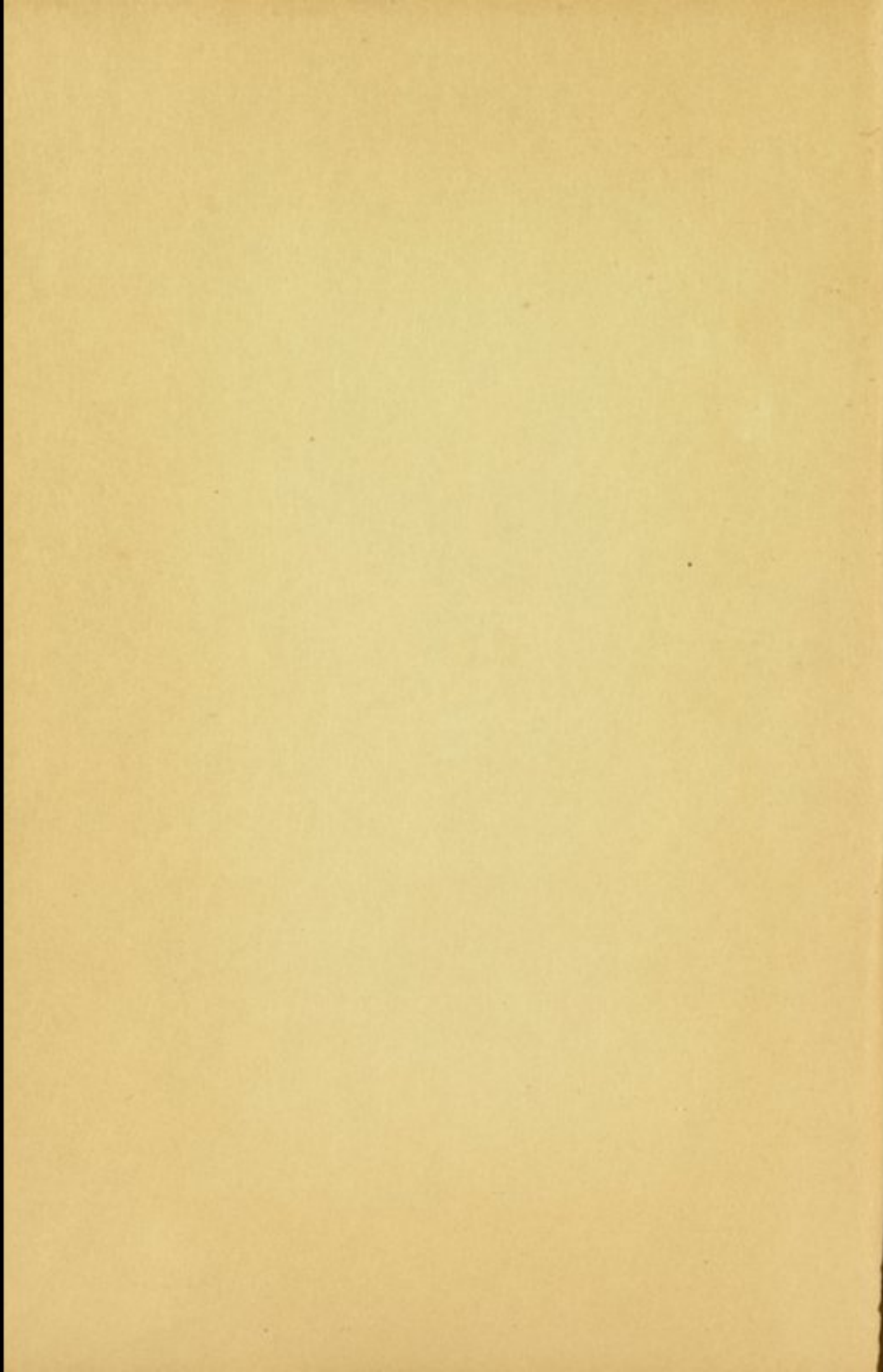
1953/3/1/982



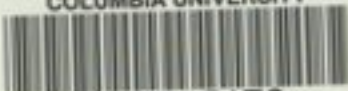


A 66





COLUMBIA UNIVERSITY



0026815176

893.7H954

W3

2

BOUND

JUL 24 1956

10719237

